شرح الطحاوية

فى العقيدة السلفية

تأليف

على بن على بن محمد بن أبى العز الحنفى

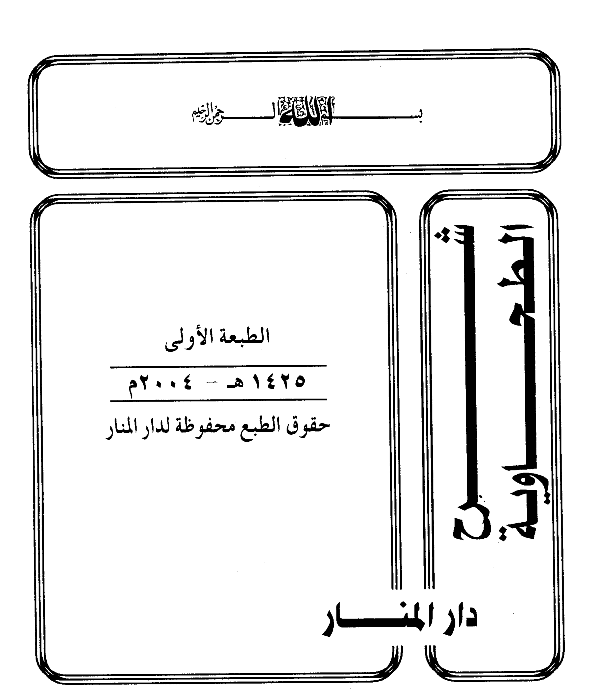
تحقيق وتعليق مع مقدمة في أسباب الإختلاف

الدكتور

عبد الرحمن عميره

الجزء الثاني

دار المنار



بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م

دار المنار

للطبع والنشر والتوزيع

٩ش حسن العدوى ـ ميدان الحسين - القاهرة ت : ٥٩١٥٠٨٥

وجوب الإيمان بالملائكة والكتب المنزلة والمرسلين

قوله: «ونؤمن بالملائكة والنبيين، والكتب المنزلة على المرسلين، ونشهد أنهم كانوا على الحق المبين».

ش: هذه الأمور من أركان الإيمان. قال تعالى: ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ﴾[البقرة: ٢٨٥] الآيات.

وقال تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ ﴾ [البقرة: ١٧٧]. الآية. فجعل الله سبحانه وتعالى الإيمان هو الإيمان بهذه الجملة، وسمى من آمن بهذه الجملة مؤمنين، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة بقوله: ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً ﴾ [النساء:١٣٦].

وقال ﷺ – فى الحديث المتفق على صحته، حديث جبرائيل وسؤاله للنبى – ﷺ عن الإيمان، فقالوا: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويؤمن بالقدر خيره وشره»(١).

فهذه الأصول التى أتفقت عليها الأنبياء والرسل – صلوات الله عليهم وسلامه، ولم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل.

جحد الفلاسفة لحقيقة الإيمان بالله وكتبه ورسله

وأما أعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة وأهل البدع، فهم متفاوتون فى جحدها وإنكارها، وأعظم الناس لها إنكاراً الفلاسفة المسلمون عند من يعظمهم بالحكماء، فإن من علم حقيقة قولهم علم أنهم لم يؤمنوا بالله ولا رسله

(١) الحديث رواه مسلم فى الإيمان ١، ٧، وأبو داود فى السنة ١٦، والترمذى فى القدر ١٠ وإيمان ٤ .ورواه ابن ماجه فى المقدمة ٩، ١٠، وأحمد بن حنبل ١، ٢٧، ٢٨، ٥٢.

ولا كتبه ولا ملائكته ولا باليوم الآخر، فإن مذهبهم أن الله سبحانه موجود لا ماهية له ولاحقيقة، فلا يعلم الجزئيات بأعيانها، وكل موجود فى الخارج فهو جزئى ولا يفعل عندهم بقدرته ومشيئته، وإنما العالم عندهم لازم له أزلاً وأبداً وإن سموه مفعولاً له فماصانعه..؟، ومصالحة للمسلمين فى اللفظ، وليس عندهم بمفعول ولا مخلوق، ولا مقدور عليه، وينفون عنه سمعه وبصره وسائر صفاته، فهذا إيمانهم بالله. وأما كتبه عندهم، فإنهم لا يصفون بالكلام، فلا يكلم ولا يتكلم، ولا قال ولا يقول، والقرآن عندهم فيض فاض من العقل الفعال على قلب بشر زاكى النفس طاهر، متميز عن النوع الإنسانى بثلاث خصائص: قوة الإدراك وسرعته لينال من العلم أعظم مما يناله غيره، وقوة النفس، ليؤثر بها فى هيولى العالم يقلب صورة إلى صورة، وقوة التخيل ليخيل بها القوى العقلية فى أشكال محسوسة، وهى الملائكة عندهم. وليس فى الخارج ذات منفصلة تصعد وتنزل وتذهب وتجىء وترى وتخاطب الرسول، وإنما ذلك عندهم أمور ذهنية لا وجود لها فى الأعيان.

وأما اليوم الآخر، فهم أشد الناس تكذيبًا وإنكارًا له فى الأعيان، وعندهم أن هذا العالم لا يخرب، ولا تشتق السموات ولا تنفطر، ولا تنكدر النجوم ولا تكوَّر الشمس والقمر، ولا يقوم الناس من قبورهم ويبعثون إلى جنة ونار. كل هذا عندهم أمثال مضروبة لتفهيم العوام، لا حقيقة لها فى الخارج، كما يفهم منها أتباع الرسل، فهذا إيمان هذه الطائفة – الذليلة الحقيرة – بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر.. وهذه هى أصول الدين الخمسة.

أصول المعتزلة وهدمهم الكثير من أصول الدين

وقد أبدلتها المعتزلة بأصولهم الخمسة التى هدموا بها كثيراً من الدين. فإنهم بنوا أصل دينهم على الجسم والعرض، الذى هو الموصوف والصفة عندهم، واحتجوا بالصفات التى هى الأعراض، على حدوث الموصوف الذى هو الجسم، وتكلموا فى التوحيد على هذا الأصل فنفوا عن الله كل صفة، تشبيهًا بالصفات الموجودة فى الموصوفات التى هى الأجسام، ثم تكلموا بعد ذلك فى أفعاله التى

هى القدر، وسموا ذلك «العدل» ثم تكلموا فى النبوة والشرائع والأمر والنهى والوعد، والوعيد، وهى مسائل الأسماء والأحكام التى هى المنزلة بين المنزلتين ومسألة إنفاذ الوعيد ثم تكلموا فى إلزام الغير بذلك، الذى هو الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وضمنوه جواز الخروج على الأئمة بالقتال.

فهذه أصولهم الخمسة التى وصفوها بإزاء أصول الدين الخمسة التى بعث بها الرسول. والرافضة المتأخرون، جعلوا الأصول أربعة: التوحيد والعدل والنبوة والإمامة.

أصول أهل السنة تابعة لما جاء به الرسول

وأصول أهل السنة والجماعة تابعة لما جاء به الرسول. وأصل الدين: الإيمان بما جاء به الرسول، كما تقدم بيان ذلك، ولهذا كانت الآيتان من آخر سورة البقرة – لما تضمنتا هذه الأصل – لهما شأن عظيم ليس لغيرهما، ففى «الصحيحين» عن أبى مسعود. عقبة بن عمرو، عن النبى – ﷺ، قال: «من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلة كَفَتَاه»[١].

وفى «صحيح مسلم» عن ابن عباس – رضى الله عنهما، قال: «بَيْنا جبرائيل قاعدٌ عند النبىِّ – ﷺ – سمع نقيضاً من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا بابٌ من السماء فُتح اليومَ لم يُفتحْ قط إلا اليومَ، فنزل منه ملكٌ فقال: هذا ملكٌ نزلَ إلى الأرضِ لم ينزلْ قط إلا اليوم، فسلم، وقال: أبشرْ بنورين أوتيتهما، لم يؤتهما نبىٌّ قبلك: فاتحة الكتاب، وخواتيم سورةِ البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أوتيته»[٢].

---

(١) الحديث رواه البخارى ٩–٥٠ فى فضائل القرآن، باب فضل سورة البقرة، وباب: من لم ير بأساً أن يقول: سورة البقرة، وباب فى كم يقرأ القرآن، وفى المغازى باب شهود الملائكة بدراً، ومسلم رقم ٨٠٨ فى صلاة المسافرين، باب فضل فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، والترمذى رقم ٢٨٨٤ فى ثواب القرآن، باب ما جاء فى آخر سورة البقرة، وأبو داود رقم ١٣٩٧ فى الصلاة، باب تحزيب القرآن.

(٢) الحديث رواه مسلم رقم ٧٠٦ فى صلاة المسافرين، باب فضل الفاتحة وخواتيم سورة البقرة، والنسائى ٢–١٣٨ فى افتتاح الصلاة، باب فضل فاتحة الكتاب وعند النسائى «إلا أعطيته» بدل «إلا أوتيته».

وقال أبو طالب المكى[1]: أركان الإيمان سبعة، يعنى هذه الخمسة، والإيمان بالقدر، والإيمان بالجنة والنار. وهذا حق، والأدلة عليه ثابتة محكمة قطعية وقد تقدمت الإشارة إلى دليل التوحيد والرسالة.

وأما الملائكة فهم الموكلون بالسموات والأرض، فكل حركة فى العالم فهى ناشئة عن الملائكة، كما قال تعالى: ﴿ **فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا** ﴾ [النازعات: ٥]. ﴿ **فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا** ﴾ [الذاريات: ٤]. وهم الملائكة عند أهل الإيمان وأتباع الرسل، وأما المكذبون بالرسل المنكرون للصانع فيقولون: هى النجوم!! وقد دل الكتاب والسنة على أصناف الملائكة وأنها موكلة بأصناف المخلوقات، وأنه سبحانه وكّل بالجبال ملائكة، ووكل بالسحاب والمطر ملائكة، ووكل بالرحم ملائكة تدبر أمر النطفة حتى يتم خلقها، ثم وكل بالعبد ملائكة لحفظ ما يعمله وإحصائه وكتابته، ووكل بالموت ملائكة، ووكل بالسؤال فى القبر ملائكة، ووكل بالأفلاك ملائكة يحركونها، ووكل بالشمس والقمر ملائكة، ووكل بالنار وإيقادها وتعذيب أهلها وعمارتها ملائكة، ووكل بالجنة وعمارتها وغرسها وعمل آلاتها ملائكة. فالملائكة أعظم جنود الله ومنهم: ﴿ **وَالْمُرْسَلاتِ عُرْفًا** ﴾ [المرسلات: ١] و﴿ **وَالنَّاشِرَاتِ نَشْرًا** ﴾ [المرسلات: ٣] و﴿ **فَالْفَارِقَاتِ فَرْقًا** ﴾ [المرسلات: ٤] و﴿ **فَالْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا** ﴾ [المرسلات: ٥] ومنهم: ﴿ **وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا** ﴾ [النازعات: ١] و﴿ **وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا** ﴾ [النازعات: ٢] و﴿ **وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا** ﴾ [النازعات: ٣] ﴿ **فَالسَّابِقَاتِ سَبْقًا** ﴾ [النازعات: ٤] ومنهم ﴿ **الصَّافَّاتِ صَفًّا * فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا * فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا** ﴾ [الصافات: ١-٣] ومعنى جمع التأنيث فى ذلك كله: الفرق والطوائف والجماعات التى مفردها «فرقة» و«طائفة» و«جماعة» ومنهم ملائكة الرحمة، وملائكة العذاب، وملائكة قد وكُلوا بحمل العرش، وملائكة قد وكلوا بعمارة السموات بالصلاة والتسبيح والتقديس إلى غير ذلك من أصناف الملائكة التى لا يحصيها إلا الله.

---

(١) هو محمد بن على بن عطية الحارثى، أبو طالب، واعظ زاهد فقيه من أهل الجبل بين بغداد وواسط، نشأ واشتهر بمكة، ورحل إلى البصرة، وسكن بغداد، وتوفى ببغداد سنة ٣٨٦هـ، له قوت القلوب مجلدان. (وفيات الأعيان جـ١، ص٤٩١).

ولفظ الملك يشعر بأنه رسول منفذ لأمر مرسله، فليس لهم من الأمر شيء بل الأمر كله للواحد القهار، وهم ينفذون أمره: ﴿**لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٧] ﴿**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**﴾ [الأنبياء: ٢٨]. ﴿**وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**﴾ [الأنبياء: ٢٨]. ﴿**يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ**﴾ [النحل: ٥٠]. فهم عباد مكرمون منهم الصافون، ومنهم المسبحون، ليس منهم إلا له مقام معلوم ولا يتخطاه، وهو على عمل قد أمر به، لا يقصر عنه ولا يتعداه، وأعلاهم الذين عنده ﴿**لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ**﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠]. ومنهم[1] الأملاك الثلاثة: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، الموكلون بالحياة فجبرائيل موكل بالوحى الذى جاء به حياة القلوب والأرواح، وميكائيل موكل بالقطر الذى به حياة الأرض والنبات والحيوان، وإسرافيل موكل بالنفخ فى الصور الذى به حياة الخلق بعد مماتهم.

فهم رسل الله فى خلقه وأمره، وسفراؤه بينه وبين عباده، ينزلون بالأمر من عنده فى أقطار العالم، ويصعدون إليه بالأمر، قد أطت السموات بهم، وحق لها أن تئط ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك قائم أو راكع أو ساجد لله، ويدخل البيت المعمور منهم كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه آخر ما عليهم. والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم، فتارة يقرن الله تعالى اسمه باسمهم، وصلاته بصلاتهم، ويضيفهم إليه فى مواضع التشريف، وتارة يذكر حفهم بالعرش وحملهم له، ومراتبهم من الدنو، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم، والتقريب والعلو والطهارة، والقوة والإخلاص. قال تعالى: ﴿**كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ**﴾ [البقرة: ٢٨٥]. ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ**﴾ [آل عمران: ١٨]. ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ**﴾ [الأحزاب: ٤٣]. ﴿**الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ**

---

(١) فى ب: ورؤساؤهم.

وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [غافر : ٧] . ﴿ وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ﴾ [الزمر : ٧٥] . ﴿ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ [الأنبياء : ٢٦] ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ ﴾ [الأعراف : ٢٠٦] ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴾ [فصلت : ٣٨] ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ [الانفطار : ١١] ﴿ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴾ [عبس : ١٦] ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ [المطففين : ٢١] ﴿ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ ﴾ [الصافات : ٨] .

وكذلك الأحاديث النبوية(١) طافحة بذكرهم : فلهذا كان الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة التى هى أركان الإيمان .

المفاضلة بين الملائكة وصالحى البشر

وقد تكلم الناس فى المفاضلة بين الملائكة وصالحى البشر، وينسب إلى أهل السنة تفضيل صالحى البشر والأنبياء فقط على الملائكة، وإلى المعتزلة تفضيل الملائكة، وأتباع الأشعرى على قولين : منهم من يفضل الأنبياء والأولياء ومنهم من يقف ولا يقطع فى ذلك قولاً .

وحكى عن بعضهم ميلهم إلى تفضيل الملائكة، وحكى ذلك عن غيرهم من أهل السنة وبعض الصوفية .

وقالت الشيعة : إن جميع الأئمة أفضل من جميع الملائكة . ومن الناس من فصّل تفصيلاً آخر، ولم يقل أحد ممن له قول يؤثر إن الملائكة أفضل من بعض الأنبياء دون بعض .

وكنت ترددت فى الكلام على هذه المسألة، لقلة ثمرتها، وأنها قريب مما لا يعنى و« من حُسنِ إسلام المرءِ تركُه ما لا يعنيه »(٢) والشيخ رحمه الله لم يتعرض

---

(١) سقط من « أ » النبوية .

(٢) الحديث رواه ابن ماجه فى كتاب « الفتن » باب : كف اللسان فى الفتنة رقم ١٢ رقم ٣٩٧٦ عن أبى هريرة بهذا اللفظ، ورواه الترمذى فى كتاب « الزهد » ١١، وصاحب الموطأ : حسن الخلق ٣، كلام ١٧ .

إلى هذه المسألة بنفى ولا إثبات، ولعله يكون قد ترك الكلام فيها قصداً، فإن الإمام أبا حنيفة - رضى الله عنه - وقف فى الجواب عنها على ما ذكره فى «مآل الفتاوى»[1] فإنه ذكر مسائل لم يقطع أبو حنيفة فيها بجواب، وعد منها التفضيل بين الملائكة والأنبياء.

وهذا هو الحق، فإن الواجب علينا الإيمان بالملائكة والنبيين، وليس علينا أن نعتقد أى الفريقين أفضل، فإن هذا لو كان من الواجب لبين لنا نصًا وقد قال تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ** ﴾ [المائدة: ٣]. ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا** ﴾ [مريم: ٦٤] . وفى الصحيح: «إن الله فرضَ فرائضَ لا تضيعوها، وحدَّ حدوداً فلا تعتدُوها وحرَّم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياءَ رحمةً بكم غير نسيان - فلا تسألوا عنها»[2].

فالسكوت عن الكلام فى هذه المسألة نفيًا وإثباتًا والحالة هذه أولى. ولا يقال: إن هذه المسألة نظير غيرها من المسائل المستنبطة من الكتاب والسنة لأن الأدلة هنا متكافئة، على ما أشير إليه إن شاء الله تعالى.

وحملنى على بسط الكلام هنا: أن بعض الجاهلين يسيئون الأدب بقولهم: «كان الملك خادمًا للنبى - ﷺ، أو أن بعض الملائكة خدام بنى آدم!! يعنون الملائكة الموكلين بالبشر، ونحو ذلك من الألفاظ المخالفة للشرع، المجانبة للأدب».

والتفضيل إذا كان على وجه التنقيص أو الحمية والعصبية للجنس - لا شك فى رده، وليست هذه المسألة نظير المفاضلة بين الأنبياء، فإن تلك قد وجد فيها نص، وهو قوله تعالى: ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقوله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ [الإسراء: ٥٥]. وقد تقدم الكلام فى ذلك عند قول الشيخ: وسيد المرسلين، يعنى النبىّ - ﷺ

---

(١) مآل الفتاوى «فى كشف الظنون» للإمام ناصر الدين السمرقندى الحنفى أتمه فى شعبان سنة ٥٤٩.

(٢) الحديث رواه أبو نعيم فى حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٩، ص١٧، بنحوه مع تغيير طفيف فى بعض العبارات.

– والمعتبر رجحان الدليل، ولا يهجر القول لأن بعض أهل الأهواء وافق عليه[1]، بعد أن تكون المسألة مختلفًا فيها بين أهل السنة.

وقد كان أبو حنيفة – رضى الله عنه – يقول أولاً بتفضيل الملائكة على البشر ثم قال بعكسه، والظاهر أن القول بالتوقف أحد أقواله. والأدلة فى هذه المسألة من الجانبين إنما تدل على الفضل، لا على الأفضلية، ولا نزاع فى ذلك. وللشيخ تاج الدين الفزارى[2] – رحمه الله مصنف سماه «الإشارة فى البشارة» فى تفضيل البشر على الملك قال فى آخره: اعلم أن هذه المسألة من بدع علم الكلام التى لم يتكلم فيها الصدر الأول من الأمة، ولا من بعدهم من أعلام الأمة، ولا يتوقف عليها أصل من أصول العقائد، ولا يتعلق بها من الأمور الدينية كثير من المقاصد. ولهذا خلا عنها طائفة من مصنفات هذا الشأن وامتنع من الكلام فيها جماعة من الأعيان، وكل متكلم فيها من علماء الظاهر بعلمه. لم يخل بكلامه من ضعف واضطراب. انتهى والله الموفق للصواب.

فمما استدل به على تفضيل الأنبياء على الملائكة: أن الله أمر الملائكة أن يسجدوا لآدم، وهذا دليل على تفضيله عليهم، ولذلك امتنع إبليس واستكبر وقال: ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴾ [الإسراء: ٦٢].

قال الآخرون: إن سجود الملائكة كان امتثالاً لأمر ربهم، وعبادة وانقيادًا وطاعة له، وتكريمًا لآدم وتعظيمًا، ولا يلزم من ذلك الأفضلية، كما لم يلزم من سجود يعقوب لابنه يوسف عليهما السلام تفضيل ابنه عليه، ولا تفضيل الكعبة على بنى آدم بسجودهم إليها امتثالاً لأمر ربهم.

وأما امتناع إبليس، فإنه عارض النص برأيه وقياسه الفاسد بأنه خير منه وهذه المقدمة الصغرى، والكبرى محذوفة، تقديرها: والفاضل لا يسجد للمفضول!! وكلتا المقدمتين فاسدة.

---

(١) سقط من «ب»: أهل. وذكر أيضًا: «عليها» بدلاً من «عليه».

(٢) لعله الشيخ إبراهيم بن عبد الرحمن الفزارى أبو إسحاق، من كبار الشافعية مصرى الأصل، من أهل دمشق، من بيت علم، عرض عليه قضاء قضاة الشام فأبى منقطعًا للتدريس والعبادة، توفى بدمشق عام ٧٢٩هـ، له كتاب عن شيوخه. توجد منه قطعة مخطوطة فى المكتبة الظاهرية.

أما الأولى فإن التراب يفوق النار في أكثر صفاته، ولهذا خان إبليس عنصره، فأبى واستكبر، فإن من صفات النار طلب العلو والخفة والطيش والرعونة، وإفساد ما تصل إليه ومحقه وإهلاكه وإحراقه، ونفع آدم عنصره في التوبة والاستكانة، والانقياد والاستسلام لأمر الله، والاعتراف وطلب المغفرة، فإن من صفات التراب الثبات والسكون والرصانة، والتواضع والخضوع والخشوع والتذلل، وما دنا منه ينبت ويزكو وينمو ويبارك فيه، ضد النار.

وأما المقدمة الثانية، وهي: أن الفاضل لا يسجد للمفضول فباطلة، فإن السجود طاعة لله وامتثال لأمره، ولو أمر الله عباده أن يسجدوا الحجر لوجب عليهم الامتثال والمبادرة. ولا يدل ذلك على أن المسجود له أفضل من الساجد وإن كان فيه تكريمه وتعظيمه، وإنما يدل على فضله.

قالوا: وقد يكون قوله: ﴿ **أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ** ﴾. بعد طرده لامتناعه عن السجود له، لا قبله فينتفي الاستدلال به.

ومنه: أن الملائكة لهم عقول وليست لهم شهوات، والأنبياء لهم عقول وشهوات، فلما نهوا أنفسهم عن الهوى، ومنعوها عما تميل إليه الطباع كانوا بذلك أفضل.

وقال آخرون: يجوز أن يقع من الملائكة من مداومة الطاعة، وتحمل العبادة وترك الوني والفتور فيها — ما يفي بتجنب الأنبياء شهواتهم، مع طول مدة عبادة الملائكة. ومنه: أن الله تعالى جعل الملائكة رسلاً إلى الأنبياء، وسفراء بينه وبينهم. وهذا الكلام قد اعتل به من قال إن الملائكة أفضل واستدلالهم به فإن الأنبياء المرسلين، إن ثبت تفضيلهم على الرسل إليهم بالرسالة ثبت تفضيل الرسل من الملائكة إليهم عليهم، فإن الرسول الملكي يكون رسولاً إلى الرسول البشري.

ومنه قوله تعالى: ﴿ **وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا** ﴾ [البقرة: ٣١]. الآيات، قال الآخرون: وهذا دليل على الفضل لا على التفضيل، وآدم والملائكة لا يعلمون إلا ما علمهم الله، وليس الخَضِر أفضل من موسى، بكونه علم مالم يعلمه موسى، وقد سافر موسى وفتاة في طلب العلم إلى الخضر، وتزود لذلك، وطلب موسى

منه العلم صريحًا، وقال له الخضر: إنك على علم من علم الله، إلى آخر كلامه. ولا الهدهد أفضل من سليمان عليه السلام، بكونه أحاط بما لم يحط به سليمان عليه السلام علمًا.

ومنه قوله تعالى: ﴿**مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ [ص: ٧٥].

قال الآخرون: هذا دليل الفضل لا الأفضلية، وإلا لزم تفضيله على محمد - ﷺ فإن قلتم: هو من ذريته؟ فمن ذريته البر والفاجر، بل يوم القيامة إذا قيل لآدم: «ابعث من ذريتك بعثًا إلى النار»[١]. «يبعث من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار، وواحدًا إلى الجنة»[٢]. فما بال هذا التفضيل سرى إلى هذا الواحد من الألف فقط؟.

ومنه قول عبد الله بن سلام[٣] - رضى الله عنه - ما خلق الله خلقًا أكرم عليه من محمد - ﷺ - الحديث، فالشأن في ثبوته وإن صح عنه فالشأن في ثبوته في نفسه، فإنه يحتمل أن يكون من الإسرائيليات.

ومنه حديث عبد الله بن عمرو - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ قال: «إن الملائكة قالت: يا ربنا، أعطيت بنى آدم الدنيا يأكلون فيها ويشربون ويلبسون ونحن نسبح بحمدك، ولا نأكل ولا نشرب ولا نلهو، فكما جعلت لهم الدنيا فاجعل لنا الآخرة؟ قال: لا أجعل صالح ذرية من خلقت بيدى كمن قلت له: كن فكان» أخرجه الطبرانى[٤]. وأخرجه عبد الله بن أحمد بن محمد

---

(١) الحديث: رواه أحمد فى مسنده، ج١، رقم ٣٨٨ بلفظ: إن الله عز وجل يبعث يوم القيامة مناديًا ينادى يا آدم إن الله يأمرك أن تبعث بعثًا من ذريتك إلى النار فيقول آدم: ومن كم. قال: فيقال: من كل مائة تسعة وتسعين. ورواه البخارى فى كتاب التفسير تحت تفسير سورة الحج وكذلك فى كتاب الرقاق ٤٥، وتوحيد ٢٢.

(٢) يراجع تخريج الحديث الذى قبل هذا.

(٣) عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى أبو يوسف صحابى. قيل إنه من نسل يوسف ابن يعقوب، أسلم عند قدوم النبى ﷺ المدينة، وكان اسمه «الحصين» فسماه رسول الله «عبد الله»، شهد مع عمر فتح بيت المقدس والجابية، مات سنة ٤٣هـ وله ٢٥ حديثًا.

(٤) قال الشيخ الألبانى: ضعيف كما أشار المصنف، وأما تعقيب الشيخ أحمد شاكر عليه بقوله: هكذا أعل الشارح الحديث إسنادًا ومتنًا وما أصاب فى ذلك السداد إذ قصر فى تخريجه. أما رواية الطبرانى فإنها ضعيفة حقًا بل فى غاية الضعف، فقد نقلها ابن كثير فى =

ابن حنبل[1] عن عروة بن رُوَيْم أنه قال: أخبرني الأنصاري، عن النبي - ﷺ - أن الملائكة قالوا: الحديث، وفيه: وينامون ويستريحون، فقال الله تعالى: لا، فأعادوا القول ثلاث مرات، كل ذلك يقول: لا.

والشأن في ثبوتهما، فإن في سنديهما مقالاً، وفي متنهما شيئًا، فكيف يظن بالملائكة الاعتراض على الله مرات عديدة؟ وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون؟ وهل يظن بهم أنهم متبرمون بأحوالهم، متشوقون إلى ما سواها من شهوات بني آدم؟ والنوم أخو الموت فكيف يغبطونهم به؟ وكيف يظن بهم أنهم يغبطونهم باللهو، وهو من الباطل؟. قالوا: بل الأمر بالعكس، فإن إبليس إنما وسوس إلى آدم ودلاه بغرور، إذ أطمعه في أن يكون ملكًا بقوله: ﴿ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴾ [الأعراف: ٢٠].

فدل أن أفضلية الملك أمر معلوم مستقر في الفطرة، يشهد لذلك قوله تعالى حكاية عن النسوة اللاتي قطَّعن أيديهن عند رؤية يوسف: ﴿ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلاَّ مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ [يوسف: ٣١]. وقال تعالى: ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ﴾ [الأنعام: ٥٠]. قال الأولون: إن هذا إنما كان لما هو مركوز في النفس: أن الملائكة خلق جميل عظيم، مقتدر على الأفعال الهائلة، خصوصًا العرب، فإن الملائكة

=التفسير (٥-٢٠٦) بإسنادها من المعجم الكبير ونقلها الهيثمي في مجمع الزوائد (١-٨٢) وقال: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفيه إبراهيم بن عبد الله بن خالد المصيصي وهو كذاب متروك، وفي إسناد الأوسط طلحة بن زيد وهو كذاب أيضًا فهذان إسنادان لا نعبأ بهما ولكن الحديث رواه الإمام عثمان بن سعيد الدارمي في كتاب الرد على المريسي (صفحة ٣٤) بإسناد صحيح مطولاً رواه عن عبد الله بن صالح، عن الليث بن سعد، عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم، عن عطاء بن يسار، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وهذا إسناد لا مغمز فيه، وقد أشار إليه الحافظ ابن كثير في التاريخ (١-٥٥) مختصرًا من رواية عثمان بن سعيد وأشار إلى صحته.

(١) هو عبد الله ابن الإمام أحمد بن حنبل أبو عبد الرحمن، حدث عن أبيه، وعن عبد الأعلى بن حماد وغيرهما، وروى عنه أبو القاسم البغوي وعبدالله النيسابوري وغيرهم، وكان ثقة ثبتًا فهمًا، ولد سنة ٢١٣هـ وتوفي سنة ٢٩٠هـ.

كانوا فى نفوسهم من العظمة بحيث قالوا: إن الملائكة بنات الله، تعالى الله عن قولهم علوًا كبيرًا.

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران: ٣٣]. قال الآخرون: قد يذكر «العالمون» ولا يقصد به العموم المطلق بل، فى كل مكان بحسبه كما فى قوله تعالى: ﴿ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان: ١]. ﴿ قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٠](١) ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٦٥]. ﴿ وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ [الدخان: ٣٢].

ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ ﴾ [البينة: ٧]. والبرية: مشتقة من البَرْء، بمعنى الخلق، فثبت أن صالحى البشر خير الخلق. قال الآخرون: إنما صاروا خير البرية لكونهم آمنوا وعملوا الصالحات، والملائكة فى هذا الوصف أكمل، فإنهم لا يسأمون ولا يفترون فلا يلزم أن يكونوا خيرًا من الملائكة. هذا على قراءة من قرأ «البريئة» بالهمز وعلى قراءة من قرأ بالياء إن قلنا: إنها مخففة من الهمزة، وإن قلنا: إنها نسبة إلى البرى وهو التراب كما قاله الفراء(٢) فيما نقله عنه الجوهرى(٣) فى «الصحاح» يكون المعنى أنهم خير من خلق من التراب، فلا عموم فيها، إذ الغير من خلق من التراب.

قال الأولون: إنما تكلمنا فى تفضيل صالحى البشر إذا كملوا، ووصلوا إلى

---

(١) وقد سقطت هذه الآية من نسخة الشيخ أحمد شاكر.

(٢) يحيى بن زياد بن عبد الله بنِ منظور الديلمي المعروف بالفراء ولد سنة ١٤٤هـ كان يقال له أمير المؤمنين فى النحو، وكان فقيهًا متكلمًا، عالمًا بأخبار العرب وأيامها، عارفًا بالنجوم والطب يميل إلى الاعتزال، من كتبه: المقصور والممدود، ومعانى القرآن توفى سنة ٢٠٧هـ.

(٣) الجوهرى: هو إسماعيل بن حماد الجوهرى أبو نصر، أول من حاول الطيران، ومات فى سبيله، لغوى من الأئمة، أشهر كتبه «الصحاح» مجلدان، وله كتاب فى العروض، ومقدمة فى النحو أصله من «فاراب» ودخل العراق صغيرا، وسافر إلى الحجاز فطاف البادية وعاد إلى خراسان، توفى سنة ٣٩٣هـ.

غايتهم وأقصى نهايتهم، وذلك إنما يكون إذا دخلوا الجنة، ونالوا الزلفى، وسكنوا الدرجات العلى، وحباهم الرحمن بمزيد قربه، وتجلى لهم ليستمتعوا بالنظر إلى وجهه الكريم.

وقال الآخرون: الشأن فى أنهم هل صاروا إلى حالة يفوقون فيها الملائكة أو يساوونهم فيها؟ فإن كان قد ثبت لهم أنهم يصيرون إلى حال يفوقون فيها الملائكة سلم المدعى، وإلا فلا.

ومما استدل به على تفضيل الملائكة على البشر: قوله تعالى: ﴿ **لَن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلا الْمَلائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ** ﴾ [النساء: ١٧٢]، وقد ثبت من طريق اللغة أن مثل هذا الكلام يدل على أن المعطوف أفضل من المعطوف عليه، لأنه لا يجوز أن يقال: لن يستنكف الوزير أن يكون خادمًا للملك، ولا الشرطى أو الحارس! وإنما يقال: لن يستنكف الشرطى أن يكون خادمًا للملك ولا الوزير.

ففى مثل هذا التركيب يترقى من الأدنى إلى الأعلى، فإذا ثبت تفضلهم على عيسى عليه السلام ثبت فى حق غيره، إذ لم يقل أحد إنهم أفضل من بعض الأنبياء دون بعض.

أجاب الآخرون بأجوبة، أحسنها، أو من أحسنها: أنه لا نزاع فى فضل قوة الملك وقدرته وشدته وعظم خلقه، وفى العبودية خضوع وذل وانقياد، وعيسى عليه السلام لا يستنكف عنها ولا من هو أقدر منه وأقوى وأعظم خلقًا، ولا يلزم من مثل هذا التركيب الأفضلية المطلقة من كل وجه.

ومنه قوله تعالى: ﴿ **قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ** ﴾ [الأنعام: ٥٠]. ومثل هذا يقال بمعنى: إنى لو قلت ذلك لا دعيت فوق منزلتى، ولست ممن يدعى ذلك.

أجاب الآخرون: إن الكفار كانوا قد قالوا: ﴿ **مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ** ﴾ [الفرقان: ٧]. فأمر أن يقال لهم: إنى بشر مثلكم أحتاج

إلى ما يحتاج إليه البشر من الاكتساب والأكل والشراب، ولست من الملائكة الذين لم يجعل الله لهم حاجة إلى الطعام والشراب فلا يلزم حينئذ الأفضلية المطلقة. ومنه ما روى مسلم بإسناده عن أبى هريرة – رضى الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ « المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفى كل خير »(١).

ومعلوم أن قوة البشر لا تدانى قوة الملك ولا تقاربها.

قال الآخرون: الظاهر أن المراد المؤمن البشر – والله أعلم – فلا تدخل الملائكة فى هذا العموم.

ومنه ما ثبت فى « الصحيح » عن أبى هريرة – رضى الله عنه – عن النبى – ﷺ – أنه قال فيما يروى عن ربه عز وجل قال: يقول الله تعالى: « أنا عند ظنِّ عبدى بى وأنا معه إذا ذكرنى، فأن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى، وإن ذكرنى فى ملإٍ ذكرته فى ملأ خير منهم »(٢). الحديث. وهذا نص فى الأفضلية.

قال الآخرون: يحتمل أن يكون المراد خيرًا منه للمذكور لا الخيرية المطلقة. ومنه ما رواه إمام الأئمة محمد بن خزيمة(٣)، بسنده فى كتاب « التوحيد » عن أنس رضى الله عنه قال: قال رسول الله – ﷺ: « بيْنا أنا جالسٌ إذ جاء جبريلُ،

---

(١) الحديث أخرجه مسلم فى كتاب القدر رقم ٢٦٦٤ بزيارة: أحرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شىء فلا تقل: لو أنى فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان. رواه ابن ماجه فى المقدمة ١٠ والزهد ١٤ ورواه أحمد ابن حنبل فى مسنده ٢–٢٦٦، ٣٧٠.

(٢) الحديث رواه مسلم فى الذكر ٢، ١٨، ١٩، ٢١ ورواه البخارى فى التوحيد ١٥، ٤٢ ورواه الترمذى فى الدعوات ١٢١ وابن ماجه فى الأدب ٥٢، ٥٨ وأحمد بن حنبل ٢–٢٥١ ولفظه عند مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله – ﷺ: « يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه حين يذكرنى إن ذكرنى فى نفسه، ذكرته فى نفسى وإن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ وهم خير منهم وإن تقرب منى شبرا تقربت إليه ذراعا وإن تقرب إلى ذراعا تقربت منه باعا وإن أتانى يمشى أتيته هرولة ».

(٣) ابن خزيمة: هو محمد بن إسحاق بن خزيمة السلمى أبو بكر: إمام نيسابور فى عصره. كان فقيها مجتهدا عالما بالحديث، مولده عام ٢٢٣هـ بنيسابور، رحل إلى العراق والشام والجزيرة ومصر ولقبه السبكى بإمام الأئمة، تزيد مصنفاته على ١٤٠ منها كتاب التوحيد وإثبات صفة الرب، وصحيح ابن خزيمة، توفى سنة ٣١١هـ.

فوكز بين كتفيَّ، فقمت إلى شجرةٍ مثلِ وكرى الطبر، فقعد فى إحداها وقعدت فى الأُخرى، فسمت وارتفعت حتى سدَّت الخافقين، وأنا أقلبُ بصرى ولو شئتُ أن أمسَّ السماء مسست، فنظرت إلى جبرائيل كأنه حلس الطيء فعرفت فضل علمه بالله على »[1]. الحديث.

قال الآخرون: فى سنده مقال فلا نسلم الاحتجاج به بعد ثبوته.

وحاصل الكلام: أن هذه المسألة من فضول المسائل. ولهذا لم يتعرض لها كثير من أهل الأصول، وتوقف أبو حنيفة – رضى الله عنه فى الجواب عنها، كما تقدم – والله أعلم بالصواب.

أولو العزم من الرسل عليهم الصلاة والسلام

وأما الأنبياء والمرسلون، فعلينا الإيمان بمن سمى الله تعالى فى كتابه من رسله والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلاً سواهم وأنبياء، لا يعلم أسماءهم وعددهم إلا الله تعالى الذى أرسلهم. فعلينا الإيمان بهم جملة، لأنه لم يأت فى عددهم نص وقد قال تعالى: ﴿ **وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ** ﴾ [النساء: ١٦٤]. وقال تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ** ﴾ [غافر: ٧٨]. وعلينا الإيمان بأنهم بلَّغوا جميع ما أرسلوا به على ما أمرهم الله به وأنهم بينوه بيانًا لا يسع أحدًا ممن أرسلوا إليه جهله ولا يحل خلافه. قال تعالى: ﴿ **فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾ [النحل: ٣٥]. ﴿ **فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ الْمُبِينُ** ﴾ [النحل: ٨٢]. ﴿ **وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا** ﴾ [النور: ٥٤] ﴿ **وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلاَّ**

---

(١) قال الشيخ الألبانى: ضعيف فيه الحارث بن عبيد الأبادى وهو ضعيف لسوء حفظه وقول الشيخ أحمد شاكر: تكلم فيه بغير حجة، والراجح توثيقه، مردود فقد قال فيه الإمام أحمد: مضطرب الحديث. وقال أبو حاتم: ليس بالقوى يكتب حديثه ولا يحتج به. وقال ابن حبان: كان ممن كثر وصمه حتى خرج عن جملة من يحتج بهم إذا انفردوا. ومن المقرر فى المصطلح أن الجرح المفسر مقدم على التعديل. وقد تبين من هذه الكلمات أن ضعفه بسبب وصمه. وأحسن ما قيل فيه قول النسائى: صالح أفمثل هذا يرد نصوص الأئمة الجارحة..؟

الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤]. ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ [التغابن: ١٢].

وأما أولو العزم من الرسل. فقد قيل فيهم أقوال أحسنها ما نقله البغوى[١] وغيره عن ابن عباس وقتادة: أنهم نوح وإبراهيم، وموسى وعيسى ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهم. قال: وهم المذكورون فى قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧].

وفى قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ [الشورى: ١٣].

وأما الإيمان بمحمد - ﷺ، فتصديقه وإتباع ما جاء به من الشرائع إجمالاً وتفصيلاً.

الإيمان بالكتب المنزلة

وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين. فنؤمن بما سمَّى الله تعالى منها فى كتابه، من التوراة والإنجيل والزبور، ونؤمن بأن لله تعالى سوى ذلك كتبًا أنزلها على أنبيائه لا يعرف أسماءها وعددها إلا الله تعالى. وأما الإيمان بالقرآن، فالإقرار به وإتباع ما فيه، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب. فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على رسل الله أتتهم من عند الله، وأنها حق وهدى ونور وبيان وشفاء. قال تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦] إلى قوله: ﴿وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ١٣٦] ﴿الم ۝ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [آل عمران: ١، ٢]. إلى قوله: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ١، ٢]. ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ﴾ [البقرة: ٢٨٥]. ﴿أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

---

(١) سبق أن ترجم له.

إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن الله تكلم بها وأنها نزلت من عنده وفي ذلك إثبات صفة الكلام والعلو. وقال تعالى: ﴿ **كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ** ﴾ [البقرة: ٢١٣]. ﴿ **وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ** ﴾ [فصلت: ٤٢]. ﴿ **وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ** ﴾ [سبأ: ٦]. ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [يونس: ٥٧]. ﴿ **قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ** ﴾ [فصلت: ٤٤].

﴿ **فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا** ﴾ [التغابن: ٨]. وأمثال ذلك في القرآن كثيرة.

أهل القبلة مسلمون مؤمنون

قوله: «ونسمي أهل قبلتنا مسلمين، ما داموا بما جاء به النبي – ﷺ معترفين، وله بكل ما قاله وأخبر مصدقين».

ش: قال رسول الله – ﷺ: «من صلَّى صلاتَنا واستقبلَ قبلتَنا وأكلَ ذبيحتَنا فهو المسلمُ، له مالنا وعليه ما علينا»[1]. ويشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام إلى أن الإسلام والإيمان واحد، وأن المسلم لا يخرج من الإسلام بارتكاب الذنب ما لم يستحله. والمراد بقوله: أهل قبلتنا، من يدعي الإسلام ويستقبل الكعبة. وإن كان من أهل الأهواء أو من أهل المعاصي، ما لم يكذب بشيء مما جاء به الرسول – ﷺ – وسيأتي الكلام على هذين المعنيين عند قول الشيخ: ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله. وعند قوله: والإسلام والإيمان واحد، وأهله في أصله سواء.

---

(١) الحديث رواه البخاري في الصلاة ٢٨؛ والنسائي في الإيمان ٩، ١٥ ولفظة عند البخاري عن أنس بن مالك – رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا فذلك المسلم الذي له ذمة الله، وذمة رسوله، فلا تخفروا الله في ذمته».

لا نخوض فى الله ولا نمارى فى دينه

قوله : « ولا نخوض فى الله ولا نمارى فى دين الله » .

ش : يشير الشيخ رحمه الله إلى الكف عن كلام المتكلمين بالباطل، وذم علمهم، فإنهم يتكلمون في الإله بغير علم وغير سلطان أتاهم . ﴿ **إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ** ﴾ [النجم : ٢٣] .

وعن أبى حنيفة رحمه الله، أنه قال : لا ينبغى لأحد أن ينطق فى ذات الله بشىء، بل يصفه بما وصف به نفسه . وقال بعضهم : الحق سبحانه يقول : من ألزمته القيام مع أسمائى وصفاتى ألزمته الأدب، ومن كشفت له حقيقة ذاتى ألزمته العطب . فاختر الأدب أو العطب .

ويشهد لهذا : أنه سبحانه لما كشف للجبل عن ذاته ساخ الجبل وتدكدك، ولم يثبت على عظمة الذات .

قال الشبلى :[1] الانبساط بالقول مع الحق ترك الأدب . وقوله ولا نمارى فى دين الله . معناه : لا نخاصم أهل الحق بإلقاء شبهات أهل الأهواء عليهم، التماساً لامترائهم وميلهم، لأنه فى معنى الدعاء إلى الباطل، وتلبيس الحق، وإفساد دين الإسلام .

القرآن كلام الله والنهى عن الجدال فيه

قوله : « ولا نجادل فى القرآن، ونشهد أنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، فعلمه سيد المرسلين – محمداً – صلى الله عليه وآله وسلم . وهو كلام الله تعالى، لا يساويه شىء من كلام المخلوقين . ولا نقول بخلقه، ولا نخالف جماعة المسلمين » .

ش : فقوله ولا نجادل فى القرآن، يحتمل أنه أراد : أنا لا نقول فيه كما قال أهل الزيغ واختلفوا، وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق، بل نقول : إنه كلام رب العالمين، نزل به الروح الأمين، إلى آخر كلامه .

---

(١) الشبلى : هو دلف بن جحدر الشبلى، ناسك كان فى مبدأ أمره والياً فى نهاوند من نواحى الرى، وولى الحجابة للموفق العباسى، ثم ترك الولاية وعكف على العبادة فاشتهر بالصلاح، أصله من خراسان ونسبته إلى قرية « شبلة » من قرى ما وراء النهر توفى سنة ٣٣٤هـ.

ويحتمل أنه أراد: أنا لا نجادل فى القراءة الثابتة، بل نقرؤه بكل ما ثبت وصح. وكل من المعنيين حق، ويشهد بصحة المعنى الثانى ما روى عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - أنه قال: «سمعت رجلاً قرأ آيةً سمعتُ رسولَ الله - ﷺ يقرأ خلافها، فأخذت بيده، فانطلقت به إلى رسول الله - ﷺ، فذكرتُ ذلك له، فعرفت فى وجهه الكراهية وقال: كلاكما مُحسن، لا تختلفوا، فإن مَن كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»[1] رواه مسلم. نهى رسول الله - ﷺ - عن الاختلاف الذى فيه جحد كل واحد من المختلفين مع صاحبه من الحق، لأن كلا القارئين كان محسنًا فيما قرأه، وعلل ذلك بأن من كان قبلنا اختلفوا فهلكوا. ولهذا قال حذيفة[2]- رضى الله عنه - لعثمان - رضى الله عنه - : أدرك هذه الأمة لا تختلف كما اختلفت الأمم قبلهم. فجمع الناس على حرف واحد اجتماعًا سائغًا وهم معصومون أن يجتمعوا على ضلالة، ولم يكن فى ذلك ترك لواجب، ولا فعل لمحظور، إذ كانت قراءة القرآن على سبعة أحرف جائزة لا واجبة، رخصة من الله تعالى، وقد جعل الاختيار إليهم فى أى حرف اختاروه. كما أن ترتيب السور لم يكن واجبًا عليهم منصوصًا. ولهذا كان ترتيب مصحف عبدالله على غير ترتيب المصحف العثمانى، وكذلك مصحف غيره وأما ترتيب آيات السير فهو ترتيب منصوص عليه، فلم يكن لهم أن يقدموا آية على آية، بخلاف السور، فلما رأى الصحابة أن الأُمة تفترق وتختلف وتتقاتل إن لم تجتمع على حرف واحد - جمعهم الصحابة عليه. هذا قول جمهور السلف من العلماء والقراء. قاله ابن جرير، وغيره، ومنهم من يقول: إن الترخص فى الأحرف

---

(١) الحديث رواه البخارى فى فضائل القرآن ٣٧، والخصومات ١ ولفظه فى كتاب فضائل القرآن، عن النزال بن سبرة بن عبد الله: أنه سمع رجلاً يقرأ اية سمع النبى - ﷺ يقرأ خلافها، فأخذت بيده فانطلقت به إلى النبى ﷺ فقال: «كلاكما محسن فاقرأ. أكبر علمى قال: فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا».

(٢) حذيفة بن اليمان أبو عبد الله، من الولاة الشجعان الفاتحين، كان صاحب سر النبى - ﷺ - فى المنافقين لم يعلمهم أحد غيره، ولما ولى عمر سأله: أفى عمالى أحد من المنافقين...؟ فقال: نعم. واحد. قال: من هو؟ قال: لا أذكره. ولاه عمر على المدائن بفارس. هاجم نهاوند سنة ٢٢هـ فصالحه صاحبها على مال يؤديه فى كل سنة، ثم غزا همدان والرى فإفتتحهما عنوة. توفى بالمدائن عام ٣٦هـ، له فى كتب الحديث ٢٢٥ حديثًا.

السبعة كان فى أول الإسلام لما فى المحافظة على حرف واحد من المشقة عليهم أولاً، فلما تذللت ألسنتهم بالقراءة، وكان اتفاقهم على حرف واحد يسيراً عليهم، وهو أوفق لهم، أجمعوا على الحرف الذى كان فى العَرْضَة الأخيرة.

وذهب طوائف من الفقهاء وأهل الكلام إلى أن المصحف يشتمل على الأحرف السبعة لأنه لا يجوز أن يهمل شيء من الأحرف السبعة. وقد اتفقوا على نقل المصحف العثمانى، وترك ما سواه. وقد تقدمت الإشارة إلى الجواب وهو: أن ذلك كان جائزاً لا واجباً، أو أنه صار منسوخاً، وأما من قال عن ابن مسعود إنه كان يجوز القراءة بالمعنى، فقد كذب عليه، وإنما قال: قد نظرت إلى القراءة فرأيت قراءتهم متقاربة، وإنما هو كقول أحدكم: هلم، وأقبل وتعالى، فاقرؤوا كما علمتم. أو كما قال. والله تعالى قد أمرنا ألا نجادل أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم، فكيف بمناظرة أهل القبلة؟ فإن أهل القبلة من حيث الجملة خير من أهل الكتاب، فلا يجوز أن يناظر من لم يظلم منهم إلا بالتى هى أحسن، وليس إذا أخطأ يقال: إنه كافر، قبل أن تقام عليه الحجة التى حكم الرسول بكفر من تركها.

والله تعالى قد عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان. ولهذا ذم السلف أهل الأهواء، ذكروا أن آخر أمرهم السيف، وسيأتى لهذا المعنى زيادة بيان، إن شاء الله تعالى، عند قول الشيخ: ونرى الجماعة حقًا وصوابًا، والفرقة زيغًا وعذابًا. وقوله: ونشهد أنه كلام رب العالمين، قد تقدم الكلام على هذا المعنى عند قوله: وإن القرآن كلام الله منه بدا بلا كيفية قولاً.

وقوله: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ**﴾ [الشعراء: ١٩٣]. هو جبريل عليه السلام، سمى روحًا لأنه حامل الوحى الذى به حياة القلوب إلى الرسل من البشر صلوات الله عليهم أجمعين وهو أمين حق أمين، صلوات الله عليه، قال تعالى: ﴿**نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ * عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ * بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ**﴾ [الشعراء: ١٩٣-١٩٥] وقال تعالى: ﴿**إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ * مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ**﴾ [التكوير: ١٩-٢١]. وهذا وصف جبرائيل

بخلاف قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ * وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾ [الحاقة: ٤٠].

فإن الرسول هو محمد - ﷺ.

وقوله: فعلمه سيد المرسلين، تصريح بتعليم جبرائيل إياه إبطالاً لتوهم القرامطة وغيرهم أنه تصوره فى نفسه إلهاماً.

وقوله: ولا نقول بخلقه، ولا نخالف جماعة المسلمين، تنبيه على أن من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين، فإن سلف الأمة كلهم متفقون على أنه كلام الله بالحقيقة غير مخلوق، بل قوله: ولا نخالف جماعة المسلمين، مجرى على إطلاقه: أنا لا نخالف جماعة المسلمين فى جميع ما اتفقوا عليه فإن خلافهم زيغ وضلال وبدعة.

أهل القبلة لا نكفر أحداً منهم بذنب لم يستحله

قوله: «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله».

ش: أراد بأهل القبلة الذين تقدم ذكرهم فى قوله: ونسمى أهل قبلتنا مسلمين مؤمنين، ما داموا بما جاء به النبى - ﷺ - معترفين، وله بكل ما قال وأخبر مصدقين، يشير الشيخ رحمه الله بهذا الكلام إلى الرد على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب.

واعلم - رحمك الله وإيانا - أن باب التكفير وعدم التكفير باب عظمت الفتنة والمحنة فيه، وكثر فيه الافتراق، وتشتتت فيه الأهواء، والآراء، وتعارضت فيه دلائلهم. فالناس فيه، فى جنس تكفير أهل المقالات والعقائد الفاسدة المخالفة للحق الذى بعث الله به رسوله فى نفس الأمر، أو المخالفة لذلك فى اعتقادهم، على طرفين ووسط، من جنس الاختلاف فى تكفير أهل الكبائر العملية.

فطائفة تقول: لا نكفر من أهل القبلة أحداً، فتنفى التكفير نفياً عاماً مع العلم بأن فى أهل القبلة المنافقين، الذين فيهم من هو أكفر من اليهود والنصارى بالكتاب والسنة والإجماع، وفيهم من قد يظهر بعض ذلك حيث يمكنهم، وهم

يتظاهرون بالشهادتين. وأيضًا فلا خلاف بين المسلمين أن الرجل لو أظهر إنكار الواجبات الظاهرة المتواترة، والمحرمات الظاهرة المتواترة، ونحو ذلك فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل كافرًا مرتدًا. والنفاق والردة مظنتها البدع والفجور، كما ذكره الخلال[1] في كتاب السنة[2] بسنده إلى محمد بن سيرين[3] أنه قال: إن أسرع الناس ردة أهل الأهواء، وكان يرى هذه الآية نزلت فيهم: ﴿ **وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ** ﴾ [الأنعام: ٦٨]. لهذا امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول: بأنا لانكفر أحدًا بذنب، بل يقال: لا نكفرهم بكل ذنب، كما تفعله الخوارج. وفرق بين النفى العام، ونفى العموم والواجب إنما هو نفى العموم، مناقضة لقول الخوارج الذين يكفرون بكل ذنب. ولهذا – والله أعلم – قيده الشيخ رحمه الله بقوله: ما لم يستحله.

وفى قوله: ما لم يستحله إشارة إلى أن مراده من هذا النفى العام لكل ذنب من الذنوب العملية لا العلمية. وفيه إشكال، فإن الشارع لم يكتف من المكلف فى العمليات بمجرد العمل دون العلم، ولا فى العمليات، بمجرد العلم دون العمل، وليس العمل مقصورًا على عمل الجوارح، بل أعمال القلوب أصل لعمل الجوارح، وأعمال الجوارح تبع. إلا أن يضمن قوله: يستحله بمعنى: يعتقد أو نحو ذلك.

وقوله: ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله.. إلى آخر كلامه رد على المرجئة، فإنهم يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا ينفع مع الكفر طاعة فهؤلاء فى طرف، والخوارج فى طرف، فإنهم يقولون: نكفر المسلم بكل

---

(١) أحمد بن محمد بن هارون أبو بكر الخلال. مفسر عالم بالحديث واللغة، من كبار الحنابلة، من أهل بغداد. قال الذهبى عنه: جامع علم أحمد ومرتبه، من كتبه تفسير الغريب، وطبقات أصحاب ابن حنبل، والسنة توفى سنة ٣١١هـ.

(٢) كتاب السنة لأبى بكر الخلال، وهو مطبوع.

(٣) محمد بن سيرين البصرى الأنصارى بالولاء، أبو بكر، إمام وقته فى علوم الدين بالبصرة، تابعى من أشراف الكتاب، ولد سنة ٣٣هـ فى البصرة. نشأ بزازا فى علوم الدين وتفقه، وروى الحديث واشتهر بالورع وتعبير الرؤيا واستكتبه أنس بن مالك بفارس، ينسب إليه كتاب تعبير الرؤيا، توفى سنة ١١٠هـ.

ذنب، أو بكل ذنب كبير، وكذلك المعتزلة الذين يقولون: يحبط بإيمانه كله بالكبيرة، فلا يبقى معه شيء من الإيمان.

لكن الخوارج يقولون: يخرج من الإيمان ويدخل في الكفر.. والمعتزلة يقولون: يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر، وهذه المنزلة بين المنزلتين وبقولهم بخروجه من الإيمان أوجبوا له الخلود في النار! وطوائف من أهل الكلام والفقه والحديث لا يقولون ذلك في الأعمال، لكن في الاعتقادات البدعية، وإن كان صاحبها متأولاً، فيقولون: يكفر كل من قال هذا القول، لا يفرقون بين المجتهد المخطىء وغيره، أو يقولون: يكفر كل مبتدع. وهؤلاء يدخل عليهم في هذا الإثبات العام أمور عظيمة، فإن النصوص المتواترة قد دلت على أنه يخرج من النار من في قلبه مثقال ذرة من إيمان، ونصوص الوعد التي يحتج بها هؤلاء تعارض نصوص الوعيد التي يحتج بها أولئك.

والكلام في الوعيد مبسوط في موضعه، وسيأتي بعضه عند الكلام على قول الشيخ: «وأهل الكبائر في النار لا يخلدون، إذا ماتوا وهم موحدون».

والمقصود هنا: ان البدع هي من هذا الجنس، فإن الرجل يكون مؤمناً باطناً وظاهراً لكن تأول تأويلاً أخطأ فيه، إما مجتهداً وإما مفرطاً مذنباً، فلا يقال: إن إيمانه حبط لمجرد ذلك، إلا أن يدل على ذلك دليل شرعي، بل هذا من جنس قول الخوارج والمعتزلة، ولا نقول: لا يكفر، بل العدل هو الوسط، وهو أن الأقوال الباطلة المبتدعة المحرمة المتضمنة نفي ما أثبته الرسول، أو إثبات ما نفاه، أو الأمر بما نهى عنه، أو النهي عما أمر به - يقال فيها الحق، ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص، ويبين أنها كفر ويقال: من قالها فهو كافر، ونحو ذلك، كما يذكر من الوعيد في الظلم في النفس والأموال، وكما قد قال كثير من أهل السنة المشاهير بتكفير من قال بخلق القرآن، وأن الله لا يُرى في الآخرة، ولا يعلم الأشياء قبل وقوعها.

وعن أبي يوسف - رحمه الله - أنه قال: ناظرت أبا حنيفة - رحمه الله - مدة حتى اتفق رأيي ورأيه: أن من قال بخلق القرآن فهو كافر. وأما الشخص

المعين إذا قيل: هل تشهدون أنه من أهل الوعيد وأنه كافر؟ فهذا لا نشهد عليه إلا بأمر تجوز معه الشهادة، فإنه من أعظم البغى أن يشهد على معين أن الله لا يغفر له ولا يرحمه بل يخلده فى النار، فإن هذا حكم الكافر بعد الموت. ولهذا ذكر أبو داود فى سننه فى كتاب الأدب: «باب النهى عن البغى» وذكر فيه عن أبى هريرة - رضى الله عنه - ، قال: سمعت رسول الله - ﷺ يقول: «كان رجلان فى بنى إسرائيل متواخيَيْن، فكان أحدهما يُذنب والآخرُ مجتهدٌ فى العبادة فكان لا يزال المجتهدُ يرى الآخر على الذنب فيقول: أقصرْ، فوجده يومًا على ذنب، فقال له: اقصرْ. فقال: خلِّنى وربى، أبُعثتَ علىَّ رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يُدخلك الله الجنة. فقبض أرواحهما، فاجتمعا عندَ ربِّ العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بى عالمًا؟ أو كنت على ما فى يدىَّ قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهبْ فادخلْ الجنةَ برحمتى، وقال للآخر اذهبوا به إلى النار. قال أبو هريرة: والذى نفسى بيده، لتكلم بكلمة أو بقت دنياه وآخرته»[1]. وهو حديث حسن.

ولأن الشخص المعين يمكن أن يكون مجتهداً مخطئًا مغفوراً له، ويمكن أن يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوص، ويمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسنات أوجبت له رحمة الله ، كما غفر للذى قال: «إذا متُّ فاسحقونى ثم أذرونى، ثم غفر الله له لخشيَته»[2] وكان يظن أن الله لا يقدر على جمعه وإعادته، أو شك فى ذلك. لكن هذا التوقف فى أمر الآخرة لا يمنعنا أن نعاقبه فى الدنيا لمنع بدعته، وأن نستتيبه، فإن تاب وإلا قتلناه. ثم إذا كان القول فى نفسه كفراً قيل: إنه كفر والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانع، ولا يكون ذلك إلا إذا

---

(١) الحديث رواه أبو داود بسنده عن أبى هريرة «باب النهى عن البغى»، من كتاب الأدب ورقم الحديث ٤٩٠١ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى الأنبياء ٥٤، ورواه مسلم فى التوبة ٢٥، ٢٧ والنسائى فى الجنائز ١١٧، وابن ماجه فى الزهد ٣٠، وأحمد بن حنبل فى ٢، ٢٦٩، ٣-١٣، ١٧، ٧٧ ولفظه عند البخارى: «أن رجلاً كان قبلكم رزقه الله مالاً، فقال لبنيه لما حضر: أى أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب. قال: فإنى لم أعمل خيراً قط فإذا مت فأحرقونى ثم اسحقونى ثم ذرونى فى يوم عاصف ففعلوا. فجمعه الله عز وجل فقال: ما حملك؟ قال: مخافتك فتلقاه برحمته».

صار منافقا زنديقًا. فلا يتصور أن يكفر أحدٌ من أهل القبلة المظهرين الإسلام إلا من يكون منافقًا زنديقًا. وكتاب الله يبين ذلك. فإن الله صنَّف الخلق فيه ثلاثة أصناف:

صنف: كفار من المشركين ومن أهل الكتاب، وهم الذين لا يقرون بالشهادتين.

وصنف: أقروا به ظاهراً لا باطنًا.

وهذه الأقسام الثلاثة مذكورة فى أول سورة البقرة، وكل من ثبت أنه كافر فى نفس الأمر وكان مقرًا بالشهادتين فإنه لا يكون إلا زنديقًا. والزنديق هو المنافق.

وهنا يظهر غلط الطرفين، فإنه من كفر كل من قال القول المبتدع فى الباطن يلزمه أن يكفر أقوامًا ليسوا فى الباطن منافقين. بل هم فى الباطن يحبون الله ورسوله، ويؤمنون بالله ورسوله وإن كانوا مذنبين. كما ثبت فى صحيح البخارى عن أسلم مولى عمر - رضى الله عنه - أن رجلاً كان على عهد النبىٌ ﷺ - كان اسمه: عبدَ الله، وكان يُلقب: حماراً، وكان يضحك رسول الله - ﷺ، وكان رسول الله - ﷺ - قد جلده فى الشراب، فأتى به يومًا، فأمر به فجُلد، فقال رجلٌ من القوم: اللهم العنْه ما أكثر ما يُؤتى به. فقال رسولُ الله - ﷺ: «لا تلعنْه فوالله ما علمت، إنه يحب الله ورسوله»[1].

وهذا أمر متيقن به فى طوائف كثيرة، وأئمة فى العلم والدين، وفيهم بعض مقالات الجهمية أو المرجئة أو القدرية أو الشيعة أو الخوارج. ولكن الأئمة فى العلم والدين لا يكونون قائمين بجملة تلك البدعة، بل بفرع منها، ولهذا انتحل أهل هذه الأهواء لطوائف من السلف المشاهير. فمن عيوب أهل البدع تكفير بعضهم بعضًا، ومن ممادح أهل العلم أنهم يخطئون ولا يكفرون. ولكن بقى هنا

---

(١) الحديث رواه البخارى بلفظه فى كتاب الحدود، باب: ما يكره من لعن شارب الخمر، رقم الحديث ٦٧٨٠ ورواه أبو داود بمعناه فى كتاب الحدود باب: الحد فى الخمر ورواه أحمد بن حنبل فى مسنده ٢-٣٠٠ بمعناه أيضًا.

إشكال يرد على كلام الشيخ رحمه الله، وهو: أن الشارع قد سمى بعض الذنوب كفرًا قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

وقال – ﷺ –: «سبابُ المسلم فسوقٌ، وقتاله كفرٌ»[١] متفق عليه من حديث ابن مسعود – رضي الله عنه – وقال ﷺ: «لا ترجعوا بعدى كفارًا يضربُ بعضكم رقابَ بعض»[٢]: «وإذا قال الرجلُ لأخيه: يا كافر فقد باء بها أحدهما»[٣]. متفق عليهما من حديث ابن عمرو رضي الله عنه وقال ﷺ: «أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلةٌ من النفاق حتى يدعَها: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلفَ، وإذا عاهدَ غدرَ، وإذا خاصمَ فجرَ»[٤] متفق عليه من حديث عبد الله بن عمر – رضي الله عنه – وقال ﷺ: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمنٌ، ولا يسرقُ السارقُ حين يسرقُ وهو مؤمنٌ، ولا يشربُ الخمرَ حين يشربها وهو مؤمنٌ، والتوبةُ معروضة بعد»[٥]. وقال ﷺ: «بين المسلم وبين الكفرِ تركُ الصلاةِ»[٦]. رواه مسلم عن

---

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب «الإيمان» باب: بيان قول النبى – ﷺ – سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، رقم ١١٦ ورواه النسائى بلفظه فى كتاب التحريم باب قتال المسلم، وابن ماجه بلفظه فى كتاب الفتن، باب: سباب المسلم فسوق وقتاله كفر، الحديث ٣٩٣٩–٣٩٤١.

(٢) الحديث رواه البخارى فى صحيحه، باب: الإنصات للعلماء، ورواه ابن ماجه باب: لا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض. ورواه مسلم فى كتاب الإيمان، باب: بيان معنى قول النبى – ﷺ – لا ترجعوا بعدى كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض.

(٣) الحديث رواه مسلم فى كتاب الإيمان باب بيان حال من قال لأخيه المسلم يا كافر. ولفظه عنده: إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما. ورواه البخارى بلفظه فى كتاب الأدب. باب: من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال.

(٤) الحديث رواه البخارى فى إيمان ٢٤، جزية ١٧، ومظالم ١٧ ورواه مسلم فى إيمان ١٠٢، والترمذى فى إيمان ١٤، والنسائى فى إيمان ٢٠، وأحمد بن حنبل ٢–١٨٩.

(٥) الحديث رواه ابن ماجه فى الفتن ٣، ورواه مسلم فى إيمان ١٠٠، ١٠٤، والبخارى فى مظالم ٣٠ والحدود ١، ٦، ١٤، والترمذى فى إيمان ١١، والنسائى فى الأشربة ٤٢، والدارمى أشربة ١١.

(٦) الحديث رواه مسلم فى إيمان ١٣٤، وأبو داود فى السنة ١٥، والترمذى فى الإيمان ٩، وابن ماجه فى الإقامة ١٧، والدارمى فى الصلاة ٣٩، ولفظه عند مسلم: بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة.

جابر - رضى الله عنه . وقال - ﷺ : «من أتى كاهنًا فصدقه، أو أتى امرأة فى دُبرها فقد كفرَ بما أُنزل على محمد»[1]. وقال ﷺ : «من حلفَ بغير الله فقد كفر»[2]. رواه الحاكم بهذا اللفظ وقال ﷺ : «ثنتان فى أمتى هما بهم كفرٌ الطعن فى الأنساب، والنياحة على الميت»[3]. ونظائر ذلك كثيرة.

والجواب: أن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفر كفرًا ينقل عن الملة بالكلية. كما قالت الخوارج، إذ لو كفر كفرًا ينقل عن الملة لكان مرتدًا يقتل على كل حال، ولا يقبل عفو ولى القصاص ولا تجرى الحدود فى الزنا والسرقة وشرب الخمر. وهذا القول معلوم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام. ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام ولا يدخل فى الكفر ولا يستحق الخلود مع الكافرين، كما قالت المعتزلة. فإن قولهم باطل أيضًا، إذ قد جعل الله مرتكب الكبيرة من المؤمنين. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى** ﴾ [البقرة: ١٧٨]. إلى أن قال: ﴿ **فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ [البقرة: ١٧٨] فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا وجعله أخًا لولى القصاص، والمراد إخوة الدين بلا ريب. وقال تعالى: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا** ﴾ [الحجرات: ٩]. إلى أن قال: ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٠]. ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزانى والسارق والقاذف لا يقتل، بل يقام عليه الحد، فدل على أنه ليس بمرتد. وقد ثبت فى الصحيح

---

(١) الحديث رواه الترمذى في الطهارة ١٠٢، وابن ماجه فى الطهارة ١٢٢، والدارمى فى الوضوء ١١٤، وأحمد بن حنبل ٢-٤٠٨، ٤٢٩، ٤٧٦، ولفظه عند ابن ماجه عن أبى هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ : «من أتى حائضًا أو امرأة فى دبرها، أو كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد».

(٢) الحديث رواه الترمذى فى النذور ٩، والنسائى فى إيمان ٤، وابن ماجه فى الكفارات ٢، والدارمى فى النذور ٦، وأحمد بن حنبل ١-٤٧، ٢-٣٤، ٦٧، ٦٩، ٨٧، ٩٨، ١٢٥، ١٤٢.

(٣) الحديث رواه مسلم فى إيمان ١٢١، والترمذى فى الجنائز ٢٣ بلفظ: النياحة والطعن فى الأحساب.

عن النبى ﷺ أنه قال: «من كانت عنده لأخيه اليوم مظلمة من عرض أو شىء فليتحلله منه اليوم قبل أن لا يكون درهم ولا دينار، إن كان له عمل صالح أخذ منه بقدر مظلمته، وإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات صاحبه فطرحت عليه ثم ألقى فى النار»[1]. أخرجه فى الصحيحين. فثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفى المظلوم منها حقه. وكذلك ثبت فى الصحيح عن النبى - ﷺ - أنه قال: «ما تعدونَ المفلسَ فيكم؟ قالوا: المفلسُ فينا من لا درهم له ولا دينار، قال: المفلسُ من يأتى يومَ القيامة وله حسنات أمثال الجبال، فيأتى وقد شتم هذا وأخذ مال هذا، وسفك دمَ هذا، وقذف هذا فيقتص هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإذا فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح فى النار» وقد قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [هود: ١١٥] فدل ذلك على أنه فى حال إساءته يعمل حسنات تمحو سيئاته، وهذا مبسوط فى موضعه.

والمعتزلة موافقون للخوارج هنا فى حكم الآخرة، فإنهم وافقوهم على أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار، لكن قالت الخوارج: نسميه كافرًا، وقالت المعتزلة نسميه فاسقًا، فالخلاف بينهم لفظى فقط. وأهل السنة أيضًا متفقون على أنه يستحق الوعيد المرتب على ذلك الذنب، كما وردت به النصوص، لا كما يقول المرجئة من أنه لا يضر مع الإيمان ذنب، ولا ينفع مع الكفر طاعة، وإذا اجتمعت نصوص الوعد التى استدلت بها المرجئة ونصوص الوعيد التى استدلت بها الخوارج والمعتزلة - تبين لك فساد القولين. ولا فائدة فى كلام هؤلاء سوى أنك تستفيد من كلام كل طائفة فساد مذهب الطائفة الأخرى.

ثم بعد هذا الاتفاق تبين أن أهل السنة اختلفوا خلافًا لفظًا لا يترتب عليه فساد، وهو: أنه هل يكون الكفر على مراتب، كفرًا دون كفر؟ كما اختلفوا هل يكون الإيمان على مراتب، إيمانًا دون إيمان؟ وهذا الاختلاف نشأ من اختلافهم فى

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الرقاق ٤٨، ورواه مسلم فى البر ٦٠، ولفظه عند البخارى: من كانت عنده مظلمة لأخيه فليتحلله منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم من قبل أن يؤخذ لأخيه من حسناته فإن لم يكن له حسنات أخذ من سيئات أخيه فطرحت عليه.

مسمى «الإيمان» هل هو قول وعمل يزيد وينقص أم لا؟ بعد اتفاقهم على أن من سماه الله تعالى ورسوله كافراً نسميه كافراً، إذ من الممتنع أن يسمى الله سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ويسمى رسوله من تقدم ذكره كافراً، ولا نطلق عليهما اسم الكفر. ولكن من قال: إن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص، قال: هو كفر عملى لا اعتقادى والكفر عنده على مراتب، كفر دون كفر كالإيمان عنده. ومن قال: إن الإيمان هو التصديق ولا يدخل العمل فى مسمى الإيمان، والكفرهو الجحود ولا يزيدان ولا ينقصان، قال: هو كفر مجازى غير حقيقى، إذ الكفر الحقيقى هو الذى ينقل عن الملة، وكذلك يقول فى تسمية بعض الأعمال بالإيمان كقوله تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ** ﴾ [البقرة: ١٤٣]. أى صلاتكم إلى بيت المقدس، أنها سميت إيماناً مجازاً لتوقف صحتها على الإيمان، أو لدلالتها على الإيمان إذ هى دالة على كون مؤديها مؤمناً. ولهذا يحكم بإسلام الكافر إذا صلى صلاتنا. فليس بين فقهاء الأمة نزاع فى أصحاب الذنوب، إذا كانوا مقرين باطناً وظاهراً بما جاء به الرسول وما تواتر عنه أنهم من أهل الوعيد ولكن الأقوال المنحرفة قول من يقول بتخليدهم فى النار، كالخوارج والمعتزلة، ولكن أردأ ما فى ذلك التعصب على من يضادهم وإلزامه لمن يخالف قوله بما لا يلزمه، والتشنيع عليه، وإذا كنا مأمورين بالعدل فى مجادلة الكافرين وأن يجادلوا بالتى هى أحسن، فكيف لا يعدل بعضنا على بعض فى مثل هذا الخلاف. قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ** ﴾ [المائدة: ٨].

وهنا أمر يجب أن يُتفطن له، وهو: أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفراً ينقل عن الملة، وقد يكون معصية: كبيرة أو صغيرة، ويكون كفراً: إما مجازياً وإما كفراً أصغر، على القولين المذكورين وذلك بحسب حال الحاكم: فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غير واجب، وأنه مخيَّر فيه، أو استهان به مع تيقنه أنه حكم الله: فهذا كفر أكبر. وإن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله، وعلمه فى هذه الواقعة، وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا عاص،

ويسمى كافرًا كفرًا مجازيًا، أو كفرًا أصغر. وإن جهل حكم الله فيها، مع جهده واستفراغ وسعه فى معرفة الحكم وأخطأه، فهذا مخطىء له أجر على اجتهاده، وخطؤه مغفور.

وأراد الشيخ رحمه الله بقوله: ولا نقول: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله مخالفة المرجئة وشبهتهم كانت قد وقعت لبعض الأولين، فاتفق الصحابة على قتلهم إن لم يتوبوا من ذلك. فإن قدامة بن عبد الله[1] شرب الخمر بعد تحريمها هو وطائفة وتأولوا قوله تعالى: ﴿ **لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ [المائدة: ٩٣]. الآية.

فلما ذكروا ذلك لعمر بن الخطاب – رضى الله عنه – اتفق هو وعلى بن أبى طالب وسائر الصحابة على أنهم إن اعترفوا بالتحريم جلدوا، وإن أصروا على استحلالها قتلوا، وقال عمر لقدامة: اخطأتْ استُك الحفرة، أما إنك لو اتقيت وآمنت وعملت الصالحات لم تشرب الخمر.

وذلك أن هذه الآية نزلت بسبب أن الله سبحانه لما حرم الخمر، وكان تحريمها بعد وقعة أحد قال بعض الصحابة: فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر؟ فانزل الله هذه الآية. بيَّن فيها أن من طعم الشيء فى الحال التى لم يحرَّم فيها فلا جناح عليه إذا كان من المؤمنين المتقين المصلحين، كما كان من أمر استقبال بيت المقدس. ثم إن أولئك الذين فعلوا ذلك يذمون على أنهم أخطأوا وأيسوا من التوبة. فكتب عمر إلى قدامة يقول له: ﴿ **حم * تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ** ﴾ [غافر: ١-٣]. ما أدرى أى ذنبك أعظم؟ استحلالك المحرم أولاً؟ أم يأسك من رحمة الله ثانيًا؟ وهذا الذى اتفق عليه الصحابة هو متفق عليه بين أئمة الإسلام.

---

(١) هو قدامة بن عبد الله بن عمار بن معاوية الكلابى، من بنى كلاب بن ربيعة، أسلم قديمًا، وسكن مكة ولم يهاجر وشهد حجة الوداع. روى عنه أيمن بن نابل، وحميد بن كلاب، فأما حديث أيمن عنه، فإنه قال: رأيت رسول الله ﷺ يرمى الجمرة يوم النحر على ناقة صهباء (راجع الاستيعاب، ج٣، ص١٢٧٩).

قوله: « ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفو عنهم ويدخلهم الجنة برحمته ولا نأمن عليهم، ولا نشهد لهم بالجنة، ونستغفر لمسيئهم ونخاف عليهم ولا نقنطهم ».

ش: وعلى المؤمن أن يعتقد هذا الذى قاله الشيخ رحمه الله فى حق نفسه وفى حق غيره. قال تعالى: ﴿ **أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** ﴾ [الإسراء: ٥٧]. وقال تعالى: ﴿ **فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ** ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. وقال تعالى: ﴿ **وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ** ﴾ [البقرة: ٤١]. ﴿ **وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ** ﴾ [البقرة: ٤٠] ﴿ **فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي** ﴾ [البقرة: ١٥٠]. ومدح أهل الخوف فقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٥٨]. إلى قوله: ﴿ **أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ** ﴾ [المؤمنون: ٦١]. وفى المسند والترمذى عن عائشة - رضى الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله، «الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة». هو الذى يزنى ويشرب الخمر ويسرق؟ قال: «لا، يا ابنة الصِّديق، ولكنه الرجلُ يصوم ويصلى ويتصدق ويخاف أن لا يُقبل منه»[1]. قال الحسن - رضى الله عنه -: عملوا والله - بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم. إن المؤمن جمع إحسانًا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنًا انتهى. وقد قال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [البقرة: ٢١٨].

فتأمل كيف جعل رجاءهم مع إيمانهم بهذه الطاعات؟ فالرجاء إنما يكون مع

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده ٦-٥٩-٢٠٥، ورواه الترمذى فى كتاب تفسير القرآن. باب تفسير سورة المؤمنون حديث رقم ٣٢٢٥ ورواه ابن ماجة فى كتاب الزهد، باب التوقى في العمل، ٤١٩٨، ونصه عند ابن ماجه عن عائشة قالت: قلت يا رسول الله «والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة» أهو الذى يزنى ويسرق ويشرب الخمر...؟ قال: «لا يا ابنة أبى بكر - أو يا ابنة الصديق - ولكنه الرجل يصوم ويتصدق ويصلى وهو يخاف أن لا يقبل منه».

الإتيان بالأسباب التي اقتضتها حكمة الله تعالى، شرعه وقدرته وثوابه وكرامته.
ولو أن رجلاً له أرض يؤمل أن يعود عليه من مغلها ما ينفعه، فأهملها ولم يحرثها ولم يبذرها، ورجا أنه يأتي من مغلها مثل ما يأتي من حرث وزرع وتعاهد الأرض – لعده الناس من أسفه السفهاء، وكذا لو رجا وحسن ظنه أن يجيئه ولد من غير جماع أو يصير أعلم أهل زمانه من غير طلب العلم، وحرص تام وأمثال ذلك. فكذلك من حسن ظنه وقوى رجاؤه في الفوز بالدرجات العلى والنعيم المقيم، من غير طاعة ولا تقرب إلى الله تعالى بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، ومما ينبغي أن يعلم أن من رجا شيئًا استلزم رجاؤه أمورًا:

أحدها: محبة ما يرجوه، الثاني: خوفه من فواته. الثالث: سعيه في تحصيله بحسب الإمكان.

وأما رجاء لا يقارنه شيء من ذلك فهو من باب الأماني والرجاء شيء والأماني شيء آخر، فكل راج خائف، والسائر على الطريق إذا خاف أسرع السير، مخافة الفوات، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ**﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

فالمشرك لا ترجى له المغفرة، لأن الله نفى عنه المغفرة وما سواه من الذنوب في مشيئة الله، إن شاء الله غفر له، وإن شاء عذبه.

وفي معجم الطبراني: «الدواوين عند الله يوم القيامة ثلاثةُ دواوين: ديوان لا يغفر اللهُ منه شيئًا وهو الشركُ بالله، ثم قرأ: «إن الله لا يغفر أن يُشركَ به». وديوان لا يتركُ اللهُ منه شيئًا، وهو مظالمُ العباد بعضهم بعضًا. وديوان لا يعبأ الله به، وهو ظلم العبد نفسَه بينه وبين ربِّه»[1].؟

وقد اختلفت عبارات العلماء في الفرق بين الكبائر والصغائر، وستأتي الإشارة إلى ذلك عند قول الشيخ رحمه الله: وأهل الكبائر من أمة محمد في النار لا يخلدون. ولكن ثَم أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الكبيرة قد يقترن بها

---

(١) قال الألباني: ضعيف، ولم يروه الطبراني بل أحمد ٦–٢٤٠، والحاكم ٤–٥٧٥–٥٧٦ وقال: «صحيح الإسناد» ورده الذهبي بقوله: قلت: صدقة ضعفوه، وابن بابنوس فيه جهالة.

من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يلحقها بالصغائر، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يلحقها بالكبائر، وهذا أمر مرجعه إلى ما يقوم بالقلب وهو قدر زائد على مجرد الفعل والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره.

وأيضًا فإنه قد يُعفى لصاحب الإحسان العظيم ما لا يعفى لغيره، فإن فاعل السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب عُرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة:

السبب الأول: التوبة، قال تعالى: ﴿ **إِلاَّ مَن تَابَ** ﴾ [مريم: ٦٠] ﴿ **إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا** ﴾ [البقرة: ١٦٠] وغيرها. والتوبة النصوح، وهي الخالصة، لا يختص بها ذنب دون ذنب، لكن هل تتوقف صحتها على أن تكون عامة؟ حتى لو تاب من ذنب وأصر على آخر لا تقبل؟ والصحيح أنها تقبل.

وهل يجبُّ الإسلام ما قبله من الشرك وغيره من الذنوب وإن لم يتب منها؟ أم لا بد مع الإسلام من التوبة من غير الشرك؟ حتى لو أسلم وهو مصر على الزنا وشرب الخمر؛ مثلاً، هل يؤاخذ بما كان منه في كفره من الزنا وشرب الخمر أم لابد أن يتوب من ذلك الذنب مع إسلامه؟ أو يتوب توبة عامة من كل ذنب؟ وهذا هو الأصح: أنه لا بد من التوبة مع الإسلام، وكون التوبة سببًا لغفران الذنوب وعدم المؤاخذة بها – مما لا خلاف فيه بين الأمة. وليس شيء يكون سببًا لغفران جميع الذنوب إلا التوبة قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ** ﴾ [الزمر: ٥٣] وهذا لمن تاب ولهذا قال: ﴿ **لا تَقْنَطُوا** ﴾ وقال بعدها: ﴿ **وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ** ﴾ [الزمر: ٥٤] الآية.

السبب الثاني: الاستغفار قال تعالى: ﴿ **وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ** ﴾ [الأنفال: ٣٣]. لكن الاستغفار تارة يذكر وحده، وتارة يقرن بالتوبة، فإن ذكر وحده دخلت معه التوبة، كما إذا ذكرت التوبة وحدها شملت

الاستغفار. فالتوبة تتضمن الاستغفار، والاستغفار يتضمن التوبة، وكل واحد منهما يدخل فى مسمى الآخر عند الإطلاق، وأما عند اقتران إحدى اللفظتين بالأخرى، فالإستغفار: طلب وقاية شر ما مضى، والتوبة: الرجوع، وطلب وقاية شر ما يخافه فى المستقبل من سيئات أعماله.

ونظير هذا: الفقير والمسكين، إذا ذكر أحد اللفظين شمل الآخر، وإذا ذكرا معًا كان لكل منهما معنى. قال تعالى: ﴿ **إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ** ﴾ [المائدة: ٨٩]. ﴿ **فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا** ﴾ [المجادلة: ٤] ﴿ **وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ [البقرة: ٢٧١]. لا خلاف أن كل واحد من الإسمين فى هذه الآيات لما أفرد شمل المقل والمعدم ولما قرن أحدهما بالاخر فى قوله تعالى: ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ** ﴾ [التوبة: ٦٠] الآية - كان المراد بأحدهما المقل والآخر المعدم على خلاف فيه. وكذلك الإثم والعدوان، والبر والتقوى، والفسوق والعصيان، ويقرب من هذا المعنى: الكفر والنفاق، فإن الكفر أعم، فإذا ذكر الكفر شمل النفاق، وإن ذكرا معًا كان لكل منهما معنى.

وكذلك الإيمان والإسلام على ما يأتى الكلام فيه، إن شاء الله تعالى.

السبب الثالث: الحسنات: فإن الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بمثلها فالويل لمن غلبت آحاده عشراته. وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ [هود: ١١٥]. وقال ﷺ: «وأتبع السيئة الحسنةَ تمحُها»[١].

السبب الرابع: المصائب الدنيوية، قال ﷺ: «ما يصيب المؤمن من وصب ولا نصب ولا غم ولا هم ولا حزن حتى الشوكةَ يُشاكها إلا كُفِر بها من خطاياه»[٢] وفى المسند: أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿ **مَن يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ** ﴾

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى كتاب البر والصلة، باب ما جاء فى معاشرة الناس، ورواه الدارمى فى كتاب الرقاق باب: فى حسن الخلق ٢-٣٢٣، ورواه الإمام أحمد فى مسنده ٥-١٥٣-١٥٨-١٧٧ ولفظه عند الترمذى «اتق الله حيثما كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها وخالق الناس بخلق حسن».

(٢) الحديث رواه البخارى فى مرضى ٣، ومسلم فى البر ٤٦-٤٧-٤٨، ورواه الترمذى فى الجنائز ١، والموطأ عين ٦، وأحمد بن حنبل ١-٤٤١، ٣-٢٢، ٤-٥٦ ولفظه عند مسلم: «ما يصيب المؤمن من وصب ولا سقم ولا حزن حتى الهم يهمه إلا كفر به من سيئاته - وفى رواية - حتى الشوكة يشاكها».

[النساء: ١٢٣]. قال أبو بكر: يا رسول الله، نزلت قاصمة الظهر، وأينا لم يعمل سوءاً؟ فقال: يا با بكر، ألست تنصب؟ ألست تحزن؟ ألست يصيبك اللأواءُ؟ فذلك ما تجزوْن به»[١].

فالمصائب نفسها مكفرة، وبالصبر عليها يثاب العبد، وبالسخط يأثم والصبر والسخط أمر آخر غير المصيبة، فالمصيبة من فعل الله لا من فعل العبد، وهي جزاء من الله للعبد على ذنبه، ويكفر ذنبه بها، وإنما يثاب المرء ويأثم على فعله، والصبر والسخط من فعله، وإن كان الأجر قد يحصل بغير عمل من العبد بل هدية من الغير، فضلاً من الله من غير سبب قال تعالى: ﴿ **وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا** ﴾ [النساء: ٤٠]. فنفس المرض جزاء وكفارة لما تقدم، وكثيراً ما يفهم من الأجر غفران الذنوب وليس ذلك مدلوله، وإنما يكون من لازمه.

السبب الخامس: عذاب القبر. وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله تعالى.

السبب السادس: دعاء المومنين واستغفارهم في الحياة وبعد الممات.

السبب السابع: ما يهدى إليه بعد الموت، من ثواب صدقة أو قراءة أو حج ونحو ذلك، وسيأتي الكلام على ذلك إن شاء الله تعالى.

السبب الثامن: أهوال يوم القيامة وشدائده.

السبب التاسع: ما ثبت في الصحيحين: «أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرةٍ بين الجنة والنارِ، فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هُذبوا ونقوا أُذن لهم في دخول الجنة»[٢].

---

(١) قال أحمد شاكر حديث أبي بكر هذا في المسند برقم ٦٨ بشرحنا ولكن أوله هناك أن أبا بكر قال: يا رسول الله. كيف الصلاح بعد هذه الآية؟ فكل سوء عملنا جزينا به؟ ليس فيه قوله هنا «نزلت قاصمة الظهر» وهو حديث ضعيف، إسناده منقطع وكان الأجدر بالشارح أن يذكر حديث أبي هريرة في المسند ٧٣٨٠ أنه لما نزلت هذه الآية شقت على المسلمين وبلغت منهم ما شاء الله أن تبلغ، فشكوا ذلك إلى رسول الله – ﷺ – فقال لهم: «قاربوا وسددوا فكل ما يصاب به المسلم كفارة، حتى النكبة ينكبها». وهو حديث صحيح رواه مسلم في صحيحه ٢–٢٨٢ وزاد فيه آخره: «والشوكة يشاكها».

(٢) الحديث رواه البخاري في المظالم ١، والرقاق ٤٨، ورواه أحمد بن حنبل في مسنده ٣–١٢، ٦٢، ٧٤.

السبب العاشر : شفاعة الشافعين كما تقدم عند ذكر الشفاعة وأقسامها.

السبب الحادي عشر : عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة، كما قال تعالى : ﴿ **وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ** ﴾ [النساء : ٤٨-١١٦]. فإن كان ممن لم يشأ الله أن يغفر له لعظم جُرمه فلا بد من دخوله إلى الكير، ليخلص طيب إيمانه من خبث معاصيه، فلا يبقى فى النار من فى قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان، بل من قال : لا إله إلا الله، كما تقدم من حديث أنس - رضى الله عنه.

وإذا كان الأمر كذلك ، امتنع القطع لأحد معين من الأمة، غير من شهد له الرسول - ﷺ - بالجنة، ولكن نرجو للمحسنين، ونخاف عليهم.

الأمن والإياس ينقلان عن الملة

قوله : «والأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما لأهل القبلة».

ش : يجب أن يكون العبد خائفًا راجيًا، فإن الخوف المحمود الصادق : ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط.

والرجاء المحمود : رجاء عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه، أو رجل أذنب ذنبًا ثم تاب منه إلى الله، فهو راج لمغفرته. قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [البقرة : ٢١٨]. أما إذا كان الرجل متماديًا فى التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمنى والرجاء الكاذب. قال أبو على الروذبارى[١] رحمه الله : الخوف والرجاء كجناحى الطائر، إذا استويا استوى الطير وتم طيرانه، وإذا نقص أحدهما وقع فيه النقص، وإذا ذهبا صار الطائر فى حد الموت. وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله : ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ** ﴾ [الزمر : ٩]. وقال : ﴿ **تَتَجَافَى**

---

(١) هو محمد بن أحمد بن القاسم، أبو على الروذبارى، فاضل من كبار الصوفية من أولاد الرؤساء والوزراء، له تصانيف حسان فى التصوف أصله من بغداد سكن مصر، وتوفى سنة ٣٢٢هـ. (راجع تاريخ بغداد ١-٣٢٩).

جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا، والخوف يستلزم الرجاء ولولا ذلك لكان قنوطًا ويأسًا.

وكل أحد إذا خفته هربت منه إلا الله تعالى، فإنك إذا خفته هربت إليه، فالخائف هارب من ربه إلى ربه. وقال صاحب «منازل السائرين» رحمه الله: «الرجاء أضعف منازل المريد». وفي كلامه نظر، بل الرجاء والخوف على الوجه المذكور من أشرف منازل المريد. وفي الصحيح عن النبي – ﷺ: يقول الله عز وجل: «أنا عندَ ظن عبدي بي. فليظن بي ما شاء»[١].

وفي صحيح مسلم عن جابر – رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله – ﷺ يقول قبل موته بثلاث: «لا يموتن أحدُكم إلا وهو يحسنُ الظنَّ بربه»[٢].

ولهذا قيل: إن العبد ينبغي أن يكون رجاؤه في مرضه أرجح من خوفه، بخلاف زمن الصحة فإنه يكون خوفه أرجح من رجائه. وقال بعضهم: من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري، وروى: ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجىء، ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد ولقد أحسن محمود الوراق[٣] في قوله:

لو قد رأيتَ الصغيرَ من عملِ الخـ ـيـر ثوابًا عـجـبـتَ من كـبـرهْ
أو قد رأيتَ الحقير من عملِ الشـ ـرِّ جـزاء أشـفـقتَ من حـذرهْ

قوله: «ولا يخرج العبد من الإيمان إلا بجحود ما أدخله فيه».

---

(١) متفق عليه وقد تقدم.

(٢) الحديث رواه أبو داود في الجنائز ١٣، وأحمد بن حنبل ٣-٢٩٣، ٣٢٥، ٣٣٠، ٣٤٥، ٣٩٠.

(٣) هو: محمود بن حسن الوراق، شاعر أكثر شعره في المواعظ والحكم. روى عنه ابن أبي الدنيا. وفي الكامل للمبرد، نتف من شعره، وهو صاحب البيت المشهور:

وإذا كان وجه العذر ليس يبين فإن أطراح العذر خير من العذر

وجمع عدنان العبيدي ببغداد ما وجد من شعره في ديوان، توفي سنة ٢٢٥هـ. (فوات الوفيات، ج٢، ص٢٨٥).

ش: يشير الشيخ إلى الرد على الخوارج والمعتزلة فى قولهم بخروجه من الإيمان بارتكاب الكبيرة. وفيه تقرير لما قال أولاً: لا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، وتقدم الكلام على هذا المعنى.

حقيقة الإيمان

قوله: «والإيمان: هو الإقرار باللسان، والتصديق بالجنان، وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ – من الشرع والبيان كله حق. والإيمان واحد، وأهله فى أصله سواء، والتفاضل بينهم بالخشية والتقى ومخالفة الهوى وملازمة الأولى».

ش: اختلف الناس فيما يقع عليه اسم الإيمان، اختلافًا كثيراً: فذهب مالك والشافعى وأحمد والأوزاعى[1] وإسحق بن راهويه وسائر أهل الحديث وأهل المدينة رحمهم الله وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين: إلى أنه تصديق بالجنان، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان.

وذهب كثير من أصحابنا إلى ما ذكره الطحاوى رحمه الله، أنه الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، ومنهم من يقول: إن الإقرار باللسان ركن زائد ليس بأصل، وإلى هذا ذهب أبو منصور الماتريدى رحمه الله، ويروى عن أبى حنيفة – رضى الله عنه – وذهب الكرامية إلى أن الإيمان: هو الإقرار باللسان فقط، فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملو الإيمان، ولكنهم يقولون بأنهم يستحقون الوعيد الذى أوعدهم الله به. وقولهم ظاهر الفساد. وذهب الجهم[2] بن صفوان، وأبو الحسن الصالحى أحد رؤساء القدرية – إلى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب. وهذا القول أظهر فساداً مما قبله، فإن لازمه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين، فإنهم عرفوا صدق موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام، ولم يؤمنوا بهما، ولهذا قال

---

(١) هو: عبد الرحمن بن عمرو والأوزاعى، من قبيلة الأوزاع، إمام الديار الشامية فى الفقه والزهد، وأحد الكتاب المترسلين، ولد فى بعلبك سنة ٨٨هـ، ونشأ فى البقاع وسكن بيروت، وتوفى بها عام ١٥٧هـ، من كتبه: السنن فى الفقه، والمسائل وغير ذلك. (الوفيات: ١–٢٧٥).

(٢) هو جهم بن صفوان السمرقندى، أبو محرز، رأس الجهمية. قال الذهبى: الضال المبتدع، هلك فى زمان صغار التابعين، وقد زرع شراً عظيماً. كان يقضى فى عسكر الحارث بن سريج. قبض عليه نصر بن سيار وقتل سنة ١٢٨هـ.

موسى لفرعون: ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال تعالى: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴾ [النمل: ١٤].

وأهل الكتاب كانوا يعرفون النبي - ﷺ - كما يعرفون أبناءهم ولم يكونوا مؤمنين به، بل كافرين به، معادين له، وكذلك أبو طالب عنده يكون مؤمنًا فإنه قال:

ولقد علمتُ بأن دينَ محمد من خير أديان البريَّة دينا
لولا الملامةُ أو حذارُ مسبَّةٍ لوجدتني سمحًا بذاك مُبينا

بل إبليس يكون عند الجهم مؤمنًا كامل الإيمان، فإنه لم يجهل ربه، بل هو عارف به، قال: ﴿ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر: ٣٦]. ﴿ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي ﴾ [الحجر: ٣٩]. قال: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [ص: ٨٢]. والكفر عند الجهم هو الجهل بالرب تعالى، ولا أحد أجهل منه بربه، فإنه جعله الوجود المطلق وسلب عنه جميع صفاته، ولا جهل أكبر من هذا، فيكون كافرًا بشهادته على نفسه! وبين هذه المذاهب مذاهب آخر، بتفاصيل وقيود، أعرضت عن ذكرها اختصارًا. ذكر هذه المذاهب أبو المعين النسفي في «تبصرة الأدلة وغيره».

وحاصل الكل يرجع إلى أن الإيمان: إما أن يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح، كما ذهب إليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم رحمهم الله. كما تقدم، أو بالقلب واللسان دون الجوارح، كما ذكره الطحاوي عن أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله. أو باللسان وحده، كما تقدم ذكره عن الكرامية. أو بالقلب وحده، وهو إما المعرفة. كما قاله الجهم، أو التصديق كما قاله أبو منصور الماتريدي رحمه الله. وفساد قول الكرامية والجهم بن صفوان ظاهر.

والاختلاف الذي بين أبي حنيفة والأئمة الباقين من أهل السنة اختلاف صوري. فإن كون أعمال الجوارح لازمة لإيمان القلب أو جزءًا من الإيمان مع

الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان، بل هو فى مشيئة الله، إن شاء عذبه وإن شاء عفا عنه – نزاع لفظى، لا يترتب عليه فساد اعتقاد. والقائلون بتكفير تارك الصلاة ضموا إلى هذا الأصل أدلة أخرى. وإلا فقد نفى النبى – ﷺ – الإيمان عن الزانى والسارق وشارب الخمر والمنتهب. ولم يوجب ذلك زوال اسم الإيمان عنهم بالكلية، اتفاقًا. ولا خلاف بين أهل السنة أن الله تعالى أراد من العباد القول والعمل، وأعنى القول: التصديق بالقلب والإقرار باللسان، وهذا الذى يعنى به عند إطلاق قولهم: الإيمان قول وعمل. لكن هذا المطلوب من العباد: هل يشمله اسم الإيمان؟ أم الإيمان أحدهما، وهو القول وحده، والعمل مغاير له لا يشمله اسم الإيمان عند إفراده بالذكر، وإن اطلق عليهما كان مجازًا؟ هذا محل النزاع.

وقد أجمعوا على أنه لو صدق بقلبه وأقر بلسانه، وامتنع عن العمل بجوارحه أنه عاص لله ورسوله، مستحق للوعيد لكن فيمن يقول: إن الأعمال غير داخلة فى مسمى الإيمان من قال: لما كان الإيمان شيئًا واحدًا فإيمانى كإيمان أبى بكر الصديق وعمر – رضى الله عنهما بل قال: كإيمان الأنبياء والمرسلين وجبرائيل وميكائيل عليهم السلام!! وهذا غلو منه. فإن الكفر مع الإيمان كالعمى مع البصر، ولا شك أن البصراء يختلفون فى قوة البصر وضعفه، فمنهم الأخفش والأعشى، ومن يرى الخط الثخين دون الدقيق إلا بزجاجة ونحوها، ومن يرى عن قرب زائد على العادة وآخر بضده.

ولهذا – والله أعلم – قال الشيخ رحمه الله: وأهله فى أصله سواء يشير إلى أن التساوى إنما هو فى أصله، ولا يلزم منه التساوى من كل وجه، بل تفاوت درجات نور «لا إله إلا الله» فى قلوب أهلها لا يحصيها إلا الله تعالى: فمن الناس من نور «لا إله إلا الله» فى قلبه كالشمس، ومنهم من نورها فى قلبه كالكوكب الدرى، وآخر كالمشعل العظيم، وآخر كالسراج المضىء، وآخر كالسراج الضعيف. ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار، بحسب ما فى قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد علمًا وعملاً وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم أحرق من الشبهات والشهوات بحسب قوته، بحيث إنه ربما وصل إلى حال لا يصادف شهوة ولا شبهة ولا ذنبًا إلا أحرقه وهذه حال الصادق فى

توحيده، فسماء إيمانه قد حُرس بالرجوم من كل سارق. ومن عرف هذا عرف معنى قول النبى – ﷺ – «إن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله، يبتغى بذلك وجه الله» . وقوله: «لا يدخل النار من قال: لا إله إلا الله» . وما جاء من هذا النوع من الأحاديث التى أشكلت على كثير من الناس، حتى ظنها بعضهم منسوخة، وظنها بعضهم قبل ورود الأوامر والنواهى، وحملها بعضهم على نار المشركين والكفار، وأول بعضهم الدخول بالخلود، ونحو ذلك.

والشارع صلوات الله وسلامه عليه لم يجعل ذلك حاصلاً بمجرد قول اللسان فقط، فإن هذا من المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام فإن المنافقين يقولونها بألسنتهم، وهم تحت الجاحدين فى الدرك الأسفل من النار، فإن الأعمال لا تتفاضل بصورها وعددها، وإنما تتفاضل بتفاضل ما فى القلوب. وتأمل حديث البطاقة التى توضع فى كفة ويقابلها تسعة وتسعون سجلاً، كل سجل منها مدَّ البصر، فتثقل البطاقة، وتطيش السجلات، فلا يعذب صاحبها، ومعلوم أن كل موحد له مثل هذه البطاقة، وكثير منهم يدخل النار. وتأمل ما قام بقلب قاتل المائة من حقائق الإيمان، التى لم تشغله عند السياق عن السير إلى القرية، وحملته وهو فى تلك الحال أن جعل ينوء بصدره وهو يعالج سكرات الموت، وتأمل ما قام بقلب البغى من الإيمان، حيث نزعت فوقها وسقت الكلب من الركية، فغفر لها. وهكذا العقل أيضًا، فإنه يقبل التفاضل، وأهله فى أصله سواء، مستوون فى أنهم عقلاء غير مجانين وبعضهم أعقل من بعض. وكذلك الإيجاب والتحريم، فيكون إيجاب دون إيجاب، وتحريم دون تحريم. هذا هو الصحيح، وإن كان بعضهم قد طرد ذلك فى العقل والوجوب.

وأما زيادة الإيمان من جهة الإجمال والتفصيل – فمعلوم أنه لا يجب فى أول الأمر ما وجب بعد نزول القرآن كله، ولا يجب على كل أحد من الإيمان المفصل مما أخبر به الرسول ما يجب على من بلغه خبره، كما فى حق النجاشى[1] وأمثاله، وأما الزيادة بالعمل والتصديق المستلزم لعمل القلب

---

(١) اسمه أصحمة بن أبجر – وتفسيره عطية – كان ملكًا للحبشة فى فترة بعثه الرسول – ﷺ – ومن قبل ذلك عاش فترة فى جزيرة العرب عبدًا رقيقًا. (راجع الروض الأنف، ج٣، ص٢٢٢).

والجوارح فهو أكمل من التصديق الذى لا يستلزمه، فالعلم الذى يعمل به صاحبه أكمل من العلم الذى لا يعمل به، فإذا لم يحصل اللازم دل على ضعف الملزوم ولهذا قال النبى – ﷺ : «ليس المخبَر كالمعاين»[١]. وموسى عليه السلام لما أخبر أن قومه عبدوا العجل لم يلق الألواح، فلما رآهم قد عبدوه ألقاها، وليس ذلك لشك موسى فى خبر الله، لكن المخبَر، وإن جزم بصدق المخبِر فقد لا يتصور المخبَر به فى نفسه، كما يتصوره إذا عاينه كما قال إبراهيم الخليل صلوات الله على نبينا محمد وعليه: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] . وأيضًا فمن وجب عليه الحج والزكاة مثلاً يجب عليه من الإيمان أن يعلم ما أمر به، ويؤمن بأن الله أوجب عليه ما لا يجب على غيره الإيمان به إلا مجملاً، وهذا يجب عليه فيه الإيمان المفصل. وكذلك الرجل أو ما يُسلم، إنما يجب عليه الإقرار المجمل، ثم إذا جاء وقت الصلاة كان عليه أن يؤمن بوجوبها ويؤديها، فلم يتساو الناس فيما أمروا به من الإيمان.

ولا شك أن من قام بقلبه التصديق الجازم الذى لا يقوى على معارضته شهوة ولا شبهة لا تقع معه معصية ولولا ما حصل له من الشهوة والشبهة أو إحداهما لما عصى، بل يشتغل قلبه ذلك الوقت بما يواقعه من المعصية، فيغيب عنه التصديق والوعيد فيعصى. ولهذا – والله أعلم – قال – ﷺ : «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن»[٢]. الحديث. فهو حين يزنى يغيب عنه تصديقه بحرمة الزنا، وإن بقى أصل التصديق فى قلبه ثم يعاوده.

فإن المتقين كما وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. قال ليث عن مجاهد: هو الرجل يهم بالذنب فيذكر الله فيدعه. والشهوة والغضب مبدأ السيئات، فإذا أبصر رجع، ثم قال تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]. أى: وإخوان الشياطين تمدهم الشياطين فى الغى ثم لا

---

(١) الحديث أخرجه أحمد ١–٢١٥، ٢٧١، والطبرانى والخطيب وغيرهم بسند صحيح بلفظ «ليس الخبر كالمعاينة».

(٢) سبق تخريج هذا الحديث.

يقصرون. قال ابن عباس: لا الإنس تقصر عن السيئات، ولا الشياطين تمسك عنهم. فإذا لم يبصر بقى قلبه فى عمى والشيطان يمده فى غيه، وإن كان التصديق فى قلبه لم يكذب، فذلك النور والإبصار، وتلك الخشية والخوف تخرج من قلبه. وهذا كما أن الإنسان يغمض عينه فلا يرى، وإن لم يكن أعمى فكذلك القلب بما يغشاه من رين الذنوب، لا يبصر الحق وإن لم يكن أعمى كعمى الكافر. وجاء هذا المعنى مرفوعًا إلى النبى – ﷺ: حيث قال: «إذا زنا العبد نزع منه الإيمان، فإذا تاب أعيد إليه»[1].

النزاع بين أهل السنة

وإذا كان النزاع فى هذه المسألة بين أهل السنة نزاعًا لفظيًا، فلا محذور فيه، سوى ما يحصل من عدوان إحدى الطائفتين على الأخرى والافتراق بسبب ذلك، وأن يصير ذلك ذريعة إلى بدع أهل الكلام المذموم من أهل الأرجاء ونحوهم، وإلى ظهور الفسق والمعاصى، بأن يقول: أنا مؤمن مسلم حقًا كامل الإيمان والإسلام ولى من أولياء الله، فلا يبالى بما يكون منه من المعاصى. وبهذا المعنى قالت المرجئة: لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله وهذا باطل قطعًا. فالإمام أبو حنيفة رضى الله عنه نظر إلى حقيقة الإيمان لغة مع أدلة من كلام الشارع. وبقية الأئمة رحمهم الله نظروا إلى حقيقته فى الشارع، فإن الشارع ضم إلى التصديق أوصافًا وشرائط كما فى الصلاة والصوم والحج ونحو ذلك.

أدلة أصحاب أبى حنيفة

فمن أدلة الأصحاب لأبى حنيفة رحمه الله: أن (الإيمان) فى اللغة عبارة عن التصديق، قال تعالى خبرًا عن إخوة يوسف: ﴿ **وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا** ﴾ [يوسف: ١٧]، أى بمصدق لنا، ومنهم من ادعى إجماع أهل اللغة على ذلك. ثم هذا المعنى اللغوى، وهو التصديق بالقلب، هو الواجب على العبد حقًا لله،

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى الإيمان باب ١١ بلفظ: إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظلة، فإذا خرج من ذلك العمل عاد إليه الإيمان». ورواه أبو داود فى (١) السنة ١٥، باللفظ السابق ما عدا: «إذا زنى الرجل بدل العبد». ورواه الحاكم وصححه هو والذهبى.

وهو أن يصدق الرسول ﷺ فيما جاء به من عند الله فمن صدق الرسول فيما جاء به من عند الله فهو مؤمن، فيما بينه وبين الله تعالى، والإقرار شرط إجراء أحكام الإسلام فى الدنيا. هذا على أحد القولين، كما تقدم، ولأنه ضد الكفر وهو التكذيب والجحود، وهما يكونان بالقلب. فكذا ما يضادهما. وقوله: ﴿ **إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ** ﴾ [النحل: ١٠٦]، يدل على أن القلب هو موضع الإيمان، لا اللسان، ولأنه لو كان مركبًا من قول وعمل لزال كله بزوال جزئه، ولأن العمل قد عطف على الإيمان، والعطف يقتضى المغايرة قال تعالى: ﴿ **آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ [البقرة: ٢٥]، فى مواضع من القرآن.

وقد اعترض على استدلالهم بأن الإيمان فى اللغة عبارة عن التصديق بمنع الترادف بين التصديق والإيمان، فهب أن الأمر يصح فى موضع، فلم قلتم: إنه يوجب الترادف مطلقًا؟ وكذلك اعترض على دعوى الترادف بين الإسلام والإيمان. وما يدل على عدم الترادف: أنه يقال للمخبر إذا صدق: صدقه، ولا يقال: آمنه، ولا آمن به، بل يقال: آمن له، كما قال تعالى: ﴿ **فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ** ﴾ [العنكبوت: ٢٦]. ﴿ **فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ** ﴾ [يونس: ٨٣]، قال تعالى: ﴿ **يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ** ﴾ [التوبة: ٦١]، ففرق بين المعدّى بالباء والمعدّى باللام، فالأول يقال للمخبر به. والثانى للمخبر. ولا يرد كونه يجوز أن يقال: ما أنت بمصدق لنا، لأن دخول اللام لتقوية العامل، كما إذا تقدم المعمول، أو كان العامل اسم فاعل، أو مصدراً، على ما عرف فى موضعه فالحاصل أنه لا يقال: قد آمنته: ولا صدقت له، إنما يقال: آمنت له، كما يقال: أقررت له. فكان تفسيره بـ(أقررت) أقرب من تفسيره بـ(صدقت) مع الفرق بينهما لأن الفرق بينهما ثابت فى المعنى، فإن كل مخبر عن شاهد أو غيب، يقال له فى اللغة: صدقت، كما يقال له: كذبت. فمن قال: السماء فوقنا، قيل له صدقت. وأما لفظ (الإيمان) فلا يستعمل إلا فى الخبر عن الغائب، فيقال لمن قال: طلعت الشمس صدقناه، ولا يقال: آمنا له فإن فيه أصل معنى الأمن، والإيمان إنما يكون فى الخبر عن الغائب، فالأمر الغائب هو الذى يؤتمن عليه المخبر. ولهذا لم يأت فى

القرآن وغيره لفظ (آمن له)، إلا فى هذا النوع . ولأنه لم يقابل لفظ (الإيمان) قط بالتكذيب كما يقابل لفظ (التصديق) وإنما يقابل بالكفر، والكفر لا يختص بالتكذيب، بل لو قال : أنا أعلم أنك صادق ولكن لا أتبعك بل أعاديك وأبغضك وأخالفك، لكان كفرًا أعظم، فعلم أن الإيمان ليس التصديق فقط، ولا الكفر التكذيب فقط، بل إن الكفر يكون تكذيبًا، ويكون مخالفة ومعاداة بلا تكذيب . فكذلك الإيمان، يكون تصديقًا وموافقة وموالاة وانقيادًا، ولا يكفى مجرد التصديق، فيكون الإسلام جزء مسمى الإيمان . ولو سلم الترادف، فالتصديق يكون بالأفعال أيضًا، كما ثبت فى الصحيح عن النبى – ﷺ أنه قال : « العينان تزنيان، وزناهما النظر، والأذن تزنى وزناها السمع »، إلى أن قال : « والفرج يصدق ذلك ويكذبه »[1]، وقال الحسن البصرى[2] رحمه الله : ليس الإيمان بالتحلى ولا بالتمنى، ولكنه ما وقر فى الصدور وصدقته الأعمال ولو كان تصديقًا فهو تصديق مخصوص، كما فى الصلاة ونحوها كما تقدم، وليس هذا نقلاً للفظ ولا تغييرًا له . فإن الله لم يأمر بإيمان مطلق، بل بإيمان خاص، وصفه وبينه فالتصديق الذى هو الإيمان، أدنى أحواله أن يكون نوعًا من التصديق العام، فلا يكون مطابقًا له فى العموم والخصوص، من غير تغير اللسان ولا قلبه . بل يكون (الإيمان) فى كلام الشارع مؤلفًا من العام والخاص، كالإنسان الموصوف بأنه حيوان ناطق، ولأن التصديق التام القائم بالقلب مستلزم لما وجب من أعمال القلب والجوارح، فإن هذه لوازم الإيمان التام، وانتفاء اللازم دليل على انتفاء الملزوم . ونقول : إن هذه لوازم تدخل فى مسمى اللفظ تارة، وتخرج عنه أخرى، أو أن اللفظ باق على معناه فى اللغة، ولكن الشارع زاد فيه أحكامًا أو أن يكون

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى كتاب النكاح باب ما يؤمر به من غض البصر، حديث رقم ٢١٥٢، ٢١٥٣، ٢١٥٤ وأخرجه أحمد فى مسنده ١–٤١٢، ٢–٢٧٦، ٣١٧، ٣٢٩ ورواه البخارى فى كتاب الاستئذان، باب زنى الجوارح دون الفرج حديث رقم ٦٢٤٣ ورواه مسلم فى كتاب القدر باب قدر على ابن آدم حظه من الزنى وغيره رقم ٢٦٥٧ .

(٢) الحسن البصرى : الحسن بن يسار أبو سعيد تابعى، كان إمام أهل البصرة وحبر الأمة، وهو أحد العلماء الفقهاء العظماء الشجعان النساك، ولد بالمدينة سنة ٢١هـ، وشب فى كنف على ابن أبى طالب – رضى الله عنه – واستكتبه الربيع بن زياد والى خراسان فى عهد معاوية، وسكن البصرة، له مع الحجاج بن يوسف مواقف، توفى بالبصرة عام ١١٠هـ.

الشارع استعمله فى معناه المجازى، فهو حقيقة شرعية، مجاز لغوى، أو أن يكون قد نقله الشارع. وهذه الأقوال لمن سلك هذا الطريق وقالوا: إن الرسول قد وافقنا على معانى الإيمان، وعلمنا من مراده علمًا ضروريًا أن من قيل: إنه صدق ولم يتكلم بلسانه بالإيمان، مع قدرته على ذلك، ولا صلى، ولا صام. ولا أحب الله ورسوله، ولا خاف الله؛ بل كان مبغضًا للرسول، معاديًا له يقاتله، أن هذا ليس بمؤمن كما علمنا أنه رتب الفوز والفلاح على التكلم بالشهادتين مع الإخلاص والعمل بمقتضاهما. فقد قال ﷺ: «الإيمانُ بضع وسبعونَ شعبة، أعلاها قول: لا إله إلا الله وأدناها إماطةُ الأذى عن الطريق»[1]. وقال أيضًا: «الحياءُ شعبة من الإيمان»[2]. وقال أيضًا ﷺ: «البذاذة من الإيمان». فإذا كان الإيمان أصلاً له شعب متعددة، وكل شعبة منها تسمى: إيمانًا، فالصلاة من الإيمان، وكذلك الزكاة والصوم والحج والأعمال الباطنة، كالحياء والتوكل والخشية من الله والإنابة إليه، حتى تنتهى هذه الشعب إلى إماطة الأذى عن الطريق، فإنه من شعب الإيمان. وهذه الشعب، منها ما يزول الإيمان بزوالها إجماعًا، كشعبة الشهادتين، ومنها ما لا يزول بزوالها إجماعًا، كترك إماطة الأذى عن الطريق، وبينهما شعب متفاوتة تفاوتًا عظيمًا، منها ما يقرب من شعبة الشهادة، ومنها ما يقرب من شعبة إماطة الأذى، وكما أن شعب الإيمان إيمان، فكذا شعب الكفر كفر، فالحكم بما أنزل الله – مثلاً – من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله كفر.

---

(١) الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان باب: أمور الإيمان، وقوله تعالى: ﴿ **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب** ﴾. ورواه فى كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، أحاديث رقم ٥٧، ٥٨، ٥٩. وأبو داود فى كتاب السنة ٣٤، باب فى رد الأرجاء حديث رقم ٤٦٧٦، والترمذى فى كتاب الإيمان ٤١، باب ما جاء فى استكمال إيىمان وزيادته ونقصانه، حديث رقم ٢٦١٧، والنسائى فى كتاب الإيمان، باب ذكر شعب الإيمان وابن ماجه فى المقدمة، باب فى الإيمان حديث رقم ٥٧، وأحمد بن حنبل ٢–٣٧٩، ٤١٤، ٤٤٥.

(٢) هذا الحديث رواه البخارى جزءًا من حديث فى كتاب الإيمان وفى كتاب الإيمان أيضًا: باب الحياء من الإيمان، ومسلم فى كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان، وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، وأبو داود فى كتاب السنة باب: فى رد الإرجاء حديث رقم ٤٦٧٦، ومالك فى الموطأ كتاب حسن الخلق، باب ما جاء فى الحياء رقم ١٠.

وقد قال ﷺ: «من رأى منكم منكرًا فليغيْره بيده فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعفُ الإيمان»[1]. رواه مسلم وفي لفظ «ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» وروى الترمذي عن الرسول ﷺ أنه قال: «من أحب لله، وأبغض لله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان»[2]. ومعناه - والله أعلم - أن الحب والبغض أصل حركة القلب، وبذل المال ومنعه هو كمال ذلك؛ فإن المال آخر المتعلقات بالنفس، والبدن متوسط بين القلب والمال، فمن كان أول أمره وآخره كله لله كان الله إلهه في كل شيء، فلم يكن فيه شيء من الشرك، وهو إرادة غير الله وقصده ورجاؤه، فيكون مستكملاً الإيمان، إلى غير ذلك من الأحاديث الدالة على قوة الإيمان وضعفه بحسب العمل.

وسيأتي في كلام الشيخ رحمه الله في شأن الصحابة: «وحبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان». فسمى حب الصحابة إيمانًا، وبغضهم كفرًا.

وما أعجب ما أجاب به أبو المعين النسفي[3] وغيره، عن استدلالهم بحديث شعب الإيمان المذكور، وهو: أن الراوي قال: «بضعٌ وستون أو بضعٌ وسبعون» فقد شهد الراوي بفعله نفسه حيث شك فقال «بضع وستون أو بضع

---

(١) الحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان باب: بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، وقد أورده بعد سرد حادثة ولفظه: «من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». أما لفظه: «ليس وراء ذلك حبة خردل» فقد أخرجها مسلم أيضا في النهاية حديث طويل في نفس الباب رقم ٨٠. وأخرجه الترمذي في كتاب الفتن ٣٤، باب ما جاء في تغيير المنكر باليد أو باللسان أو بالقلب، حديث رقم ٢١٧٣، وأبو داود في كتاب الملاحم ٣١، باب الأمر والنهي حديث رقم ٤٣٤٠ وأخرجه أيضا ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة والسنة حديث رقم ١٢٧٥.

(٢) الحديث رواه الترمذي في كتاب صفة القيامة باب أعقلها وتوكل. حديث رقم ٢٥٢٣ وأخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٣-٤٣٠، ٤٤٠، وأبو داود في سننه كتاب السنة باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، حديث رقم ٢٦٨١ واللفظ له.

(٣) راجع ترجمته التي سبقت في جـ١ ص١٨٩. هو النسفي أبو البركات حافظ الدين، واسمه عبد الله بن أحمد بن محمود أما أبو المعين هذا فلم يترجم له.

وسبعون » ولا يظن برسول الله ﷺ الشكُّ في ذلك وأن هذا الحديث مخالف للكتاب .

فطعن فيه بغفلة الراوى ومخالفته الكتاب . فانظر إلى هذا الطعن ما أعجبه فإن تردد الراوى بين الستين والسبعين لا يلزم منه عدم ضبطه، مع أن البخارى رحمه الله إنما رواه (بضع وستون) من غير شك . وأما الطعن بمخالفته الكتاب، فأين فى الكتاب ما يدل على خلافه؟ وإنما فيه ما يدل على وفاقه، وإنما هذا الطعن من ثمرة شؤم التقليد والتعصب .

وقالوا أيضًا : وهنا أصل آخر، وهو : أن القول قسمان : قول القلب وهو الاعتقاد، وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام . والعمل قسمان : عمل القلب، وهونيته وإخلاصه وعمل الجوارح . فإذا زالت هذه الأربعة زال الإيمان بكماله، وإذا زال تصديق القلب لم ينفع بقية الأُخر، فإن تصديق القلب شرط فى اعتبارها وكونها نافعة، وإذا بقى تصديق القلب وزال الباقى فهذا موضع المعركة .

ولا شك أنه يلزم من عدم طاعة الجوارح عدم طاعة القلب، إذ لو أطاع القلب وانقاد، لأطاعت الجوارح وانقادت، ويلزم من عدم طاعة القلب وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة . قال ﷺ : «إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد، وإذا فسدت فسدَ لها سائر الجسد، ألا وهى القلب»[1] فمن صلح قلبه صلح جسده قطعًا، بخلاف العكس . وأما كونه يلزم من زوال جزئه زوال كله، فإن أريد أن الهيئة الاجتماعية لم تبق مجتمعة كما كانت، فمسلم، ولكن لا يلزم من زوال بعضها زوال سائر الأجزاء فيزول عنه الكمال فقط .

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الإيمان ٣٩، ومسلم فى المساقاة ١٠٧، وابن ماجه فى الفتن ١٤، وهو جزء من حديث طويل : منه «ألا وإن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهى القلب» رواه الدارمى، فى البيوع ١ .

زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة

والادلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جدًا: منها قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ [الانفال: ٢]. ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ [مريم: ٧٦] ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ [الفتح: ٤]. ﴿ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] وكيف يقال في هذه الآية والتي قبلها أن الزيادة باعتبار زيادة المؤمن به؟ فهل في قول الناس ﴿ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٧٣] زيادة مشروع؟ وهل في إنزال السكينة في قلوب المؤمنين زيادة مشروع؟ وإنما أنزل الله السكينة في قلوب المؤمنين مرجعهم من الحديبية ليزدادوا طمأنينة ويقينًا، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة: ١٢٤-١٢٥]. وأما ما رواه الفقيه أبو الليث السمرقندي[١]، في تفسيره عند هذه الآية، فقال: حدثنا محمد بن الفضل أبو القاسم الساباذي قال: حدثنا فارس بن مردويه، قال: حدثنا محمد ابن الفضل بن العابد، قال: حدثنا يحيى بن عيسى، قال: حدثنا أبو مطيع، عن حماد بن سلمة، عن أبي هريرة، قال: «جاء وفدُ ثقيف إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا رسولَ الله الإيمان يزيد وينقص؟ فقال: لا، الإيمان مكمل في القلب، زيادته كفرٌ ونقصانه شرك»[٢] فقد سئل شيخنا الشيخ عماد الدين ابن

---

(١) هو: نصر بن محمد بن أحمد إبراهيم السمرقندي، أبو الليث، الملقب بإمام الهدى، علامة من أئمة الحنفية، من الزهاد المتصوفين له تصانيف نفيسة منها تفسير القرآن، وعمدة العقائد وغير ذلك توفي سنة ٣٧٣هـ (الفوائد البهية ٢٢٠).

(٢) هذا الحديث موضوع.

كثير[١] رحمه الله عن هذا الحديث فأجاب: بأن الإسناد من أبى الليث إلى أبى مطيع مجهولون لا يعرفون فى شىء من كتب التواريخ المشهورة. وأما أبو مطيع، فهو: الحكم بن عبد الله بن مسلمة البلخى، ضعفه أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين وعمرو بن على الفلاس، والبخارى، وأبو داود، والنسائى، وأبو حاتم الرازى، وأبو حاتم محمد بن حبان البستى، والعقيلى، وابن عدى، والدارقطنى، وغيرهم.. وأما أبو المهزم، الراوى عن أبى هريرة فقد تصحف على الكاتب، واسمه: يزيد بن سفيان، فقد ضعفه أيضاً، غير واحد، وتركه شعبة بن الحجاج، وقال النسائى: متروك، وقد اتهمه شعبة بالوضع، حيث قال: لو أعطوه فلسين لحدثهم سبعين حديثاً.

وقد وصف النبى ﷺ النساء بنقصان العقل والدين[٢]. وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولده والناس أجمعين»[٣]. والمراد نفى الكمال، ونظائره كثيرة، وحديث شعب الإيمان، وحديث الشفاعة، وأنه يخرج من النار من فى قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان، فكيف يقال بعد هذا: إن إيمان أهل السموات والأرض سواء؟. وإنما التفاضل بينهم بمعان أخر غير الإيمان؟. وكلام الصحابة رضى الله عنهم فى هذا المعنى كثير أيضاً. منه: قول أبى الدرداء[٤] رضى الله عنه: «من فقه العبد أن يتعاهد إيمانه وما نقص منه، ومن

---

(١) ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير أبو الفداء عماد الدين، حافظ، مؤرخ، فقيه، ولد فى قرية من أعمال بصرى الشام وانتقل إلى دمشق سنة ٧٠٦، وتوفى بدمشق عام ٧٧٤هـ، من كتبه: البداية والنهاية – وشرح صحيح البخارى، وتفسير القرآن العظيم. (ذيلا طبقات الحفاظ للحسنى والسيوطى والدرر الكامنة ١-٣٧٣).

(٢) الحديث كما رواه مسلم: «وما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن قالت يا رسول الله وما نقصان العقل والدين..؟ قال: أما نقصان العقل فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل، وتمكث الليالى ما تصلى وتفطر فى رمضان فهذا نقصان الدين».

(٣) الحديث رواه البخارى فى إيمان ٨، ومسلم إيمان ٦٩، ٧٠، والنسائى فى إيمان ١٩، وابن ماجه فى المقدمة ٩، وأحمد بن حنبل ٣-١٧٧، ٢٠٧، ٢٧٥، ٢٧٨، ٤-٣٣٦.

(٤) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصارى الخزرجى أبو الدرداء صحابى من الحكماء الفرسان القضاة. كان قبل البعثة تاجراً فى المدينة ثم انقطع للعبادة، ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك مات بالشام عام ٣٢هـ، وروى عنه أهل الحديث ١٧٩ حديثاً.

فقه العبد أن يعلم أيزداد هو أم ينقص» وكان عمر رضى الله عنه يقول لأصحابه: علموا نزدد إيمانًا، فيذكرون الله تعالى عز وجل. وكان ابن مسعود رضى الله عنه يقول فى دعائه: اللهم زدنا إيمانًا ويقينًا وفقهًا. وكان معاذ بن جبل[1] رضى الله عنه يقول لرجل: اجلس بنا نؤمن ساعة. ومثله عن عبد الله بن رواحة[2]. وصح عن عمار بن ياسر[3] رضى الله عنه أنه قال: «ثلاثةٌ من كنَّ فيه فقد استكمل الإيمان: إنصافٌ من نفسه والإنفاق من إقتار، وبذل السلام للعالم»[4] ذكره البخارى رحمه الله فى صحيحه. وفى هذا القدر كفاية وبالله التوفيق.

وأما كون عطف العمل على الإيمان يقتضى المغايرة، فلا يكون العمل داخلاً فى مسمى الإيمان، فلا شك أن الإيمان تارة يذكر مطلقًا عن العمل وعن الإسلام، وتارة يقرن بالعمل الصالح، وتارة يقرن بالإسلام. فالمطلق مستلزم للأعمال، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنفال: ٢]. الآية. ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا**﴾ [الحجرات: ١٥]. الآية. ﴿**وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ**﴾ [المائدة: ٨١] وقال ﷺ: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن»[5] الحديث. «لا تؤمنوا حتى تحابوا»[6]. «من غشنا فليس

---

(١) معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس الأنصارى الخزرجى أبو عبد الرحمن، صحابى جليل. كان أعلم الأمة بالحلال والحرام، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبى - ﷺ - شهد العقبة مع الأنصار، وشهد بدرا وأحدا والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله، توفى سنة ١٨هـ.

(٢) عبد الله بن رواحة بن ثعلبة الأنصارى من الخزرج أبو محمد، صحابى يعد من الأمراء الشعراء، كان يكتب فى الجاهلية، وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وكان أحد النقباء الإثنى عشر، وشهد بدرا وأحدا والخندق والحديبية، وكان أحد الأمراء فى وقعة مؤتة، مات سنة ٨هـ.

(٣) هو عمار بن ياسر بن عامر المذحجى العنسى أبو اليقظان، صحابى من الولاة الشجعان ذوى الرأى، وهو أحد السابقين إلى الإسلام والجهر به، هاجر إلى المدينة وشهد بدرا وأحدا والخندق وبيعة الرضوان، وكان النبى يلقبه الطيب المطيب. ولاه عمر الكوفة. وشهد الجمل وصفين مع على ابن أبى طالب - رضى الله عنه - توفى سنة ٣٧هـ.

(٤) الحديث رواه البخارى فى إيمان ٢٠.

(٥) الحديث رواه ابن ماجه فى الفتن.

(٦) الحديث رواه مسلم فى الإيمان ٩٣ وأبو داود فى الأدب ١٣١، والترمذى فى صفة =

منا »[١] . « من حملَ علينا السلاحَ فليس منا »[٢] . وما أبعد قول من قال : إن معنى قوله : « فليس منا » - أى فليس مثلنا . فليت شعرى : فمن لم يغش يكون مثل النبى ﷺ وأصحابه؟ .

وأما إذا عطف عليه العمل الصالح، فاعلم أن عطف الشىء على الشىء يقتضى المغايرة بين المعطوف والمعطوف عليه مع الاشتراك فى الحكم الذى ذكر لهما، والمغايرة على مراتب أعلاها : أن يكونا متباينين، وليس أحدهما هو الآخر، ولا جزءاً منه، ولا بينهما تلازم، لقوله تعالى : ﴿ **خَلَقَ السَّموَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ** ﴾ [الأنعام : ١] . ﴿ **وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ** ﴾ [آل عمران : ٢] وهذا هو الغالب، ويليه : أن يكون بينهما تلازم، كقوله تعالى : ﴿ **وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة : ٤٢] . ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ** ﴾ [محمد : ٣٣]، الثالث عطف بعض الشىء عليه، كقوله تعالى : ﴿ **حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ** ﴾ [البقرة : ٢٣٨] . ﴿ **مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ** ﴾ [البقرة : ٩٨] . ﴿ **وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ** ﴾ [الأحزاب : ٧] فى مثل هذا وجهان : أحدهما : أن يكون داخلاً فى الأول . فيكون مذكوراً مرتين . والثانى : أن عطفه عليه يقتضى أنه ليس داخلاً فيه هنا، وإن كان داخلاً فيه منفرداً، كما قيل مثل ذلك فى لفظ (الفقراء والمساكين) ونحوهما، وتتنوع دلالته بالإفراد والاقتران . الرابع : عطف

=القيامة ٥٤ ، والاستئذان ١ ، وابن ماجه فى المقدمة ٩ ، وأدب ١١ ، وأحمد بن حنبل ١-١٦٥ ، ١٦٧ ، ولفظه عند مسلم : « لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شىء إذا فعلتموه تحاببتم؟ افشوا السلام بينكم » .

(١) الحديث رواه مسلم فى الإيمان ١٦٤ ، وأبو داود فى البيوع ٥٠ ، والترمذى فى البيوع ٧٢ ، وابن ماجه فى التجارات ٣٦ ، والدارمى فى البيوع ١٠ ، وأحمد بن حنبل ٢-٥٠ ، ٢٤٢ ، ٤١٧ ، ٣ - ٤٦٦ .

(٢) الحديث رواه البخارى فى الفتن ٧ ، والديات ٢ ، ومسلم فى إيمان ١٦١ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، وفتن ١٦ ، والنسائى تحريم ٢٦ ، ٢٩ ، والترمذى فى الحدود ٢٦ ، وابن ماجه فى الفتن ١١ ، ولفظه، عند مسلم : « من حمل علينا السلاح فليس منا » .

الشيء على الشيء لاختلاف الصفتين، كقوله تعالى: ﴿ **غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ** ﴾ [غافر: ٣]. وقد جاء في الشعر العطف لاختلاف اللفظ فقط، كقوله:

*** فألقى قولها كذبًا ومينًا ***

ومن الناس من زعم أن في القرآن من ذلك قوله تعالى: ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ [المائدة: ٤٨] والكلام على ذلك معروف في موضعه. فإذا كان العطف في الكلام يكون على هذه الوجوه نظرنا في كلام الشارع: كيف ورد فيه (الإيمان)؟ فوجدناه إذا أطلق يراد به ما يراد بلفظ البر، والتقوى، والدين، ودين الإسلام. ذكر في أسباب النزول أنهم سألوا عن الإيمان؟ فأنزل الله هذه الآية: ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ** ﴾[1] [البقرة: ١٧٧] الآيات، قال محمد بن نصر[2] حدثنا إسحق بن إبراهيم، حدثنا عبد الله ابن زيد ابن يزيد المقرى والملائى. قالا: حدثنا المسعودى، عن القاسم، قال: «جاء رجلٌ إلى أبي ذرٍّ، فسأله عن الإيمان؟ فقرأ: «ليس البرَّ أن تولوا وجوهكم»: إلى آخر الآية فقال الرجل: ليس عن هذا سألتك، فقال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فسأله عن الذي سألتني عنه فقرأ عليه الذي قرأت عليك، فقال له الذي قلت لي فلما أبى أن يرضى، قال: إن المؤمن الذي إذا عمل الحسنة سرته ورجا ثوابها، وإذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها. وكذلك أجاب جماعة من السلف بهذا الجواب. وفي الصحيح قوله لوفد عبدالقيس: (آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله، شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإقام الصلاة،

---

(١) الحديث ضعيف بهذا السياق والإسناد وعلته الانقطاع واختلاط المسعودى لكن صح والحديث من رواية أبي أمامة أن رسول الله - ﷺ - سأله عن رجل. فقال يا رسول الله.. ما الإيمان؟ قال: إذا سرتك حسنتك وساءتك سيئتك فأنت مؤمن». قال: يا رسول الله ما الإثم..؟ قال: «إذا حاك في صدرك شيء فدعه». رواه الحاكم ١٤١، وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبي، وإنما على شرط مسلم وحده فإن ممطوراً لم يخرج له البخارى في صحيحه.

(٢) محمد بن نصر المروزى أبو عبد الله، إمام في الفقه والحديث، كان من أعلم الناس باختلاف الصحابة فمن بعدهم في الأحكام. ولد ببغداد ونشأ بنيسابور، ورحل رحلة طويلة استوطن بعدها سمرقند، وتوفي بها عام ٢٩٤هـ، له كتب كثيرة منها: «القسامة في الفقه»، و«المسند في الحديث».. وغير ذلك (تذكرة الحفاظ ٢-٢٠١).

وإيتاء الزكاة، وأن تؤدُّوا الخمس من المغْنَم»[1] . ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيمانًا بالله بدون إيمان القلب، لما قد أخبر فى مواضع أنه لا بد من إيمان القلب. فعلم أن هذه مع إيمان القلب. وأى دليل على أن الأعمال داخلة فى مسمى (الإيمان) فوق هذا الدليل؟ فإنه فسر الإيمان بالأعمال، ولم يذكر التصديق للعلم بأن هذه الأعمال لا تفيد مع الجحود، وفى المسند عن أنس، عن النبى ﷺ، أنه قال: «الإسلامُ علانيةٌ، والإيمانُ فى القلب»[2]. وفى هذا الحديث دليل على المغايرة بين الإسلام والإيمان. ويؤيده قوله [فى حديث سؤالات جبريل، فى معنى الإسلام والإيمان] وقد قال فيه النبى ﷺ: «هذا جبرائيل أتاكم يعلمكم دينكم»[3] فجعل الدين هو الإسلام والإيمان والإحسان، فتبين أن ديننا يجمع الثلاثة. لكن هو درجات ثلاث: مسلم، ثم مؤمن، ثم محسن. والمراد بالإيمان ما ذكر مع الإسلام قطعًا، كما أنه أريد بالإحسان ما ذكر مع الإيمان والإسلام. لا أن الإحسان يكون مجردًا عن الإيمان، هذا محال. وهذا كما قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [فاطر: ٣٢] . والمقتصد والسابق كلاهما يدخل الجنة بلا عقوبة، بخلاف الظالم لنفسه، فإنه معرض للوعيد وهكذا من تأتى بالإسلام الظاهر مع التصديق بالقلب، لكن لم يقم بما يجب عليه من الإيمان الباطن فإنه معرض للوعيد. فأما الإحسان فهو أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أهله، والإيمان أعم من جهة نفسه وأخص من جهة أهله من الإسلام. فالإحسان يدخل فيه الإيمان، والإيمان يدخل فيه الإسلام. والمحسنون أخص من المؤمنين، والمؤمنون أخص من المسلمين. وهذه كالرسالة والنبوة فالنبوة

---

(١) الحديث رواه البخارى فى إيمان ٤٠، وعلم ٢٥ وتوحيد ٥٦، ورواه أبو داود فى السنة ١٥، وأحمد بن حنبل ١-٢٢٨، ورواه الإمام مسلم فى إيمان ٢٣-٢٤ والرواية التى ذكرها المؤلف هى رواية الإمام مسلم.

(٢) الحديث رواه أحمد بن حنبل فى مسنده ٣-١٣٥ بلفظ: «الإسلام علانية والإيمان فى القلب».

(٣) الحديث رواه مسلم فى إيمان١، وأبو داود فى السنة ١٦، والترمذى فى إيمان ٤، والنسائى فى مواقيت ٦، وابن ماجه فى المقدمة ٩، وأحمد بن حنبل ١-٢٧-٢٨، ٥٢، ٥٣.

داخلة فى الرسالة والرسالة أعم من جهة نفسها وأخص من جهة أهلها، فكل رسول نبى، ولا ينعكس.

أقوال العلماء فى مسمى الإسلام

وقد صار الناس فى مسمى (الإسلام) على ثلاثة أقوال: فطائفة جعلت الإسلام هو الكلمة، وطائفة أجابوا بما أجاب به النبى ﷺ حين سئل عن الإسلام والإيمان حيث فسر الإسلام بالأعمال الظاهرة، والإيمان بالإيمان بالأصول الخمسة. وطائفة جعلوا الإسلام مرادفًا للإيمان وجعلوا معنى قول الرسول ﷺ: «الإسلام شهادةُ أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة»[1]. الحديث، شعائر الإسلام. والأصل عدم التقدير مع أنهم قالوا: إن الإيمان هو التصديق بالقلب، ثم قالوا: الإسلام والإيمان شىء واحد فيكون الإسلام هو التصديق. وهذا لم يقله أحد من أهل اللغة وإنما هو الانقياد والطاعة وقد قال النبى ﷺ: «اللهم لك أسلمتُ وبك آمنت»[2]. وفسر الإسلام بالأعمال الظاهرة. والإيمان بالإيمان بالأصول الخمسة. فليس لنا إذا جمعنا بينهما أن نجيب بغير ما أجاب النبى ﷺ. وأما إذا أفرد اسم الإيمان فإنه يتضمن الإسلام وإذا أفرد الإسلام فقد يكون مع الإسلام مؤمنًا بلا نزاع، وهذا هو الواجب وهل يكون مسلمًا ولا يقال له مؤمن؟ وقد تقدم الكلام فيه.

وكذلك هل يلتزم الإسلام الإيمان؟ فيه النزاع المذكور، وإنما وعد الله بالجنة فى القرآن وبالنجاة من النار باسم (الإيمان)، كما قال تعالى: ﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣] وقال تعالى: ﴿ **سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ**

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب الإيمان: باب دعاؤكم إيمانكم بلفظ: بنى الإسلام على خمس: شهادة ألا إله إلا الله. ورواه الإمام أحمد ٢-٢٦ بلفظ: بنى الإسلام على خمس، عن ابن عمر - رضى الله عنه - ورواه ابن ماجه فى المقدمة باب فى الإيمان بلفظ: ما الإسلام؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله.. إلخ.

(٢) الحديث رواه البخارى فى كتاب التهجد باب التهجد بالليل، وفى كتاب التوحيد، ورواه مسلم فى كتاب صلاة المسافرين باب الدعاء فى صلاة الليل وقيامه، وابن ماجه فى كتاب إقامة الصلاة باب: سجود القرآن بلفظ: اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت. عن على بن أبى طالب.

﴿وَالأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [الحديد: ٢١]. وأما إسم (الإسلام) مجردًا فما علق به القرآن دخول الجنة، ولكنه فرضه وأخبر أنه دينه الذى لا يقبل من أحد سواه، وبه بعث النبيين، ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

اقتران الإسلام بالإيمان

فالحاصل أن حالة اقتران الإسلام بالإيمان غير حالة إفراد أحدهما عن الآخر، فمثل الإسلام من الإيمان، كالشهادتين إحداهما من الأخرى، فشهادة الرسالة غير شهادة الوحدانية، فهما شيئان فى الأعيان، وإحداهما مرتبطة بالأخرى فى المعنى والحكم، كشىء واحد. كذلك الإسلام والإيمان، لا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان (له) إذ لا يخلو المؤمن من إسلام به يتحقق إيمانه، ولا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه، ونظائر ذلك فى كلام الله ورسوله وفى كلام الناس كثيرة، أعنى فى الإفراد والاقتران، منها لفظ الكفر والنفاق، فالكفر إذا ذكر مفردًا فى وعيد الآخرة دخل فيه المنافقون: كقوله تعالى: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥]. ونظائره كثيرة. وإذا قرن بينهما كان الكافر من أظهر كفره، والمنافق من آمن بلسانه ولم يؤمن بقلبه. وكذلك لفظ البر والتقوى، ولفظ الإثم والعدوان، ولفظ التوبة والاستغفار، ولفظ الفقير والمسكين وأمثال ذلك.

ويشهد للفرق بين الإسلام والإيمان، قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، إلى آخر السورة، وقد اعترض على أن معنى الآية: «قولوا أسلمنا»، انقدنا بظواهرنا، فهم منافقون فى الحقيقة، وهذا أحد قولى المفسرين فى هذه الآية الكريمة. وأجيب بالقول الآخر، ورجح، وهو أنهم ليسوا بمؤمنين كاملى الإيمان لا أنهم منافقون، كما نفى الإيمان عن القاتل والزانى، والسارق، ومن لا أمانة له. ويؤيد هذا سياق الآية، فإن السورة من أولها إلى هنا فى النهى عن المعاصى، وأحكام بعض العصاة، ونحو ذلك، وليس فيها ذكر المنافقين. ثم قال بعد ذلك: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم

مّنْ أَعْمَالكُمْ شَيْئًا ﴾ [الحجرات : ١٤]، ولو كانوا منافقين لما نفعتهم الطاعة، ثم قال : ﴿ **إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا** ﴾ [الحجرات : ١٥]، الآية . يعنى – والله أعلم – أن المؤمنين الكاملى الإيمان، هم هؤلاء، لا أنتم، بل أنتم منتفٍ عنكم الإيمان الكامل . يؤيد هذا : أنه أمرهم، أو أذن لهم، أن يقولوا : أسلمنا، والمنافق لا يقال له ذلك، ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام، كما نفى عنهم الإيمان، ونهاهم أن يمنوا بإسلامهم، فأثبت لهم إسلامًا، ونهاهم أن يمنوا به على رسوله، ولو لم يكن إسلامًا صحيحًا لقال : لم لم تسلموا، بل أنتم كاذبون كما كذبهم فى قولهم : (نشهد إنك لرسول الله) . والله أعلم بالصواب .

وينتفى بعد هذا التقدير والتفصيل دعوى الترادف، وتشنيع من ألزم بأن الإسلام لو كان هو الأمور الظاهرة لكان ينبغى ألا يقابل بذلك، ولا يقبل إيمان المخلص . وهذا ظاهر الفساد، فإنه قد تقدم تفسير الإيمان والإسلام بالشهادتين وغيرهما وأن حالة الاقتران غير حالة الانفراد، فانظر إلى كلمة الشهادة، فإن النبى ﷺ قال : « أمرتُ أن أقاتل الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله » . الحديث[1]، فلو قالوا : « لا إله إلا الله » وأنكروا الرسالة، ما كانوا يستحقون العصمة، بل لا بد أن يقولوا « لا إله إلا الله » قائمين بحقها، ولا يكون قائمًا بـ« لا إله إلا الله » حق القيام، إلا من صدق بالرسالة وكذا من شهد أن محمداً رسول الله، لا يكون قائمًا بهذه الشهادة حق القيام، إلا من صدق هذا الرسول فى حمل ما جاء به، فتضمنت التوحيد، وإذا ضممت شهادة (أن لا إله إلا الله) إلى شهادة (أن محمداً رسول الله)، كان المراد من شهادة أن لا إله إلا الله إثبات التوحيد، ومن شهادة أن محمداً رسول الله إثبات الرسالة . كذلك الإسلام والإيمان : إذا قرن أحدهما بالآخر، كما فى قوله تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾

---

(١) الحديث رواه البخارى فى كتاب « الإيمان » باب : قول الله (فإن تابوا وأقاموا الصلاة) حديث رقم ٢٥ ، ورواه النسائى فى كتاب الزكاة باب : منع الزكاة فى حديث طويل وله قصة عن أبى هريرة، وابن ماجه فى كتاب الفتن باب : الكف عمن قال : لا إله إلا الله، حديث رقم ٣٩٢٧، وحديث رقم ٣٩٢٨ ، ورواه الإمام أحمد ٤–٨ بلفظه عن أوس بن حذيفة وذكر له قصة .

[الأحزاب: ٣٥] وقوله ﷺ: «اللهمَّ لك أسلمت وبك آمنت»[١]، كان المراد من أحدهما غير المراد من الآخر. وكما قال ﷺ: «الإسلامُ علانيةٌ، والإيمانُ في القلبِ»[٢] وإذا انفرد أحدهما شمل معنى الآخر وحكمه، وكما في الفقير والمسكين ونظائره، فإن لفظي الفقير والمسكين إذا اجتمعا افترقا، وإذا افترقا اجتمعا، فهل يقال في قوله تعالى: «فإطعامُ عشرة مساكين»، أنه يعطى المقل دون المعدم، أو بالعكس؟ وكذا في قوله تعالى: ﴿ **وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ** ﴾ [البقرة: ٢٧١].

ويندفع أيضًا تشنيع من قال: ماحكم من آمن ولم يسلم؟ أو أسلم ولم يؤمن؟ في الدنيا والآخرة؟ فمن أثبت لأحدهما حكمًا ليس بثابت للآخر ظهر بطلان قوله. ويقال له في مقابلة تشنيعه، أنت تقول: المسلم هو المؤمن، والله تعالى يقول: ﴿ **إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ [الأحزاب: ٣٥]، فجعلها غيرين، وقد قيل لرسول الله ﷺ: «مالك عن فلانٍ والله إني لأراه مؤمنًا؟ قال أَوْ مُسلمًا»[٣]، قالها ثلاثًا، فأثبت له الإسلام وتوقف في اسم الإيمان، فمن قال: هما سواء – كان مخالفًا، والواجب رد موارد النزاع إلى الله ورسوله. وقد يتراءى في بعض النصوص معارضة ولا معارضة بحمد الله تعالى، ولكن الشأن في التوفيق، وبالله التوفيق.

وأما الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿ **فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾ [الذاريات: ٣٥-٣٦] – على ترادف الإسلام والإيمان، فلا حجة فيه، لأن البيت المخرج كانوا متصفين بالإسلام والإيمان، ولا يلزم من الاتصاف بهما ترادفهما.

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

(٢) هذا الحديث ضعيف وقد رواه أحمد بن حنبل في مسنده.

(٣) الحديث رواه البخاري في كتاب الإيمان باب: إذا لم يكن الإسلام على الحقيقة وكان على الاستسلام أو الخوف، حديث رقم ٢٧ بلفظه: في قصة عن سعد بن أبي وقاص مع زيادة الفاء في «والله» ورواه مسلم في كتاب الإيمان باب: تأليف قلب من يخاف على إيمانه لضعفه، حديث رقم ٢٣٧ ورواه أحمد بن حنبل ١-١٨٢ بلفظه عن سعد بن أبي وقاص.

والظاهر أن هذه المعارضات لم تثبت عن أبى حنيفة رحمه الله، وإنما هى عن الأصحاب فإن غالبها ساقط لا يرتضيه أبو حنيفة. وقد حكى الطحاوى حكاية أبى حنيفة مع حماد بن زيد(١) لما روى له حديث «أى الإسلام أفضل» إلى آخره، قال له: ألا تراه يقول: «أى الإسلام أفضل؟ قال: الإيمان»، ثم جعل الهجرة والجهاد من الإيمان؟ فسكت أبو حنيفة فقال بعض أصحابه: ألا تجيبه يا أبا حنيفة؟ قال: بم أجيبه؟ وهو يحدثنى بهذا عن رسول الله ﷺ.

الاستثناء فى الإيمان

ومن ثمرات هذا الاختلاف: مسألة الاستثناء فى الإيمان وهو أن يقول: أى الرجل: أنا مؤمن إن شاء الله. والناس فيه على ثلاثة أقوال: طرفان ووسط، منهم من يوجبه، ومنهم من يحرمه، ومنهم من يجيزه باعتبار ويمنعه باعتبار، وهذا أصح الأقوال.

أما من يوجبه فلهم مأخذان: أحدهما: أن الإيمان هو ما مات الإنسان عليه، والإنسان إنما يكون عند الله مؤمنًا أو كافرًا باعتبار الموافاة وما سبق فى علمه أنه يكون عليه، وما قبل ذلك لا عبرة به، قالوا: والإيمان الذى يعقبه الكفر فيموت صاحبه كافرًا – ليس بإيمان، كالصلاة التى أفسدها صاحبها قبل الكمال، والصيام الذى يفطر صاحبه قبل الغروب، وهذا مأخذ كثير من الكلابية(٢) وغيرهم، وعند هؤلاء أن الله يحب فى الأزل من كان كافرًا إذا علم

---

(١) هو: أبو إسماعيل حماد بن درهم الأزدى، كان ضريرًا كما أخبر ابن سنجوية وابن حبان، وأدرك حماد معظم التابعين من البصريين وغيرهم. روى عن ثابت البنانى وعبد العزيز بن صهيب وغيرهم. قال أحمد بن حنبل: حماد بن زيد أحب إلينا من عبد الوارث حماد من أئمة المسلمين من أهل الدين والإسلام وهو إلينا من، حماد بن سلمة. وقال فيه عبد الله بن المبارك:

أيها الطالب علمًا ... أيت حماد بن زيد
فاطلب العلم بحلم ... ثم قيده بقيد

توفى سنة ١٧٩هـ رحمه الله.

(٢) الكلابية: اتباع عبد الله بن سعيد الكلابى القطان البصرى وله عباد بن سليمان مناظرات وكان ابن حنبل من أشد الناس عليه، ووفاته بعد الأربعين ومائتين، والسبكى يذكر أنه من متكلمى أهل السنة. (طبقات الشافعية، ج٢، ص٥١).

منه أنه يموت مؤمنًا، فالصحابة ما زالوا محبوبين قبل إسلامهم، وإبليس ومن ارتد عن دينه ما زال الله يبغضه وإن كان لم يكفر بعد. وليس هذا قول السلف، ولا كان يقول بهذا من يستثني من السلف في إيمانه، وهو فاسد، فإن الله تعالى قال: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ** ﴾ [آل عمران: ٣١]، فأخبر أنه يحبهم إن اتبعوا الرسول، فاتباع الرسول شرط المحبة، والمشروط يتأخر عن الشرط، وغير ذلك من الأدلة. ثم صار إلى هذا القول طائفة غلوا فيه، حتى صار الرجل منهم يستثنى فى الأعمال الصالحة، يقول: صليت إن شاء الله. ونحو ذلك، يعنى القبول. ثم صار كثير منهم يستثنون فى كل شيء، فيقول أحدهم: هذا ثوب إن شاء الله هذا حبل إن شاء الله. فإذا قيل لهم: هذا لا شك فيه؟ يقولون: نعم لكن إذا شاء الله أن يغيره غيره.

المأخذ الثاني: أن الإيمان المطلق يتضمن فعل ما أمر الله به عبده كله، وترك ما نهاه عنه كله، فإذا قال الرجل: أنا مؤمن، بهذا الاعتبار - فقد شهد لنفسه أنه من الأبرار المتقين، القائمين بجميع ما أمروا به، وترك كل ما نهوا عنه فيكون من أولياء الله المقربين. وهذا من تزكية الإنسان لنفسه، ولو كانت هذه الشهادة صحيحة لكان ينبغى أن يشهد لنفسه بالجنة إن مات على هذا الحال. وهذا مأخذ عامة السلف الذين كانوا يستثنون، وإن جوزوا ترك الاستثناء، بمعنى آخر، كما سنذكره إن شاء الله تعالى: ويحتجون أيضًا بجواز الاستثناء فيما لا شك فيه، كما قال تعالى: ﴿ **لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ** ﴾ [الفتح: ٢٧]. وقال ﷺ حين وقف على المقابر: «وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون»[١] وقال أيضًا: «إنى لأرجو أن أكونَ أخشاكم لله»[٢] ونظائر هذا.

---

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب الطهارة باب: استحباب إطالة الغرة. بلفظه: ضمن دعاء للنبى - ﷺ، وكتاب الجنائز باب: ما يقال عند زيارة القبور حديث رقم ١٠٣، وحديث رقم ١٠٤، بلفظ «اللاحقون» ورواه أبو داود فى كتاب الجنائز باب: ما يقوله: «إذا زار القبور أو مر بها» حديث رقم ٣٢٢٧، بلفظ: «السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون». وابن ماجه فى كتاب الجنائز باب: ما جاء فيما يقال إذا دخل المقابر حديث رقم ١٥٤٦ بلفظه عن بريدة عن أبيه وسنن النسائى، كتاب الجنائز باب: الأمر بالإستغفار للمؤمنين، وأحمد بن حنبل ٢/ ٣٠٠.

(٢) الحديث رواه البخارى فى النكاح ١، ومسلم فى الصيام ٧٤، ٧٩، وأبو داود فى الصوم ٣٦، والموطأ صيام ٩، وأحمد بن حنبل ٩-٦٧، ١٢٢، ١٥٦.

وأما من يحرمه، فكل من جعل الإيمان شيئًا واحدًا، فيقول: أنا أعلم أنى مؤمن، كما أعلم أنى تكلمت بالشهادتين، فقولى: أنا مؤمن كقولى: أنا مسلم. فمن استثنى فى إيمانه فهو شاك فيه، وسموا الذين يستثنون فى إيمانهم الشكاكة. وأجابوا عن الاستثناء الذى فى قوله تعالى: ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ﴾، بانه يعود إلى الأمن والخوف فأما الدخول فلا شك فيه. وقيل: لتدخلن جميعًا أو بعضكم، لأنه علم أن بعضهم يموت وفى كلا الجوابين نظر: فإنهم وقعوا فيما فروا منه، فأما الأمن والخوف فقد أخبر أنهم يدخلون آمنين، مع علمه بذلك، فلا شك فى الدخول، ولا فى الأمن، ولا فى دخول الجميع أو البعض، فإن الله قد علم من يدخل، فلا شك فيه أيضًا، فكان قول (إن شاء الله) هنا تحقيقًا للدخول، كما يقول الرجل فيما عزم على شىء أن يفعله ولا محاله: والله لأفعلن كذا إن شاء الله، لا يقولها لشك فى إرادته وعزمه، ولكن إنما لا يحنث الحالف فى مثل هذا اليمين لأنه لا يجزم بحصول مراده. وأجيب بجواب آخر لا بأس به، وهو: أنه قال ذلك تعليمًا لنا كيف نستثنى إذا أخبرنا عن مستقبل وفى كون هذا المعنى مرادًا من النص، نظر، فإنه ما سبق الكلام له إلا أن يكون مرادًا من إشارة النص. وأجاب الزمخشرى[1] بجوابين آخرين باطلين، وهما: أن يكون الملك قد قاله، فأثبت قرآنًا. أو أن الرسول قاله. فعند هذا المسكين يكون من القرآن ما هو غير كلام الله. فيدخل فى وعيد من قال: إن هذا إلا قول البشر. نسأل الله العافية.

وأما من يجوز الاستثناء وتركه، فهو أسعد بالدليل من الفريقين، وخير الأمور أوسطها فإن أراد المستثنى الشك فى أصل إيمانه منع من الاستثناء، وهذا مما لا خلاف فيه. وإن أراد أنه مؤمن من المؤمنين الذين وصفهم الله في قوله: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ

---

(١) هو محمود بن عمر بن محمد بن أحمد الخوارزمى. أبو القاسم، من أئمة العلم والتفكير واللغة والآداب، ولد فى زمخشر عام ٤٦٧هـ، وسافر إلى مكة فجاور بها زمنًا فلقب بجار الله، وتنقل فى البلدان، من كتبه: «الكشاف فى تفسير القرآن وأساس البلاغة وغير ذلك كثير، توفى عام ٥٣٨هـ. (وفيات الأعيان ٢: ٨١).

إيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤]، وفي قوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥] فالاستثناء حينئذ جائز. وكذلك من استثنى وأراد عدم علمه بالعاقبة وكذلك من استثنى تعليقًا للأمر بمشيئة الله، لا شكًا في إيمانه. وهذا القول في القوة كما ترى.

قوله: «وجميع ما صح عن رسول الله ﷺ من الشرع والبيان كله حق» يشير الشيخ رحمه الله بذلك إلى الرد على الجهمية والمعطلة والمعتزلة والرافضة والقائلين بأن الأخبار قسمان: متواتر وأحاد، فالمتواتر - وإن كان قطعي السند - لكنه غير قطعي الدلالة فإن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين. ولهذا قدحوا في دلالة القرآن على الصفات. قالوا: والآحاد لا تفيد العلم، ولا يحتج بها من جهة طريقها، ولا من جهة متنها. فسدوا على القلوب معرفة الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله من جهة الرسول، وأحالوا الناس على قضايا وهمية ومقدمات خيالية، سموها قواطع عقلية، وبراهين يقينية. وهي في التحقيق ﴿كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩-٤٠]. ومن العجب أنهم قدموها على نصوص الوحي، وعزلوا لأجلها النصوص - فأقفرت قلوبهم من الإهتداء بالنصوص، ولم يظفروا بالعقول الصحيحة المؤيدة بالفطرة السليمة والنصوص النبوية ولو حكموا نصوص الوحي لفازوا بالمعقول الصحيح، الموافق للفطرة السليمة.

أهل البدع يعرضون النصوص على بدعهم

بل كل فريق من أرباب البدع يعرض النصوص على بدعته، وما ظنه

معقولاً، فما وافقه قال: إنه محكم، وقبله واحتج به. وما خالفه قال: إنه متشابه، ثم رده، وسمى رده تفويضًا أو حرفه وسمى تحريفه تأويلاً. فلذلك اشتد إنكار أهل السنة عليهم.

أهل السنة لا يعرضون عن النص الصحيح

وطريق أهل السنة: أن لا يعدلوا عن النص الصحيح، ولا يعارضوه بمعقول، ولا قول فلان، كما أشار إليه الشيخ رحمه الله. وكما قال البخارى رحمه الله: سمعت الحميدى يقول كنا عند الشافعى رحمه الله فأتاه رجل فسأله عن مسألة، فقال قضى فيها رسول الله ﷺ كذا وكذا، فقال رجل للشافعى: ما تقول أنت؟ فقال: سبحان الله. تراني في كنيسة. تراني في بيعة. تراني على وسطى زنار؟. أقول لك: قضى رسول الله ﷺ وأنت تقول: ما تقول أنت؟. ونظائر ذلك في كلام السلف كثيرة وقال تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ**﴾ [الأحزاب: ٣٦].

خبر الواحد يفيد العلم اليقيني

وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول، عملاً به وتصديقًا له – يفيد العلم اليقيني عند جماهير الأمة، وهو أحد قسمي المتواتر. ولم يكن بين سلف الأمة في ذلك نزاع. كخبر عمر بن الخطاب رضى الله عنه: «إنما الأعمال بالنيات»[1]، وخبر ابن عمر: «نهى عن بيع الولاء وهبته»[2]، وخبر أبي هريرة: «لا تنكح المرأة على عمتها ولا على خالتها»[3] وكقوله: «يحرم من الرَّضاع ما يحرم من النسب»[4]، وأمثال ذلك. وهو نظير خبر الذى أتى مسجد قباء وأخبر أن القبلة تحولت إلى الكعبة، فاستداروا إليها.

---

(١) الحديث رواه البخارى فى بدء الوحى وإيمان ٤١، ورواه مسلم فى الإمارة ١٥٥، وأبو داود فى الطلاق ١١، والترمذى فضائل الجهاد ١٦، والنسائى فى الطهارة ٥٩، وابن ماجه فى الزهد ٢٦، وأحمد بن حنبل ١٢٥١١، ٤٣.

(٢) الحديث رواه الدارمى فى الفرائض ٥٢.

(٣) الحديث رواه البخارى فى النكاح ٢٧، ومسلم فى النكاح ٣٧–٣٩، وأبو داود فى النكاح ١٢، والترمذى فى النكاح ٣٠، والنسائى فى النكاح ٤٧–٤٨، وابن ماجه فى النكاح ٣١، وأحمد بن حنبل فى مسنده ١–٢٨، ٢٧٢.

(٤) الحديث رواه البخارى فى الشهادات ٧، والنكاح ٢٠، ٢٧، ١١٧، ورواه مسلم فى الرضاع ١، ٢، ٩، ١٢، وأبو داود فى النكاح ٦، وابن ماجه فى النكاح ٣٤، والدارمى فى النكاح ٤٨، والموطأ فى الرضاع ١، ٢، ١٦، وأحمد بن حنبل ١–٢٧٦، ٢٩٠.

وكان رسول الله ﷺ يرسل رسله آحاداً، ويرسل كتبه مع الآحاد، ولم يكن المرسل إليهم يقولون لا نقبله لأنه خبر واحد. وقد قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ** ﴾ [التوبة: ٣٣]. فلا بد أن يحفظ الله حججه وبيناته على خلقه، لئلا يبطل حججه وبيناته.

ولهذا فضح الله من كذب على رسوله في حياته وبعد وفاته. وبين حاله للناس. قال سفيان بن عيينة[١]: ما ستر الله أحداً يكذب فى الحديث. وقال عبد الله بن المبارك: لو هم رجل فى البحر أن يكذب فى الحديث، لأصبح والناس يقولون: فلان كذاب. وخبر الواحد وإن كان يحتمل الصدق والكذب، ولكن التفريق بين صحيح الأخبار وسقيمها لا يناله أحد إلا بعد أن يكون معظم أوقاته مشتغلاً بالحديث، والبحث عن سير الرواة، وليقف على أحوالهم وأقوالهم، وشدة حذرهم من الطغيان والزلل، وكانوا بحيث لو قتلوا لم يسامحوا أحداً فى كلمة يتقولها على رسول الله ﷺ، ولا فعلوا هم بأنفسهم ذلك. وقد نقلوا هذا الدين إلينا كما نقل إليهم فهم ترك الإسلام وعصابة الإيمان، وهم نقاد الأخبار، وصيارفة الأحاديث. فإذا وقف المرء على هذا من شأنهم، وعرف حالهم، وخبر صدقهم وورعهم وأمانتهم، ظهر له العلم فيما نقلوه ورووه. ولمن له عقل ومعرفة يعلم أن أهل الحديث لهم (من) العلم بأحوال نبيهم وسيرته وأخباره، ما ليس لغيرهم به شعور، فضلاً أن يكون معلوماً لهم أو مظنوناً. كما أن النحاة عندهم من أخبار سيبويه والخليل وأقوالهما ما ليس عند غيرهم، وعند الأطباء من كلام بقراط وجالينوس ما ليس عند غيرهم، وكل ذى صنعة هو أخبر بها من غيره، فلو سألت البقال عن أمر العطر، أو العطار عن البز، ونحو ذلك. لعد ذلك جهلاً كبيراً.

---

(١) سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالى الكوفى أبو محمد، محدث الحرم المكى من الموالى. ولد بالكوفة سنة ١٠٧هـ، وتوفى بها عام ١٩٨هـ. كان حافظاً ثقة، واسع العلم كبير القدر، قال الشافعى: لولا مالك لذهب علم الحجاز، وكان أعور، وحج سبعين سنة له الجامع فى الحديث، وكتاب فى التفسير.

ولكن النفاة قد جعلوا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] مستندًا لهم في رد الأحاديث الصحيحة، فكلما جاءهم حديث يخالف قواعدهم وآراءهم، وما وضعته خواطرهم وأفكارهم ردوه بـ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، تلبسًا منهم وتلبيسًا على من هو أعمى قلبًا منهم وتحريفًا لمعنى الآى عن مواضعه. ففهموا من أخبار الصفات ما لم يرده الله ولا رسوله، ولا فهمه أحد من أئمة الإسلام، أنه يقتضي إثباتها التمثيل للمخلوقين. ثم استدلوا على بطلان ذلك بـ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ تحريفًا للنصين.. ويصنفون الكتب، ويقولون: هذا أصول دين الإسلام الذى أمر الله به وجاء من عنده ويقرأون كثيرًا من القرآن ويفوضون معناه إلى الله تعالى، من غير تدبر لمعناه الذى بينه الرسول، وأخبر أنه معناه الذى أراده الله. وقد ذم الله تعالى أهل الكتاب الأول على هذه الصفات الثلاث، وقص علينا ذلك من خبرهم، لنعتبر ونتزجر عن مثل طريقتهم، فقال تعالى: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، إلى أن قال: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ﴾ [البقرة: ٧٨] والأماني: التلاوة المجردة، ثم قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]. فذمهم على نسبة ما كتبوه إلى الله، وعلى اكتسابهم بذلك، فكلا الوصفين ذميم: أن ينسب إلى الله ما ليس من عنده، وأن يأخذ بذلك عوضًا من الدنيا مالاً ورياسة، نسأل الله تعالى أن يعصمنا من الزلل، فى القول والعمل، بمنه وكرمه.

السنة نوعان

ويشير الشيخ رحمه الله بقوله: «من الشرع والبيان» إلى أن ما صح عن النبى ﷺ نوعان: شرع ابتدائى، وبيان لما شرعه الله فى كتابه العزيز، وجميع ذلك حق واجب الاتباع. وقوله: «وأهله فى أصله سواء، والتفاضل بينهم بالحقيقة

ومخالفة الهوى، وملازمة الأولى». وفي بعض النسخ «بالخشية والتقى» بدل قوله «بالحقيقة» ففي العبارة الأولى يشير إلى أن الكل مشتركون في أصل التصديق ولكن التدين يكون بعضه أقوى من بعض وأثبت، كما تقدم نظيره بقوة البصر وضعفه. وفي العبارة الأخرى يشير إلى أن التفاوت بين المؤمنين بأعمال القلوب، أما التصديق فلا تفاوت فيه، والمعنى الأول أظهر قوة والله أعلم بالصواب.

المؤمنون أولياء الرحمن

قوله: «والمؤمنون كلهم أولياء الرحمن».

ش: قال تعالى: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، الآية. الولي: من (الولاية) بفتح الواو، التي هي ضد العداوة. وقد قرأ حمزة: ﴿ **مَا لَكُم مِّن وِلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ** ﴾ [الأنفال: ٧٢]، بكسر الواو، والباقون بفتحها. وقيل: هما لغتان. وقيل: بالفتح النصرة وبالكسر الإمارة. قال الزجاج[1]: وجاز الكسر، لأن في تولي بعض القوم بعضًا جنسًا من الصناعة والعمل وكل ما كان كذلك مكسور، مثل (الخياطة) ونحوها. فالمؤمنون أولياء الله، والله تعالى وليهم، قال الله تعالى: ﴿ **اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ** ﴾ [البقرة: ٢٥٧] الآية وقال تعالى: ﴿ **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ** ﴾ [محمد: ١١]. ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [التوبة: ٧١]، الآية. وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ** ﴾ [الأنفال: ٧١]، إلى آخر السورة. وقال: ﴿ **إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ**

---

(١) هو إبراهيم بن السرى بن سهيل، أبو إسحاق الزجاج، عالم بالنحو واللغة، ولد عام ٢٤١هـ ببغداد، وكان في فتوته يخرط الزجاج. ومال إلى النحو فعلمه المبرد وطلب المعتضد العباسي مؤدبًا لابنه القاسم فدله المبرد على الزجاج، أصاب ثروة كبيرة، من كتبه: معاني القرآن، وخلق الإنسان... وغير ذلك كثير، توفي عام ٣١١هـ ببغداد. (تذكر الحفاظ ٢: ٨٩).

وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٥-٥٦]. فهذه النصوص كلها ثبت فيها موالاة بعضهم لبعض، وأنهم أولياء الله، وأن الله وليهم ومولاهم، فالله يتولى عباده المؤمنين، فيحبهم ويحبونه، ويرضى عنهم ويرضون عنه، ومن عادى له وليًا فقد بارزه بالمحاربة. وهذه الولاية من رحمته وإحسانه. ليس كولاية المخلوق للمخلوق لحاجته إليه. قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ [الإسراء: ١١١]. فالله تعالى ليس له ولي من الذل، بل لله العزة جميعًا، خلاف الملوك وغيرهم ممن يتولاه لذله وحاجته إلى ولي ينصره.

معنى الولاية

والولاية أيضًا نظير الإيمان، فيكون مراد الشيخ: أن أهلها في أصلها سواء، وتكون كاملة وناقصة فالكاملة تكون للمؤمنين المتقين، كما قال تعالى: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤] فـ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ منصوب على أنه صفة ﴿أَوْلِيَاءَ اللَّهِ﴾، أو بدل منه، أو بإضمار مدح، أو مرفوع بإضمار (هم) أو خبر ثان لـ(إن)، وأجيز فيه الجر، بدلاً من ضمير (عليهم). وعلى هذه الوجوه كلها فالولاية لمن كان من الذين آمنوا وكانوا يتقون، وهم أهل الوعد المذكور في الآيات الثلاث. وهي عبارة عن موافقة الولي الحميد في محابه ومساخطه، وليست بكثرة صوم ولا صلاة، ولا تملق ولا رياضة. وقيل (الذين آمنوا) مبتدأ، والخبر «لهم البشرى»، وهو بعيد، لقطع الجملة مما قبلها، وانتشار نظم الآية.

وتجتمع في المؤمن ولاية من وجه، وعداوة من وجه، كما قد يكون فيه كفر وإيمان، وشرك وتوحيد، وتقوى وفجور، ونفاق وإيمان، وإن كان في هذا الأصل نزاع لفظي بين أهل السنة ونزاع معنوي بينهم وبين أهل البدع، كما تقدم في

الإيمان. ولكن موافقة الشارع في اللفظ والمعنى - أولى من موافقته في المعنى وحده، قال تعالى: ﴿ **وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلاَّ وَهُم مُّشْرِكُونَ** ﴾ [يوسف: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿ **قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا** ﴾ [الحجرات: ١٤]، الآية، وقد تقدم الكلام على هذه الآية، وأنهم ليسوا منافقين على أصح القولين. وقال ﷺ: «أربعٌ من كنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصلةٌ منهن كانت فيه خَصلةٌ من النفاق حتى يدعَها: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا خاصم فجر»[1]. وفي رواية: «وإذا ائتمن خان». بدل «وإذا وعد أخلف». أخرجاه في الصحيحين. وحديث «شعب الإيمان» تقدم. وقوله ﷺ: «يخرجُ من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»[2]. فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل القليل لم يخلد في النار، وإن كان معه كثير من النفاق، فهو يعذب في النار على قدر ما معه من ذلك، ثم يخرج من النار فالطاعات من شعب الإيمان، والمعاصي من شعب الكفر، وإن كان رأس شعب الكفر الجحود، ورأس شعب الإيمان التصديق. وأما ما يروى مرفوعًا إلى النبي ﷺ أنه قال: «ما من جماعة اجتمعت إلا وفيهم ولي الله، لا هم يدرون به، ولا هو يدري بنفسه»، فلا أصل له، وهو كلام باطل، فإن الجماعة قد يكونون كفارًا، وقد يكونون فساقًا يموتون على الفسق، وأما أولياء الله الكاملون فهم الموصوفون في قوله تعالى: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ** ﴾ [يونس: ٦٢-٦٤]. الآية. والتقوى هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿ **وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ** ﴾. إلى قوله: ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾ [البقرة: ١٧٧] وهم قسمان: مقتصدون، ومقربون. فالمتقصدون: الذين يتقربون إلى الله بالفرائض من أعمال القلوب والجوارح. والسابقون: الذين

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

(٢) الحديث رواه مسلم في كتاب الإيمان باب: تحريم الكبر وبيانه، بلفظ: «لا يدخل النار أحد في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان»، ورواه ابن ماجه في المقدمة باب في حبة من خردل من إيمان. ورواه البخاري في إيمان ١٥، رقاق ٣٥، ٥١. وفي الفتن ١٣، ورواه الدارمي في المقدمة ٤٨.

يتقربون إلى الله بالنوافل بعد الفرائض. كما في صحيح البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من عادى لى وليا فقد بارزنى بالمحاربة، وما تقربَ إلىّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل. حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنت سمعه الذين يسمع به. وبصره الذى يُبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينّه، ولئن استعاذنى لأعيذنّه، وما ترددت عن شىء أنا فاعله ترددى عن قبض نفس عبدى المؤمن. يكره الموتَ وأكره مساءته»[1]. والولى: خلاف العدو، وهو مشتق من الولاء. وهو الدنو والتقرب، فولى الله: هو من والى الله بموافقته فى محبوباته، والتقرب إليه بمرضاته. وهؤلاء كما قال الله تعالى فيهم: ﴿ **ومَن يَتقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * ويَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]. قال أبو ذر رضى الله عنه: «لما نزلت هذه الآية، قال النبى ﷺ: يا أبا ذر، لو عمل الناس بهذه الآية لكفتهم»[2] فالمتقون يجعل الله لهم مخرجًا مما ضاق على الناس، ويرزقهم من حيث لا يحتسبون فيدفع الله عنهم المضار. ويجلب لهم المنافع، ويعطيهم الله أشياء يطول شرحها، من المكاشفات والتأثيرات.

أكرم المؤمنين أتبعهم للقرآن

قوله: «وأكرمهم عند الله أطوعهم وأتبعهم للقرآن».

ش: أراد أكرم المؤمنين هو الأطوع لله، والأتبع للقرآن، وهو الأتقى. والأتقى هو الأكرم قال تعالى: ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ [الحجرات: ١٣]. وفى السنن عن النبى ﷺ أنه قال: «لا فضلَ لعربىٍّ على عجمىٍّ، ولا عجمىٍّ على عربىٍّ، ولا لأبيض على أسودَ، ولا لأسودَ على أبيض، إلا بالتقوى، الناسُ من آدمَ

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الرقاق ٣٨، ورواه أحمد بن حنبل فى مسنده ٢٥٦، ولفظه عند البخارى – هو لفظ الشارح.

(٢) الحديث رواه ابن ماجه فى الزهد باب ٢٤ الورع والتقوى رقم ٤٢٢٠، عن أبى ذر رضى الله عنه. وفى الزوائد: هذا الحديث رجاله ثقات غير أنه منقطع وأبو السليل لم يدرك أبا ذر، قال فى التهذيب.

وآدمُ من تراب »[1] . وبهذا الدليل يظهر ضعف تنازعهم فى مسألة الفقير الصابر والغنى الشاكر، وترجيح أحدهما على الآخر، وأن التحقيق أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال والحقائق، فالمسألة فاسدة فى نفسها . فإن التفضيل عند الله بالتقوى وحقائق الإيمان، لا بفقر ولا غنى، ولهذا – والله أعلم – قال عمر رضى الله عنه : الغنى والفقر مطيتان، لا أبالى أيهما ركبت . والفقر والغنى ابتلاء من الله تعالى لعبده، كما قال تعالى : ﴿ **فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ** ﴾ [الفجر : ١٥]، الآية . فإن استويا الفقير الابر والغنى الشاكر – فى التقوى . استويا فى الدرجة، وإن فضل أحدهما فيها فهو الأفضل عند الله فإن الفقر والغنى لا يوزنان وإنما يوزن الصبر والشكر . ومنهم من أحال المسألة من وجه آخر : وهو أن الإيمان نصف صبر ونصف شكر، فكل منهما لا بد له من صبر وشكر . وإنما أخذ الناس فرعًا من الصبر وفرعًا من الشكر، وأخذوا فى الترجيح، فجردوا غنيًا منفقًا متصدقًا باذلاً ماله فى وجوه القرب شاكرًا لله عليه وفقيرًا متفرغًا لطاعة الله ولأداء العبادات صابرًا على فقره . وحينئذ يقال : إن أكملهما أطوعهما وأتبعهما، فإن تساوت درجتهما . والله أعلم . ولو صح التجريد، لصح أن يقال : أيما أفضل، معافى شاكر، أو مريض صابر، أو مطاع شاكر، أو مهان صابر، أو آمن شاكر، أو خائف صابر؟ ونحو ذلك .

أركان الإيمان

قوله : « والإيمان : هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله تعالى » .

ش : تقدم أن هذه الخصال هى أصول الدين، وبها أجاب النبى ﷺ فى حديث جبرائيل المشهور المتفق على صحته، حين جاء إلى النبى ﷺ على صورة رجل أعرابى، وسأله عن الإسلام؟ فقال : « أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً

---

(١) الحديث رواه الترمذى فى التفسير سورة ٤٩ . مناقب ٧٣، ورواه أبو داود فى الأدب ١١١، وأحمد بن حنبل فى المسند ٢–٣٦١، ٥٢٤ بتغير فى الألفاظ : « والناس بنو آدم وخلق الله آدم من تراب » .

رسول الله وتقيم الصلاة، وتؤتى الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً». وسأله عن الإيمان؟ فقال: «أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه ورسله واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر، خيره وشره» وسأله عن الإحسان؟ فقال: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»(١). وقد ثبت كذلك في الصحيح عنه ﷺ: أنه كان يقرأ في ركعتي الفجر تارة بسورتي الإخلاص: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ**﴾، و﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾. وتارة بآيتي الإيمان والإسلام: التي في سورة البقرة: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا**﴾ [البقرة: ١٣٦]، الآية، والتي في آل عمران: ﴿**قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ**﴾ [آل عمران: ٦٤]، الآية، وفسر ﷺ الإيمان في حديث وفد عبد القيس، المتفق على صحته حيث قال لهم: «آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله وحده؟ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم»(٢). ومعلوم أنه لم يرد أن هذه الأعمال تكون إيمانًا بالله بدون إيمان القلب لما قد أخبر في غير موضع أنه لا بد من إيمان القلب. فعلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان، وقد تقدم الكلام على هذا.

حكم الإيمان لا يثبت إلا بالعمل مع التصديق

والكتاب والسنة مملوءان مما يدل على أن الرجل لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق وهذا أكثر من معنى الصلاة والزكاة، فإن تلك إنما فسرتها السنة، والإيمان بين معناه الكتاب والسنة فمن الكتاب قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ**﴾ [الأنفال: ٢] الآية وقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا**﴾ [الحجرات: ١٥] الآية،

---

(١) الحديث رواه البخاري في إيمان ٣٧، ومسلم إيمان ١، ٥، ٧، وأبو داود في السنة ١٦، والترمذي إيمان ٤، والنسائي إيمان ٥، ٦، وابن ماجه في المقدمة ٩، وأحمد بن حنبل ٢-١٠٧، ١٣٢.

(٢) سبق تخريج هذا الحديث.

وقوله تعالى: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥] فنفى الإيمان حتى توجد هذه الغاية - دل على أن هذه الغاية فرض على الناس فمن تركها كان من أهل الوعيد ولم يكن قد أتى بالإيمان الواجب، الذى وعد أهله بدخول الجنة بلا عذاب. ولا يقال: إن بين تفسير النبى ﷺ الإيمان فى حديث جبرائيل وتفسيره إياه فى حديث وفد عبد القيس معارضة، لانه فسر الإيمان فى حديث جبرائيل بعد تفسير الإسلام، فكان المعنى أنه الإيمان بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر مع الأعمال التى ذكرها فى تفسير الإسلام، كما أن الإحسان متضمن للإيمان الذى قدم تفسيره قبل ذكره بخلاف حديث وفد عبد القيس، لأنه فسره ابتداء، ولم يتقدم قبله تفسير الإسلام. ولكن هذا الجواب لايتأتى على ما ذكره الشيخ رحمه الله من تفسير الإيمان. فحديث وفد عبد القيس مشكل عليه.

ومما يسأل عنه: أنه إذا كان ما أوجبه الله من الأعمال الظاهرة أكثر من الخصال الخمس التى أجاب بها النبى ﷺ فى حديث جبرائيل المذكور، فلما قال: إن الإسلام هذه الخصال الخمس؛ وقد أجاب بعض الناس بان هذه أظهر شعائر الإسلام وأعظمها، وبقيامه [بها] يتم استسلامه وتركه لها يشعر بانحلال قيد انقياده. والتحقيق: أن النبى ﷺ ذكر الدين الذى هو استسلام العبد لربه مطلقاً، الذى يجب لله على عباده محضه على الأعيان، فيجب على كل من كان قادرًا عليه. ليعبد الله مخلصًا له الدين وهذه هى الخمس وما سوى ذلك فإنما يجب بأسباب مصالح، فلا يعم وجوبها جميع الناس، بل إما أن يكون فرضًا على الكفاية، كالجهاد، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وما يتبع ذلك من إمارة، وحكم وفتيا، واقراء، وتحديث وغير ذلك. وأما ما يجب بسبب حق الآدميين، فيختص به من وجب له وعليه، وقد يسقط بإسقاطه، من قضاء الديون، ورد الأمانات والغصوب، والانصاف من المظالم ومن الدماء والأموال والأعراض، وحقوق الزوجة والأولاد، وصلة الأرحام ونحو ذلك، فإن الواجب من ذلك على زيد غير الواجب على عمرو. بخلاف صوم رمضان وحج البيت والصلوات

الخمس والزكاة، فإن الزكاة وإن كانت حقًا ماليًا فإنها واجبة لله، والأصناف الثمانية مصارفها. ولهذا وجبت فيها النية، ولم يجز أن يفعلها الغير بلا إذنه، ولم تطلب من الكفار، وحقوق العباد لا يشترط لها النية، ولو أداها غيره عنه بغير إذنه برئت ذمته، ويطالب بها الكفار. وما يجب حقًا لله تعالى، كالكفارات، هو بسبب من العبد، وفيها معنى العقوبة، ولهذا كان التكليف شرطًا في الزكاة، فلا تجب على الصغير والمجنون عند أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله تعالى لما عرف في موضعه.

الإيمان بالقدر خيره وشره

وقوله «والقدر خيره وشره، وحلوه ومره، من الله تعالى»، تقدم قوله ﷺ في حديث جبرائيل: «وتؤمن بالقدر خيره وشره»، وقال تعالى: ﴿ **قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا** ﴾ [التوبة: ٥١]. وقال تعالى: ﴿ **وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا** ﴾ [النساء: ٧٨]. ﴿ **مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ [النساء: ٧٩]، الآية.

فإن قيل: كيف وجه الجمع بين قوله «كل من عند الله» وبين قوله «فمن نفسك»؟ قيل: قوله «كل من عند الله»: الخصب والجدب، والنصر والهزيمة، كلها من عند الله، وقوله «فمن نفسك»: أي ما أصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ** ﴾ [الشورى: ٣٠]. يدل على ذلك ما روى عن ابن عباس رضي الله عنه: أنه قرأ: «وما أصابك من سيئة فمن نفسك» وأنا كتبتها عليك. والمراد بالحسنة هنا النعمة، وبالسيئة البلية في أصح الأقوال وقد قيل الحسنة الطاعة والسيئة المعصية. (وقيل: الحسنة ما أصابه يوم بدر، والسيئة ما أصابه يوم أحد). والقول الأول شامل لمعنى القول الثالث. والمعنى الثاني ليس مرادًا دون الأول قطعًا، ولكن لا منافاة بين أن تكون سيئة العمل وسيئة الجزاء من نفسه، مع

أن الجميع مقدر، فإن المعصية الثانية قد تكون، عقوبة الأولى، فتكون من سيئات الجزاء، مع أنها من سيئات العمل، والحسنة الثانية قد تكون من ثواب الأولى، كما دل على ذلك الكتاب والسنة. وليس للقدرية أن يحتجوا بقوله تعالى: ﴿ **فمن نَّفْسك** ﴾. فإنهم يقولون: إن فعل العبد - حسنة كان أو سيئة - فهو منه لا من الله. والقرآن قد فرق بينهما، وهم لا يفرقون، ولأنه قال تعالى: ﴿ **قُلْ كُلٌّ مِّنْ عند الله** ﴾ [النساء: ٧٨] فجعل الحسنات من عند الله كما جعل السيئات من عند الله، وهم لا يقولون بذلك في الأعمال بل في الجزاء. وقوله بعد هذا «ما أصابك من حسنة» «ومن سيئة»، مثل قوله «وإن تُصيبهم حسنة» و«وإن تصبهم سيئةٌ». وفرق سبحانه وتعالى بين الحسنة التي هي النعم، وبين السيئات التي هي المصائب، فجعل هذه من الله، وهذه من نفس الإنسان، لأن الحسنة مضافة إلى الله، إذ هو أحسن بها من كل وجه، فما وجه من أوجهها إلا وهو يقتضي الإضافة إليه، وأما السيئة، فهو إنما يخلقها لحكمة وهي باعتبار تلك الحكمة من إحسانه، فإن الرب لا يفعل سيئة قط، بل فعله كله حسن وخير.

ولهذا كان النبي ﷺ يقول في الاستفتاح: «والخير كله بيديك، والشر ليس إليك»[1] أي: فإنك لا تخلق شراً محضاً، بل كله ما يخلقه ففيه حكمة، هو باعتبارها خير، ولكن قد يكون فيه شر لبعض الناس، فهذا شر جزئي إضافي، فإما شر كلي، أو شر مطلق، فالرب سبحانه وتعالى منزه عنه. وهذا هو الشر الذي ليس إليه، ولهذا لا يضاف الشر إليه مفرداً قط، بل إما أن يدخل في عموم المخلوقات، كقوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [الرعد: ١٦]، ﴿ **كُلٌّ مِّنْ عند الله** ﴾ [النساء: ٧٨]، وإما أن يضاف إلى السبب، كقوله: ﴿ **من شَرِّ مَا خَلَقَ** ﴾ [الفلق: ٢]، وإما أن يحذف فاعله، كقول الجن: ﴿ **وَأَنَّا لا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا** ﴾ [الجن: ١٠]. وليس إذا خلق ما يتأذى به بعض الحيوان لا يكون فيه حكمة، بل لله من الرحمة والحكمة ما لا يقدره قدره

(١) الحديث رواه البخاري في الأنبياء ٧، ورقاق ٤٦، ومسلم في المسافرين ٢٠١، والحج ١٩-٢١، وأبو داود في المناسك ٢٦، والنسائي في الافتتاح ١٧، وابن ماجه في المناسك ١٥.

إلا الله تعالى، وليس إذا وقع في المخلوقات ما هو شر جزئي بالإضافة – يكون شرًا كليا عامًا، بل الأمور العامة الكلية لا تكون إلا خيرًا أو مصلحة للعباد، كالمطر العام، وكإرساله رسولاً عامًا. وهذا مما يقتضي أنه لا يجوز أن يؤيد كذابًا عليه بالمعجزات التي أيد بها الصادقين، فإن هذا شر عام للناس، يضلهم، فيفسد عليهم دينهم ودنياهم وأخراهم. وليس هذا كالملك الظالم والعدو فإن الملك الظالم لا بد أن يدفع الله به من الشر أكثر من ظلمه، وقد قيل: ستون سنة بإمام ظالم خير من ليلة واحدة بلا إمام، وإذا قدر كثرة ظلمه، فذاك خير في الدين، كالمصائب، تكون كفارة لذنوبهم، ويثابون على الصبر عليه، ويرجعون فيه إلى الله، ويستغفرونه ويتوبون إليه وكذلك ما يسلط عليهم من العدوان. ولهذا قد يمكن الله كثيرًا من الملوك الظالمين مدة، وأما المتنبئون الكذابون فلا يطيل تمكينهم، بل لا بد أن يهلكهم، لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ** ﴾ [الحاقة: ٤٤، ٤٥، ٤٦].

وفي قوله (فمن نفسك)، من الفوائد: أن العبد لا يطمئن إلى نفسه ولا يسكن إليها، فإن ذلك الشر كامن فيها، لا يجيء إلا منها، ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمهم إذا أساءوا إليه، فإن ذلك من السيئات التي أصابته، وهي إنما أصابته بذنوبه، فيرجع إلى الذنوب، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله، ويسأل الله أن يعينه على طاعته .فبذلك يحصل له كل خير ويندفع عنه كل شر.

أنفع الدعاء وأعظمه

ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمه وأحكمه دعاء الفاتحة «اهدنا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعمت عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضالين». فإنه إذا هداه هذا الصراط أعانه على طاعته وترك معصيته، فلم يصبه شر، لا في الدنيا ولا في الآخرة. لكن الذنوب هي لوازم نفس الإنسان وهو محتاج إلى الهدى كل لحظة، وهو إلى الهدى أحوج منه إلى الطعام والشراب وليس كما يقول بعض المفسرين: إنه قد هداه، فلماذا يسأل الهدى؟ وأن المراد التثبيت،

أو مزيد الهداية. بل العبد محتاج إلى أن يعلمه الله ما يفعله من تفاصيل أحواله، وإلى ما يتركه من تفاصيل الأمور فى كل يوم، وإلى أن يلهمه أن يعمل ذلك. فإنه لا يكفى مجرد علمه إن لم يجعله مريداً للعمل بما يعلمه، وإلا كان العلم حجة عليه، ولم يكن مهتديًا. ومحتاجًا إلى أن يجعله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة، فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم، وما لا نريد فعله تهاونًا وكسلاً مثل ما نريده أو أكثر منه أو دونه، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك، وما نعرف جملته ولا نهتدى لتفاصيله فأمر يفوت الحصر. ونحن محتاجون إلى الهداية التامة فمن كملت له هذه الأمور كان سؤاله سؤال تثبيت، وهى آخر الرتب. وبعد ذلك كله هداية أخرى، وهى الهداية إلى طريق الجنة فى الآخرة. ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء فى كل صلاة، لفرط حاجتهم إليه، فليسوا إلى شيء أحوج منهم إلى هذا الدعاء. فيجب أن يعلم أن الله بفضل رحمته جعل هذا الدعاء من أعظم الأسباب المقتضية للخير، المانعة من الشر، فقد بين القرآن أن السيئات من النفس، وإن كانت بقدر الله، وأن الحسنات كلها من الله تعالى. وإذا كان الأمر كذلك وجب أن يشكر سبحانه، وأن يستغفره العبد من ذنوبه، وألا يتوكل إلا عليه وحده فلا يأتى بالحسنات إلا هو. فأوجب ذلك توحيده، والتوكل عليه وحده، والشكر له وحده، والاستغفار من الذنوب.

تحقيق توحيد الربوبية والألوهية

وهذه الأمور كان النبى ﷺ يجمعها فى الصلاة، كما ثبت عنه فى الصحيح: «أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: ربنا لك الحمدُ، حمداً كثيراً طيبًا مباركًا فيه، ملء السموات والأرض، وملء ما شئتَ من شيء بعد أهل الثناء والمجد، أحق ما قال العبد، وكلنا لك عبد»[1]، فهذا حمد، وهو شكر لله تعالى، وبيان أن حمده أحق ما قاله العبد، ثم يقول بعد ذلك: «لا مانع لما أعطيتَ، ولا مُعطى لما منعتَ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد». وهذا تحقيق لوحدانيته، لتوحيد

---

(١) الحديث رواه البخارى لكن ليس من فعله - ﷺ، بل إنه سمع رجلاً يقول ذلك فقال ﷺ: «لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكًا يبتدرونها أيهم يكتبها أولاً». (متفق عليه).

الربوبية خلقًا وقدرًا، وبدايةً ونهايةً، وهو المعطى المانع، لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع، وتوحيد الألوهية، شرعًا وأمرًا ونهيًا، وأن العباد وإن كانوا يعطون جدًا، ملكًا، وعظمة وبختًا ورياسة، فى الظاهر، أو فى الباطن، كأصحاب المكاشفات والتصرفات الخارقة، فلا ينفع ذا الجد منك الجد؛ أى لا ينجيه ولا يخلصه، ولهذا قال لا ينفعه منك ولم يقل ولا ينفعه عندك، لأنه لو قيل ذلك أوهم أنه لا يتقرب به إليك، لكن قد لا يضره. فتضمن هذا الكلام تحقيق التوحيد، أو تحقيق قوله: «إياك نعبدُ وإياك نستعين»، فإنه لو قدر أن شيئًا من الأسباب يكون مستقلاً بالمطلوب، وإنما يكون بمشيئة الله وتيسيره، لكان الواجب ألا يرجى إلا الله، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يسأل إلا هو، ولا يستغاث إلا به، ولا يستعان إلا به هو، فله الحمد، وإليه المشتكى، وهو المستعان، وبه المستغاث، ولا حول ولا قوة إلا بالله. فكيف وليس [شىء] من الأسباب مستقلاً بمطلوب، بل لا بد من انضمام أسباب أخر إليه، ولا بد أيضًا من صرف الموانع والمعارضات عنه، حتى يحصل المقصود، فكل سبب له شريك، وله ضد، فإذا لم يعاونه شريكه، ولم ينصرف عنه ضده، لم تحصل مشيئته، فالمطر وحده لا ينبت النبات إلا بما ينضم إليه من الهواء والتراب وغير ذلك، ثم الزرع لا يتم حتى تصرف عنه الآفات المفسدة له، والطعام والشراب لا يغذى إلا بما جعل فى البدن من الأعضاء والقوى، ومجموع ذلك لا يفيد إن لم تصرف عنه المفسدات.

والمخلوق الذى يعطيك أو ينصرك، فهو - مع أن الله يجعل فيه الإرادة والقوة والفعل - فلا يتم ما يفعله إلا بأسباب كثيرة، خارجة عن قدرته. تعاونه على مطلوبه، ولو كان ملكًا مطاعًا، ولا بد أن يصرف عن الأسباب المتعاونة ما يعارضها ويمانعها، فلا يتم المطلوب إلا بوجود المقتضى وعدم المانع.

وكل سبب معين فإنما هو جزء من المقتضى، فليس فى الوجود شىء واحد مقتضى تام، وإن سمى مقتضيًا، وسمى سائر ما يعنيه شروطًا - فهذا نزاع لفظى. وإما أن يكون فى المخلوقات علة تامة تستلزم معلولها فهذا باطل.

ومن عرف هذا حق المعرفة انفتح له باب توحيد الله، وعلم أنه لا يستحق أن يسأل غيره فضلاً عن أن يعبد غيره، ولا يتوكل على غيره، ولا يرجى غيره.

قوله: «ونحن مؤمنون بذلك كله، لا نفرق بين أحد من رسله ونصدقهم كلهم على ما جاءوا به».

ش: الإشارة بذلك إلى ما تقدم، مما يجب الإيمان به تفصيلاً، وقوله: «لا نفرق بين أحد من رسله» إلى آخر كلامه، أى: لا نفرق بينهم بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض، بل نؤمن بهم ونصدقهم كلهم، فإن من آمن ببعض وكفر ببعض، كافر بالكل. قال تعالى: ﴿ **وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا** ﴾ [النساء: ١٥٠-١٥١]. فإن المعنى الذى لأجله آمن بمن آمن (به) منهم - موجود فى الذى لم يؤمنوا به، وذلك الرسول الذى آمن به جاء بتصديق بقية المرسلين. فإذا لم يؤمن ببعض المرسلين كان كافرًا بمن فى زعمه أنه يؤمن به، لأن ذلك الرسول قد جاء بتصديق المرسلين كلهم، فكان كافرًا حقًا، وهو يظن أنه مؤمن. فكان من الأخسرين أعمالاً، الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا.

أهل الكبائر من أمة الرسول عليه الصلاة والسلام

قوله: «وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ فى النار لا يخلدون، إذا ماتوا وهم موحدون، وإن لم يكونوا تائبين، بعد أن لقوا الله عارفين. وهم فى مشيئته وحكمه. إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله، كما ذكر عز وجل فى كتابه: (ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) وإن شاء عذبهم فى النار بعدله، ثم يخرجهم منها برحمته، وشفاعة الشافعين من أهل طاعته، ثم يبعثهم إلى جنته. ذلك بأن الله تعالى مولى[١] أهل معرفته، ولم يجعلهم فى الدارين كأهل نكرته، الذين خابوا من هدايته ولم ينالوا من ولايته. اللهم يا ولى الإسلام وأهله، ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به».

ش: فقوله: «وأهل الكبائر من أمة محمد ﷺ فى النار لا يخلدون، إذا ماتوا وهم موحدون» - رد لقول الخوارج والمعتزلة، القائلين بتخليد أهل الكبائر فى النار. لكن الخوارج يقولون بتكفيرهم، والمعتزلة بخروجهم من[٢] الإيمان لا

(١) فى ب: تولى.

(٢) فى ب: عن.

بدخولهم فى الكفر، بل لهم منزلة بين منزلتين، كما تقدم عند الكلام على قول الشيخ رحمه الله: «ولا نكفر أحداً من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله».

وقوله: «وأهل الكبائر من أمة محمد»، تخصيصه أمة محمد، يفهم منه أن أهل الكبائر من أمة غير محمد ﷺ قبل نسخ تلك الشرائع، حكمهم مخالف لأهل الكبائر من أمة محمد. وفى ذاك نظر، فإن النبى ﷺ أخبر أنه «يخرج من النار من كان فى قلبه مثقالُ ذرةٍ من إيمان»[1]. ولم يخص أمته بذلك، بل ذكر الإيمان مطلقًا، فتأمله. وليس فى بعض النسخ ذكر الأمة. وقوله «فى النار» معمول لقوله: «لا يخلدون» وإنما قدمه لأجل السجعة، لا أن يكون «فى النار» خبر لقوله «وأهل الكبائر» كما ظنه بعض الشارحين.

الكبائر والصغائر

واختلف العلماء فى الكبائر على أقوال: فقيل: سبعة، وقيل: سبعة عشر. وقيل: ما اتفقت الشرائع على تحريمه. وقيل: ما يسد باب المعرفة بالله. وقيل: ذهاب الأموال والأبدان وقيل: سميت (كبائر) بالنسبة والإضافة إلى ما دونها. وقيل: لا تعلم أصلاً. أو: أنها أخفيت كليلة القدر. وقيل: إنها إلى السبعين أقرب، وقيل: كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقيل: إنها ما يترتب عليها حد أو توعد عليها بالنار، أو اللعنة، أو الغضب. وهذا أمثل الأقوال. واختلفتْ عبارات السلف فى تعريف الصغائر: منهم من قال: الصغيرة ما دون الحدين: حد الدنيا وحد الآخرة، ومنهم من قال: كل ذنب لم يختم بلعنة أو غضب أو نار. ومنهم من قال: الصغيرة ما ليس فيها حد فى الدنيا ولا وعيد فى الآخرة، والمراد بالوعيد: الوعيد الخاص بالنار أو اللعنة أو الغضب، فإن الوعيد الخاص فى الآخرة كالعقوبة الخاصة فى الدنيا، أعنى المقدرة، فالتعزيز فى الدنيا نظير الوعيد بغير النار أو اللعنة أو الغضب وهذا الضابط يسلم من القوادح الواردة على غيره، فإنه

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم فى كتاب الإيمان، ورواه الإمام أحمد فى مسنده: ٣-١٧، ٢٠، ٢٥، ٤٢، ورواه البخارى فى الرقاق ٥١، والترمذى باب صفة جهنم برقم ٢٧٢٥ ولفظه عن أبى سعيد الخدرى: يخرج من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من الإيمان ٢٢.

يدخل فيه كل ما يثبت بالنص أنه كبيرة، كالشرك، والقتل، والزنا، والسحر، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات، ونحو ذلك، كالفرار من الزحف، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، وعقوق الوالدين، واليمين الغموس وشهادة الزور، وأمثال ذلك.

وترجيح هذا القول من وجوه: أحدها: أنه هو المأثور عن السلف، كابن عباس، وابن عيينة، وابن حنبل، وغيرهم.

الثاني: أن الله تعالى قال: ﴿ **إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا** ﴾ [النساء: ٣١]. فلا يستحق هذا الوعد الكريم من أوعد بغضب الله ولعنته وناره، وكذلك من استحق أن يقام عليه الحد لم تكن سيئاته مكفرة عنه باجتناب الكبائر. الثالث: أن هذا الضابط مرجعه إلى ما ذكره الله ورسوله من الذنوب، فهو حد متلقى من خطاب الشارع. الرابع: أن هذا الضابط يمكن الفرق به بين الكبائر والصغائر بخلاف تلك الأقوال، فإن من قال: سبع أو سبعة عشر، أو إلى السبعين أقرب، مجرد دعوى، ومن قال: ما اتفقت الشرائع على تحريمه دون ما اختلفت فيه، يقتضي أن شرب الخمر، والفرار من الزحف، والتزوج ببعض المحارم، والمحرم بالرضاعة والصهرية، ونحو ذلك – ليس من الكبائر. وأن الحبة من مال اليتيم، والسرقة لها، والكذبة الواحدة الخفيفة، ونحو ذلك، من الكبائر وهذا فاسد. ومن قال: ما سد باب المعرفة بالله أو ذهاب الأموال والأبدان، يقتضي أن شرب الخمر وأكل الخنزير والميتة والدم، وقذف المحصنات ليس من الكبائر. وهذا فاسد. ومن قال: إنها سميت كبائر بالنسبة إلى ما دونها، أو كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة، يقتضي أن الذنوب في نفسها لا تنقسم إلى صغائر وكبائر. وهذا فاسد، لأنه خلاف النصوص الدالة على تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر. ومن قال إنها لا تعلم أصلاً، أو أنها مبهمة، فإنما أخبر عن نفسه أنه لا يعلمها، فلا يمنع أن يكون قد علمها غيره. والله أعلم.

وقوله: «وإن لم يكونوا تائبين»، لأن التوبة لا خلاف أنها تمحو الذنوب، وإنما الخلاف في غير التائب. وقوله: «بعد أن لقوا الله تعالى عارفين»، لو قال «مؤمنين» بدل قوله (عارفين)، كان أولى، لأن من عرف الله ولم يؤمن به فهو كافر. وإنما اكتفى بالمعرفة وحدها [الجهم]، وقوله مردود باطل، كما تقدم. فإن إبليس عارف بربه: ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [الحجر: ٣٦]. ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]. وكذلك فرعون وأكثر الكافرين. قال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥]. ﴿ قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٥] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على هذا المعنى. وكأن الشيخ رحمه الله أراد المعرفة الكاملة المستلزمة للاهتداء التي يشير إليها أهل الطريقة، وحاشا أولئك أن يكونوا من أهل الكبائر، بل هم سادات الناس وخاصتهم.

وقوله «وهم في مشيئة الله وحكمه، إن شاء غفر لهم وعفا عنهم بفضله»، إلى آخر كلامه فصل الله تعالى بين الشرك وغيره، لأن الشرك أكبر الكبائر، كما قال ﷺ وأخبر الله تعالى أن الشرك غير مغفور، وعلق غفران ما دونه بالمشيئة، والجائز يعلق بالمشيئة دون الممتنع ولو كان الكل سواء لما كان للتفصيل معنى ولأنه علق هذا الغفران بالمشيئة وغفران الكبائر والصغائر بعد التوبة مقطوع به، غير معلق بالمشيئة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾ [الزمر: ٥٣]. فوجب أن يكون الغفران المعلق بالمشيئة هو غفران الذنوب سوى الشرك بالله قبل التوبة.

وقوله «ذلك أن الله مولى أهل معرفته»، فيه مؤاخذة لطيفة، كما تقدم، وقوله «اللهم يا ولي الإسلام وأهله مسكنًا بالإسلام، وفي نسخة «ثبتنا على الإسلام حتى نلقاك به»، روى شيخ الإسلام أبو إسماعيل الانصاري[1] في كتابه

(١) سبق أن ترجم له في الجزء الأول.

الفاروق، بسنده عن أنس رضى الله عنه، قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ عنه، قال: «كان من دعاء رسول الله ﷺ، يقول: «يا ولى الإسلام وأهله، مسكنى بالإسلام حتى ألقاك» عليه»[1]. ومناسبة اختتام الكلام المتقدم بهذا وبمثل هذا الدعاء دعا يوسف الصديق صلوات الله عليه، حيث قال: ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١]. وبه دعا السحرة الذين كانوا أول من آمن بموسى صلوات الله على نبينا وعليه، حيث قالوا: ﴿رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦]. ومن استدل بهاتين الآيتين على جواز تمنى الموت فلا دليل له فيه، فإن الدعاء إنما هو بالموت على الإسلام، لا بمطلق الموت، ولا بالموت الآن والفرق ظاهر.

الصلاة خلف كل بر وفاجر

قوله: «ونرى الصلاة خلف كل بر وفاجر من أهل القبلة، وعلى من مات منهم».

ش: قال ﷺ: «صلوا خلف كلِّ بر وفاجرًا»[2]. رواه مكحول عن أبى هريرة رضى الله عنه، وأخرجه الدارقطنى، وقال: مكحول لم يلق أبا هريرة. وفى إسناده معاوية بن صالح، متكلم فيه، وقد احتج به مسلم فى صحيحه، وخرج الدارقطنى أيضًا وأبو داود، عن مكحول، عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «الصلاة واجبة عليكم مع كلِّ مسلم، برًا كان أو فاجرًا، وإن عملَ بالكبائر. والجهادُ الواجب عليكم مع كل أمير، برًا كان أو فاجرًا، وإن عمل بالكبائر»[3]. وفى صحيح البخارى: أن عبد الله بن عمر رضى الله عنه كان

---

(١) قال الشيخ الألبانى: لم أقف على إسناده وما أخاله يصح.

(٢) قال الشيخ الألبانى: هذا الحديث ضعيف.

(٣) الحديث رواه أبو داود فى الصلاة ٦٣، والجهاد ٣٣، وفى كتاب الصلاة باب: إمامة البر والفاجر رقم ٥٩٤، ولفظه عن مكحول عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: الصلاة المكتوبة واجبة خلف كل مسلم، برًا كان أو فاجرًا وإن عمل الكبائر.

يصلى خلف الحجاج[1] بن يوسف الثقفى، وكذا أنس بن مالك وكان الحجاج فاسقًا ظالمًا. وفى صحيحه أيضًا، أن النبى ﷺ قال: «يصلون لكم، فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطأوا فلكمْ وعليهمْ»[2]. وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «صلوا خلف من قال لا إله إلا الله، وصلوا على من مات من أهل لا إله إلا الله»[3] أخرجه الدارقطنى من طرق وضعفها.

إعلم رحمك الله وإيانا: أنه يجوز للرجل أن يصلى خلف من لم يعلم منه بدعة ولا فسقًا، باتفاق الأئمة، وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأمور اعتقاد إمامه، ولا أن يمتحنه، فيقول ماذا يعتقد؟. بل يصلى خلف المستور الحال، ولو صلى خلف: مبتدع يدعو إلى بدعته، أو فاسق ظاهر الفسق، وهو الإمام الراتب الذى لا يمكنه الصلاة إلا خلفه كإمام الجمعة والعيدين والإمام فى صلاة الحج بعرفة، ونحو ذلك، فإن المأموم يصلى خلفه، عند عامة السلف والخلف، ومن ترك الجمعة والجماعة خلف الإمام الفاجر فهو مبتدع عند أكثر العلماء. والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها، فإن الصحابة رضى الله عنهم كانوا يصلون الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون، كما كان عبد الله بن عمر يصلى خلف الحجاج ابن يوسف، وكذلك أنس رضى الله عنه. كما تقدم، وكذلك عبد الله بن مسعود رضى الله عنه وغيره يصلون خلف الوليد بن عقبة بن أبى معيط[4] وكان يشرب الخمر، حتى أنه صلى بهم الصبح مرة أربعًا، ثم قال:

(١) الحجاج بن يوسف بن الحكم الثقفى أبو محمد، قائد، داهية، سفاك، خطيب، ولد ونشأ فى الطائف، وانتقل إلى الشام. قلده عبد الملك أمر عسكره، زحف إلى مكة وقتل عبد الله ابن الزبير فولاه عبد الملك مكة والطائف والمدينة. بنى مدينة واسط بين الكوفة والبصرة، مات بواسط عام ٩٥هـ. (وفيات الأعيان: ١-١٢٣).

(٢) الحديث رواه البخارى فى الأذان رقم ٥٥، ومسند الإمام أحمد ٢-٢٥٥، ٥٣٧ ولفظه عند البخارى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «يصلون لكم فإن أصابوا فلكم وإن أخطأوا فلكم وعليهم».

(٣) قال صاحب المقاصد الحسنة تحت رقم ٦٣٥، صفحة ٢٦٧، رواه الطبرانى وأبى نعيم فى الحلية والدارقطنى بسندين مختلفين إلى ابن عمر مرفوعًا، ورواه الدارقطنى من حديث الحارث عن على ومن حديث علقمة والأسود عن أن مسعود، ومن حديث أبى الدرداء ولكنها واهية كما صرح به غير واحد وبعضها فى العلل لابن الجوزى.

(٤) الوليد بن أبى معيط: أبو وهب. الأموى، القرشى، وال من فتيان قريش وشعرائهم فيه ظرف ومجون ولهو، وهو أخو عثمان بن عفان لأمه. أسلم يوم فتح مكة وبعثه رسول الله على صدقات بنى المصطلق، ثم ولاه عمر صدقات بنى تغلب، وولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبى وقاص سنة ٢٥هـ، فشهد عليه جماعة عند عثمان بشرب الخمر فعزله، مات بالرقة سنة ٦١هـ، (الإصابة ت ٩١٤٩).

أزيدكم: فقال له ابن مسعود: ما زلنا معك منذ اليوم فى زيادة. وفى الصحيح: أن عثمان بن عفان رضى الله عنه لما حضر صلى بالناس شخص، فسأل سائل عثمان: إنك إمام عامة. وهذا الذى صلى بالناس فتنة؟ فقال: يا ابن أخى إن الصلاة من أحسن ما يعمل الناس، فإذا أحسنوا فأحسن معهم، وإذا أساءوا فاجتنب إساءتهم.

والفاسق والمبتدع صلاته فى نفسها صحيحة، فإذا صلى المأموم خلفه لم تبطل صلاته، لكن إنما كره من كره الصلاة خلفه، لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب.

ومن ذلك: أن من أظهر بدعة وفجوراً لا يرتب إماما للمسلمين، فإنه يستحق التعزير حتى يتوب فإذا أمكن هجره حتى يتوب كان حسنًا، وإذا كان بعض الناس إذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره أثر ذلك فى إنكار المنكر حتى يتوب أو يعزل أو ينتهى الناس عن مثل ذنبه، فمثل هذا إذا ترك الصلاة خلفه كان فى ذلك مصلحة شرعية، ولم يفت المأموم الجمعة ولا الجماعة. وأما إذا كان ترك الصلاة خلفه يفوت المأموم الجمعة والجماعة، فهنا لا يترك الصلاة خلفه إلا مبتدع مخالف للصحابة رضى الله عنه. وكذلك إذا كان الإمام قد رتبه ولاية الأمور ليس فى ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية، فهنا لا يترك الصلاة خلفه، بل الصلاة خلف الأفضل أفضل، فإذا أمكن الإنسان الا يقدم مظهراً للمنكر فى الإمامة، وجب عليه ذلك، لكن إذا ولاه غيره، ولم يمكنه صرفه عن الإمامة، أو كان لا يتمكن من صرفه عن الإمامة إلا بشر أعظم ضرراً من ضرر ما أظهر من المنكر، فلا يجوز دفع الفساد بالفساد الكثير ، ولا دفع أخف الضررين بحصول أعظمهما، فإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وبحسب الإمكان. فتفويت الجمع والجماعات أعظم فساداً من الاقتداء فيهما بالإمام الفاجر، لا سيما إذا كان التخلف عنها لا يجوز فجوراً، فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة.

وأما إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر، فهذا أولى من فعلها خلف

الفاجر. وحينئذ، فإذا صلى خلف الفاجر من غير عذر، فهو موضع اجتهاد للعلماء: منهم من قال: يعيد. ومنهم من قال: لا يعيد. وموضع بسط ذلك فى كتب الفروع.

وأما الإمام إذا نسى أو أخطأ، ولم يعلم المأموم بحاله، فلا إعادة على المأموم، للحديث المتقدم، وقد صلى عمر رضى الله عنه وغيره وهو جنب ناسيًا للجنابة، فأعاد الصلاة، ولم يأمر المأمومين بالإعادة ولو علم أن إمامه بعد فراغه كان على غير طهارة، أعاد عند أبى حنيفة خلافًا لمالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه. وكذلك لو فعل الإمام ما لا يسوغ عند المأموم، وفيه تفاصيل موضعها كتب الفروع، ولو علم أن إمامه يصلى على غير وضوء فليس له أن يصلى خلفه؛ لأنه لا عب. وليس بمصلٍّ.

ولى الأمر والحاكم وإمام الصلاة يطاع

وقد دلت نصوص الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة أن ولى الأمر، وإمام الصلاة، والحاكم، وأمير الحرب، وعامل الصدقة، يطاع فى مواضع الاجتهاد، وليس عليه أن يطيع أتباعه فى موارده الاجتهاد، بل عليهم طاعته فى ذلك، وترك رأيهم لرأيه، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف، ومفسدة الفرقة والاختلاف، أعظم من أمر المسائل الجزئية ولهذا لم يجز للحكام أن ينقض بعضهم حكم بعض. والصواب والمقطوع به صحة صلاة بعض هؤلاء خلف بعض. يروى عن أبى يوسف: أنه لما حج مع هارون الرشيد[1]، فاحتجم الخليفة، وأفتاه مالك بأنه لا يتوضأ، وصلى بالناس، فقيل لأبى يوسف: أصليت خلفه؟ قال: سبحان الله. أمير المؤمنين يريد ذلك إن ترك الصلاة خلف ولاة الأمور من فعل أهل البدع وحديث أبى هريرة، الذى رواه البخارى، أن رسول الله ﷺ قال: «يصلون لكم. فإن أصابوا فلكم ولهم، وإن أخطأوا فلكم وعليهم»[2]. نص صحيح صريح فى

---

(١) هارون الرشيد: ابن محمد المهدى بن المنصور العباسى، أبو جعفر، خامس خلفاء الدولة العباسية فى العراق، ولد بالرى عام ١١٩هـ، ونشأ فى دار الخلافة ببغداد وبويع بها سنة ١٧٠هـ، توفى فى سناباد من قرى طوس عام ١٩٣هـ. (البداية والنهاية: ١-٢١٣).

(٢) سبق تخريج هذا الحديث.

أن الإمام إذا أخطأ فخطؤه عليه، لا على المأموم، والمجتهد غايته أنه أخطأ بترك واجب اعتقد أنه ليس واجباً، أو فعل محظوراً اعتقد أنه ليس محظوراً. ولا يحل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخالف هذا الحديث الصريح الصحيح بعد أن يبلغه، وهو حجة على من يطلق من الحنفية والشافعية والحنبلية أن الإمام إذا ترك ما يعتقد المأموم وجوبه لم يصح اقتداؤه به.. فإن الاجتماع والائتلاف مما يجب رعايته وترك الخلاف المفضي إلى الفساد.

وقوله «وعلى من مات منهم» – أي ونرى الصلاة على من مات من الأبرار والفجار. وإن كان يستثنى من هذا العموم البغاة وقطاع الطريق، وكذا قاتل نفسه خلافاً لأبي يوسف، لا الشهيد. خلافاً لمالك والشافعي رحمهما الله، على ما عرف في موضعه، لكن الشيخ إنما ساق هذا البيان أنا لا نترك الصلاة على من مات من أهل البدع والفجور، للعموم الكلي، ولكن المظهرين للإسلام قسمان: إما مؤمن، وإما منافق فمن علم نفاقه لم تجز الصلاة عليه والاستغفار له، ومن لم يعلم ذلك منه صلى عليه. فإذا علم شخص نفاق شخص لم يصل هو عليه، وصلى عليه من لم يعلم نفاقه، وكان عمر رضي الله عنه لا يصلي على من لم يصل عليه حذيفة[1]، لأنه كان في غزوة تبوك قد عرف المنافقين، وقد نهى الله سبحانه وتعالى رسوله ﷺ عن الصلاة على المنافقين، وأخبر أنه لا يغفر لهم باستغفاره، وعلل ذلك بكفرهم بالله ورسوله، فمن كان مؤمناً بالله ورسوله لم ينه عن الصلاة عليه. ولو كان له من الذنوب الاعتقادية البدعية أو العملية الفجورية ماله، بل قد أمره الله تعالى بالاستغفار للمؤمنين. فقال تعالى: ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ [محمد: ١٩]، فالتوحيد أصل الدين، والاستغفار له وللمؤمنين كماله فالدعاء له بالمغفرة والرحمة وسائر الخيرات، إما واجب وإما مستحب. وهو على نوعين: عام وخاص أما العام فظاهر،

(١) حذيفة بن اليمان بن حسل بن جابر العنسي، أبو عبد الله، واليمان لقب. صحابي من الولاة الشجعان الفاتحين، كان صاحب سر النبي – ﷺ – في المنافقين لم يعلمهم أحد غيره، ولاه عمر المدائن بفارس، هاجم نهاوند سنة ٢٢هـ، له في كتب الحديث ٢٢٥ حديثاً، توفي سنة ٣٦هـ.

كما فى هذه الآية، أما الدعاءُ الخاص، فالصلاة على الميت، فما من مؤمن يموت إلا وقد أمر المؤمنون أن يصلوا عليه صلاة الجنازة، وهم مأمورون فى صلاتهم عليه أن يدعوا له، كما روى أبو داود وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء»[١].

قوله: «ولا ننزل أحداً منهم جنة ولا ناراً».

ش: يريد: أنا لا نقول عن أحد معين من أهل القبلة إنه من أهل الجنة أو من أهل النار، إلا من أخبر الصادق ﷺ أنه من أهل الجنة، كالعشرة رضى الله عنهم وإن كنا نقول: إنه لا بد أن يدخل النار من أهل الكبائر من يشاءُ الله إدخاله النار[٢]، ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين، ولكنا نقف فى الشخص المعين، فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عن علم، لأن الحقيقة باطنة، وما مات عليه لا نحيط به، لكن نرجو للمحسنين، ونخاف على المسيء.

وللسلف فى الشهادة بالجنة ثلاثة أقوال: أحدها: ألا يشهد لأحد إلا للأنبياء، وهذا ينقل عن محمد بن الحنفية، والأوزاعى[٣] والثانى: أنه يشهد بالجنة لكل مؤمن جاء فيه النص، وهذا قول كثير من العلماء وأهل الحديث. والثالث: أنه يشهد بالجنة لهؤلاء ولمن شهد له المؤمنون. كما فى الصحيحين: «أنه مر بجنازةٍ، فأثنوا عليها بخيرٍ، فقال النبىُّ ﷺ وجبتْ، ومر بأخرى، فأَثنى عليها بشر، فقال: وَجَبتْ». وفى رواية كرر: (وجبت) ثلاث مرات. «فقال عمر: يا رسول الله، وما وجبتْ؟ فقال رسول الله ﷺ: هذا أثنتيم عليه خيراً

(١) الحديث أخرجه أبو داود برقم ٣١٩٩ فى الجنائز باب: الدعاء للميت، ورواه ابن ماجه رقم ١٤٩٧ فى الجنائز باب: ما جاء فى الدعاء فى الصلاة على الجنازة، وفيه عنعنة بن إسحاق وهو مدلس وأخرجه ابن حبان من طريق آخر رقم ٧٥٤، ولفظه عند ابن ماجه. عن أبى هريرة قال: سمعت رسول الله - ﷺ يقول: «إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء».

(٢) محمد بن على بن أبى طالب الهاشمى القرشى، أبو القاسم، المعروف بابن الحنفية، أحد الابطال الأشداء فى صدر الإسلام، وهو أخو الحسن والحسين، أمه خولة بنت جعفر. كان واسع العلم. وكان المختار الثقفى يدعو الناس إلى إمامته ويزعم أنه المهدى، وكانت الكيسانية «من فرق الإسلام» تزعم أنه لم يمت وأنه مقيم برضوى. مولده عام ٢١هـ، ووفاته بالمدينة عام ٨١هـ (طبقات ابن سعده: ٦٦).

(٣) الأوزاعى: سبق الترجمة له.

وجبت له الجنة. وهذا أثنيتم عليه شراً وجبت النار له، أنتم شهداءُ الله فى الأرض»[1]. وقال ﷺ: «توشكون أن تعلموا أهلَ الجنة من أهلِ النار، قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بالثناء الحسنِ والثناء السيىء»[2]. فأخبر أن ذلك مما يُعلم به أهل الجنة وأهل النار.

أمرنا بالحكم بالظاهر ونهينا عن اتباع السرائر

قوله: «ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق ما لم يظهر شيء من ذلك، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى».

لأنا قد أمرنا بالحكم بالظاهر، ونهينا عن الظن واتباع ما ليس لنا به علم. قال تعالى: ﴿ **يا أيُّها الَّذين آمنُوا لا يسخرْ قومٌ من قوْمٍ** ﴾ [الحجرات: ١١] وقال تعالى: ﴿ **يا أيُّها الَّذين آمنُوا اجتنبُوا كثيراً من الظَّنِّ إنَّ بعضَ الظَّنِّ إثْمٌ** ﴾ [الحجرات: ١٢]. وقال تعالى: ﴿ **ولا تقْفُ ما ليْس لك به علْمٌ إنَّ السَّمْع والْبصر والْفُؤاد كُلُّ أُولئك كان عنْهُ مسْؤُولاً** ﴾ [الإسراء: ٣٦].

قوله: «ولا نرى القتل[3] على أحد من أمة محمد ﷺ إلا من وجب عليه السيف».

ش: فى الصحيح عن النبى ﷺ، أنه قال: «لا يحلُّ دمُ امرىءٍ مسلمٍ يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[4].

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الجنائز ٨٥، ومسلم فى الجنائز ٦٠، والترمذى فى الجنائز ٦٣، والنسائى فى الجنائز ٥٠، وابن ماجه فى الجنائز ٤٠، والزهد ٣٥، وأحمد بن حنبل ٢-٢٦١، ٥٩٩-٥٣٨، ٣-١٧٩، ١٨٤، ١٩٧، ٢٤٥، ٢٨١.

(٢) قال الألبانى: إسناده محتمل للتحسين، فإنه من رواية ابن أبى زهير الثقفى، عن أبيه مرفوعا. أخرجه ابن ماجة ٤٢٢١، وأحمد بن حنبل ٣-٤١٦، ٦-٤٦٦. قال فى الزوائد إسناده صحيح ورجاله ثقات، قلت: أبو بكر هذا لم يرو عنه غير اثنين ولم يوثقه غير ابن حبان ١-٢٦٧، وقال فى التقريب «مقبول» يعنى عند المتابعة.

(٣) فى (ب): السيف.

(٤) الحديث رواه البخارى فى ديات ٦، ومسلم فى القسامة ٢٥، ٢٦، وأبو داود فى الحدود ١، والترمذى فى الحدود ١٥، ديات ١٠، والنسائى فى التحريم ٥ وقسامة ٦، وابن ماجة فى الحدود ١، والدارمى فى الحدود ٢، وسير ١١.

قوله: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يداً من طاعتهم ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة».

ش: قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء: ٥٩].

وفى الصحيح عن النبى ﷺ، أنه قال: «من أطاعنى فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصا الله، ومن يطعِ الأمير فقد أطاعنى، ومن عصى الأمير فقد عصانى»[١]. وعن أبى ذر رضى الله عنه، قال: «إن خليلى أوصانى أن أسمعَ وأطيعَ وإن كان عبداً حبشياً مجدَّعَ الأطراف»[٢] وعند البخارى: «ولو لحبشىٍّ كأن رأسه زبيبةٌ». وفى الصحيحن أيضاً: «على المرء المسلم السمعُ والطاعةُ فيما أحبَّ وكره، إلا أن يُؤمر بمعصية، فإن أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»[٣]. وعن حذيفة بن اليمان، قال: «كان الناس يسألون رسولَ الله ﷺ عن الخير وكنت أسأله عن الشر، مخافة أن يدركنى، فقلت: يا رسولَ الله، إنا كنا فى جاهلية وشرٍّ، فجاءنا اللهُ بهذا الخير، فهل بعد الخير شرٌّ؟ قال نعم، فقلت: هل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم، وفيه دخن، قلت: وما دخنه؟ قال: قوم يستنُّون بغير سنتى، ويهتدون بغير هديى، تَعرف منهم وتنكر، فقلت؛ هل بعد ذلك الخير من شرٍّ؟ قال: نعم، دعاة على أبواب جهنمَ، من أجابهم إليها قذفوه فيها، فقلت: يا رسولَ الله، صفهم لنا؟ قال: نعم قوم من جلدتنا، يتكلمون بألسنتنا قلت: يا رسول الله فما ترى إن أدركنى ذلك؟ قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم،

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الجهاد ٢٠٩، والاعتصام ٢ وأحكام ١، ومسلم فى الإمارة ٣٢-٤٢، والنسائى فى البيعة ٣٧، وابن ماجة فى المقدمة ١، والجهاد ٣٩، وأحمد بن حنبل ٢-٩٢، ٢٤٤.

(٢) الحديث رواه مسلم فى المساجد ٢٤٠، وإمارة ٤٥، ٣٧، وابن ماجة فى الجهاد ٣٩، وأحمد بن حنبل ٥-١٦١، ١٧١.

(٣) الحديث رواه البخارى فى الأحكام ٥، والجهاد ١٨، ورواه مسلم فى الإمارة ٣٨، وأبو داود فى الجهاد ٨٧، والترمذى فى الجهاد ٢٩، والنسائى فى البيعة ٣٤، وابن ماجة فى الجهاد ٤٠، وأحمد بن حنبل ٣-١٧، ١٤٢.

فقلت: فإن لم تكن جماعة ولا إمامٌ؟ قال: فاعتزلَ تلك الفرق كلَّها، ولو أن تعضَّ على أصل شجرة، حتى يدركَكَ الموتُ وأنت على ذلك»(١). وعن ابن عباس رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «من رأى من أميره شيئًا يكرهُه فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات، فميتتهُ جاهليةٌ». وفى رواية: «فقد خلعَ ربقةَ الإسلام من عنقه»(٢) وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ «إذا بُويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما»(٣). وعن عوف بن مالك رضى الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «خيارُ أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرارُ أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم، فقلنا: يا رسول الله أفلا ننابذهم بالسيف عند ذلك؟ قال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة ألا من ولى عليه وال، فرآه يأتى شيئًا من معصية الله، فليكره ما يأتى من معصية الله، ولا ينزِعْ يدًا من طاعة»(٤).

فقد دل الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولى الأمر، ما لم يأمروا بمعصية، فتأمل قوله تعالى: ﴿ **أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ [النساء: ٥٩] - كيف لا «وأطيعوا الرسول» ولم يقل: وأطيعوا أولى الأمر منكم؟ لأن أولى الأمر لا يفردون بالطاعة، بل يطاعون فيما هو طاعة الله ورسوله. وأعاد الفعل مع الرسول (للدلالة على أن من أطاع الرسول) فقد أطاع الله، فإن الرسول لا يأمر بغير طاعة الله، بل معصوم فى ذلك، وأما ولى الأمر فقد يأمر بغير طاعة الله، فلا يطاع إلا فيما هو طاعة لله ورسوله، وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا، فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد أضعاف ما يحصل من

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الفتن ١١، ومناقب ٣٥، ومسلم فى الإمارة ٥١، وابن ماجة فى الفتن ٢٣، بزيادة: ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت كذلك.

(٢) الحديث رواه أحمد بن حنبل فى مسنده ٣-٣٣٣، ٤-١٢٠، ٢٢٠، ورواه أبو داود فى السنة ٢٧، والترمذى فى الأدب ٧٨، والنسائى فى قطع السارق وابن ماجة فى الفتن ٢٧.

(٣) الحديث رواه مسلم فى الإمارة ٦١ ولفظه عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا بويع لخليفتين فاقتلوا الآخر منهما».

(٤) الحديث رواه مسلم فى الإمارة ٦٥ باب: خيار الأئمة وشرارهم، ولفظه عن عوف بن مالك كما ذكره الشارع باختلاف فى قوله: «وإذا رأيتم من ولاتكم شيئًا تكرهونه فاكرهوا ذلك ولا تنزعوا يدًا من طاعة».

جورهم، بل فى الصبر على جورهم تكفير السيئات ومضاعفة الأجور، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا، والجزاءُ من جنس العمل. فعلينا الاجتهاد بالاستغفار والتوبة وإصلاح العمل. قال تعالى: ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ [الشورى: ٣٠]. وقال تعالى: ﴿ **أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٦٥]. وقال تعالى: ﴿ **مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ [النساء: ٧٩]. ﴿ **وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٢٩]. فإذا أرادت الرعية أن يتخلصوا من ظلم الأمير الظالم، فليتركوا الظلم. وعن مالك بن دينار[١]: أنه جاء فى بعض الكتب: «أنا الله مالك الملك، قلوب الملوك بيدى، فمن أطاعنى جعلتهم عليه رحمة، ومن عصانى جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك؛ لكن توبوا أعطفْهم عليكم»[٢].

الأمر باتباع السنة والجماعة

قوله: «ونتبع السنة والجماعة، ونجتنب الشذوذ والخلاف والفرقة».

ش: السنة: طريقة الرسول ﷺ، والجماعة: جماعة المسلمين، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين فاتباعهم هدى، وخلافهم ضلال. قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ٣١]. وقال: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾ [النساء: ١١٥]. وقال تعالى: ﴿ **قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا**

---

(١) هو مالك بن دينار البصرى أبو يحيى، من رواة الحديث، كان ورعًا يأكل من كسبه ويكتب المصاحف بالأجرة، توفى فى البصرة عام ١٣١هـ.
(وفيات الأعيان (١-٤٤٠).

(٢) قال الشيخ الألبانى: هذا من الإسرائيليات وقد رفعه بعض الضعفاء إلى النبى - ﷺ- رواه الطبرانى فى الأوسط عن أبى الدرداء، قال الهيثمى (٥-٢٤٩) وفيه إبراهيم بن رشد، وهو متروك.

الرَّسُول فإن تولَّوْا فإنَّما عليه ما حُمِّل وعليكُم مَّا حُمِّلْتُم وإن تُطِيعُوهُ تهتدُوا وما على الرَّسُول إلاَّ الْبلاغُ الْمُبينُ ﴾ [النور: ٥٤] . وقال تعالى: ﴿ **أنَّ هذا صراطي مُسْتقيما فاتَّبعُوهُ ولا تتَّبعُوا السُّبُل فتفرَّق بكُمْ عن سبيله ذلكُمْ وصَّاكُم به لعلَّكُم تتَّقُون** ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقال تعالى: ﴿ **ولا تكُونُوا كالَّذين تفرَّقُوا واخْتلفُوا من بعْد ما جاءهُمُ الْبيِّناتُ وأُولئك لهُمْ عذابٌ عظيمٌ** ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿ **إنَّ الَّذين فرَّقُوا دينهُمْ وكانُوا شيعًا لَّسْت منْهُمْ في شيْءٍ إنَّما أمْرُهُمْ إلى اللَّه ثُمَّ يُنبِّئُهُم بما كانُوا يفْعلُون** ﴾ [الأنعام: ١٥٩].

وثبت فى السنن الحديث الذى صححه الترمذى، عن العرباض بن سارية قال: «وعظنا رسولُ الله ﷺ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائلٌ: يا رسولَ الله كأن هذه موعظة مودِّع؟ فماذا تعهد إلينا؟ فقال: أوصيكم بالسمع والطاعة فإنه من يعشْ منكم بعدى فسيرى اختلافًا كثيراً، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كلَّ بدعة ضلالة»[1]. وقال ﷺ: «إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على اثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملةً – يعنى الأهواء – كلها فى النار إلا واحدة، وهى الجماعة». وفى رواية: «قالوا: من هى يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابى»[2]. فبين ﷺ أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين. إلا أهل السنة والجماعة.

---

(١) الحديث رواه مسلم فى الجمعة ٤٣، وأبو داود فى السنة ٥، والنسائى فى العيدين ٢٢، وابن ماجة فى المقدمة، والدارمى فى المقدمة ١٦–٢٣، وأحمد بن حنبل ٣–٢١٠، ٣٧١، ولفظه عند ابن ماجة كما ذكره الشارع بزيادة: قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيراً إلخ.

(٢) الحديث رواه أبو داود فى السنة ١، والترمذى إيمان ١٨، وابن ماجة فى الفتن ١٧. وأحمد بن حنبل ٢–٣٣٢، ٣–١٤٥، ولفظه عند ابن ماجة: «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة فواحدة فى الجنة وسبعون فى النار، وافترقت النصارى على اثنتين وسبعين فرقة، فإحدى وسبعون فى النار وواحدة فى الجنة، والذى نفس محمد بيده لتفترقن أمتى على ثلاث وسبعين فرقة، واحدة فى الجنة واثنتان وسبعون فى النار قيل: يا رسول الله من هم..؟ قال: الجماعة».

وما أحسن قول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، حيث قال: من كان منكم مستنًا فليستن بمن قد مات، فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم فى آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم. وسيأتى لهذا المعنى زيادة بيان إن شاء الله تعالى، عند قول الشيخ «ونرى الجماعة حقًا وصوابًا، والفرقة زيغًا وعذابًا».

قوله: «ونحب أهل العدل والأمانة، ونبغض أهل الجور والخيانة».

ش: وهذا من كمال الإيمان وتمام العبودية، فإن العبادة تتضمن كمال المحبة ونهايته. فمحبة رسول الله وأنبيائه وعباده المؤمنين من محبة الله، وإن كانت المحبة التى لله لا يستحقها غيره، فغير الله يحب فى الله، لا مع الله، فإن المحب يحب ما يحب محبوبه، ويبغض ما يبغض، ويوالى من يواليه، ويعادى من يعاديه، ويرضى لرضائه، ويغضب لغضبه، ويأمر بما يأمر به، وينهى عما ينهى عنه، فهو موافق لمحبوبه فى كل حال. والله تعالى يحب المحسنين ويحب المتقين ويحب التوابين، ويحب المتطهرين ونحن نحب من يحبه الله. والله لا يحب الخائنين، ولا يحب المفسدين، ولا يحب المستكبرين ونحن لا نحبهم أيضًا، ونبغضهم، موافقة له سبحانه وتعالى. وفى الصحيحين عن النبى ﷺ: «ثلاثةٌ من كنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان: من كان اللهُ ورسولهُ أحبَّ إليه مما سواهما، ومن كان يحبُّ المرء لا يحبه إلا لله، ومن كان يكره أن يرجعَ فى الكفر بعد أن أنقذه اللهُ منه، كما يكره أن يُلقَى فى النار»[1] فالمحبة التامة مستلزمة لموافقة المحبوب فى محبوبه ومكروهه، وولايته وعداوته. ومن المعلوم أن من أحب الله المحبة الواجبة فلا بد أن يبغض أعداءه، ولا بد أن يحب ما يحبه من جهادهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].
والحب والبغض بحسب ما فيهم من خصال الخير والشر، فإن العبد يجتمع فيه

---

(١) الحديث رواه مسلم فى الإيمان ٦٦، ٦٧، والبخارى فى الإيمان ٩، ١٤، وإكراه ١.

سبب الولاية وسبب العداوة والحب والبغض، فيكون محبوبًا من وجه ومبغوضًا من وجه، والحكم للغالب وكذلك حكم العبد عن الله، فإن الله قد يحب الشيء من وجه ويكرهه من وجه آخر، كما قال ﷺ، فيما يروى عن ربه عز وجل: «وما ترددت في شيء أنا فاعلهُ ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن، يكرهُ الموت، وأنا أكرهُ مساءته، ولا بد له منه»[1]. فبين أنه يتردد، لأن التردد تعارض إرادتين، وهو سبحانه يحب ما يحب عبده المومن، ويكره ما يكرهه، وهو يكره الموت فهو يكرهه، كما قال: «وأنا أكره مساءته»، وهو سبحانه قضى الموت، فهو يريد كونه، فسمى ذلك ترددًا، ثم بين أنه لا بد من وقوع ذلك، إذ هو مفض إلى ما هو أحب منه.

قوله: «ونقول: الله أعلم، فيما اشتبه علينا علمه».

ش: تقدم في كلام الشيخ رحمه الله أنه ما سلم في دينه إلا من سلم لله عز وجل ولرسوله ﷺ، ورد علم ما اشتبه عليه إلى عالمه. ومن تكلم بغير علم فإنما يتبع هواه، وقد قال تعالى: ﴿**وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ**﴾ [القصص: ٥٠]. وقال تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ * كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الحج: ٣-٤]. وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ**﴾ [غافر: ٣٥]. وقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف: ٣٣]. وقد أمر الله نبيه ﷺ أن يرد علم ما لم يعلم إليه، فقال تعالى: ﴿**قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**﴾ [الكهف: ٢٦].

﴿**قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم**﴾ [الكهف: ٢٢]. وقد قال ﷺ لما سئل عن

(١) الحديث رواه البخاري في الرقاق ٣٨، ورواه أحمد بن حنبل في مسنده ٦-٢٥٦.

أطفال المشركين: اللهُ أعلم بما كانوا عاملين»[1] . وقال عمر رضى الله عنه: «اتهموا الرأىَ فى الدين، فلو رأيتنى يوم أبى جَنْدَلٍ، فلقد رأيتنى وإنى لأرد أمر رسول الله ﷺ برأيى فاجتهد ولا آلو، وذلك يوم أبى جندل والكتاب يكتب، وقال: اكتب «بسم الله الرحمن الرحيم»، قال: اكتب باسمك الله، فرضى رسولُ الله ﷺ، وكتب وأبيتُ، فقال: يا عمر ترانى قد رضيت وتأبى»[2]. وقال أيضاً رضى الله عنه: السنةُ ما سنَّهُ اللهُ ورسولهُ ﷺ، لا تجعلوا خطأ الرأى سنةً للأمة». وقال أبو بكر الصديق رضى الله عنه: «أى أرضٍ تُقلنى، وأى سماءٍ تظلنى، إن قلتُ فى آية من كتاب الله برأيى، أو بما لا أعلم» وذكر الحسن بن علىٍّ الحُلوانى، حدثنا عارم، حدثنا حماد بن زيد، عن سعيد بن أبى صدقة، عن ابن سيرين قال: لم يكن أحد أهيب لما لا يعلم من أبى بكر، ولم يكن بعد أبى بكر أهيب لما يعلم من عمر رضى الله عنه، وإن أبا بكر نزلت به قضية فلم يجد فى كتاب الله منها أصلاً، ولا فى السنة أثراً، فاجتهد برأيه، ثم قال: هذا رأيى، فإن يكن صواباً فمن الله، وإن يكن خطأً فمنى وأستغفر الله.

المسح على الخفين

قوله: «ونرى المسح على الخفين، فى السفر والحضر، كما جاء فى الآثر».

ش: تواتر السنة عن رسول الله ﷺ بالمسح على الخفين وبغسل الرجلين والرافضة تخالف هذه السنة المتواترة، فيقال لهم: الذين نقلوا عن النبى ﷺ الوضوء قولاً وفعلاً، والذين تعلموا الوضوء منه وتوضأوا على عهده وهو يراهم ويقرهم، ونقلوه إلى من بعدهم: أكثر عدداً من الذين نقلوا لفظ هذه الآية. فإن

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الجنائز ٩٢، وأبو داود فى السنة ١٧، والنسائى فى الجنائز ٦٠، وابن ماجه فى الجنائز ٥٣، وأحمد بن حنبل ٢-٥٣، ٢٥٣.

(٢) قال الألبانى: الطبرانى فى الكبير ٥١ / ١، وابن حزم فى الأحكام ٦-٤٦، ورجاله ثقات غير أن فضالة بن مبارك مدلس كما فى التقريب وقد عنعنه، وقال الهيثمى فى المجمع ١-١٧٩، رواه أبو يعلى ورجاله ثقات وإن كان فيهم مبارك بن فضاله، وقال فى موضع آخر ٦-١٤٥-١٤٦، وقد ساقه بأطول من هذا لكنه لم يذكره بتمامه رواه البندار ورجاله رجال الصحيح وطرفه الأول فى الصحيحين من قول سهل بن حنيف.

جميع المسلمين كانوا يتوضأون على عهده[1]، ولم يتعلموا الوضوء إلا منه، فإن هذا العمل لم يكن معهوداً عندهم في الجاهلية، وهم قد رأوه يتوضأ ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، ونقلوا عنه غسل الرجلين في ما شاء الله من الحديث، حتى نقلوا عنه من غير وجه. وفي كتب الصحيح وغيرها، أنه قال: «ويلٌ للأعقاب وبطون الأقدام من النار»[2].

مع أن الفرض إذا كان مسح ظاهر القدم، كان غسل الجميع كلفة لا تدعو إليها الطباع، كما تدعو الطباع إلى طلب الرياسة والمال، فلو جاز الطعن في تواتر صفة الوضوء، لكان في نقل لفظ آية (الوضوء) أقرب إلى الجواز، وإذا قالوا: لفظ الآية ثبت بالتواتر الذي لا يمكن فيه الكذب ولا الخطأ، فثبوت التواتر في نقل الوضوء عنه أولى وأكمل ولفظ الآية لا يخالف ما تواتر من السنة، فإن المسح كما يطلق ويراد به الإصابة - كذلك يطلق ويراد به الأسالة، كما تقول العرب: تمسحت للصلاة، وفي الآية ما يدل على أنه لم يرد بمسح الرجلين المسح الذي هو قسيم الغسل، بل المسح الذي الغسل قسم منه، فإنه قال: (إلى الكعبين)، ولم يقل إلى: الكعاب، كما قال: (إلى المرافق)، فدل على أنه ليس في كل رجلٍ كعب واحد، كما في كل يد مرفق واحد، بل في كل رجل كعبان، فيكون تعالى قد أمر بالمسح إلى العظمتين الناتئتين، وهذا هو الغسل، فإنه من يمسح المسح الخاص يجعل المسح لظهور القدمين، وجعل الكعبين في الآية غاية لرد قولهم. فدعواهم أن الفرض مسح الرجلين إلى الكعبين، الذين هما مجتمع الساق والقدم عند معقد الشراك - مردود بالكتاب والسنة.

وفي الآية قراءتان مشهورتان: النصب والخفض، وتوجيه إعرابهما مبسوط في موضعه. وقراءة النصب نص في وجوب الغسل، لأن العطف على المحل إنما يكون إذا كان المعنى واحداً، كقوله: «فلسنا بالجبال ولا الحديدا».

---

(١) سقط من (أ) على عهده.

(٢) الحديث رواه مسلم في الطهارة ٢٩، وأحمد بن حنبل ٢-٢٠١، ٤٧١، ولفظه عند مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه: «ويل للأعقاب من النار».

وليس معنى : مسحت برأسى ورجلى – هو معنى : مسحت رأسى ورجلى . بل ذكر الباء مفيد معنى زائدا على مجرد المسح، وهو إلصاق شيء من الماء بالرأس، فتعين العطف على قوله (وأيدكم) . فالسنة المتواترة تقضى على ما يفهمه بعض الناس من ظاهر القرآن، فإن الرسول بين للناس لفظ القرآن : ومعناه كما قال أبو عبد الرحمن السلمى[1] حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن عثمان ابن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبى ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يتعلموا معناها . وفى ذكر المسح فى الرجلين تنبيه على قلة الصب فى الرجلين، فإن السرف يعتاد فيهما كثيرا . والمسألة معروفة، والكلام عليها فى كتب الفروع .

الجهاد والحج

قوله : « والحج والجهاد ماضيان مع أولى الأمر من المسلمين، برهم وفاجرهم، إلى قيام الساعة، لا يبطلهما شيء ولا ينقصهما » .

ش : يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الرافضة، حيث قالوا لا جهاد فى سبيل الله حتى يخرج الرضى من آل محمد، وينادى منادى السماء : اتبعوه . . وبطلان هذا القول أظهر من أن يستدل عليه بدليل .

وهم شرطوا فى الإمام أن يكون معصوما، اشتراطا بغير دليل . بل فى صحيح مسلم عن عوف بن مالك الأشجعى[2]، قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « خيارُ أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم، وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم، وتلعنونهم ويلعنونكم،

---

(١) أبو عبد الرحمن السلمى : هو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدى السلمى أبو عبد الرحمن من علماء المتصوفة، قال الذهبى : شيخ الصوفية وصاحب تاريخهم وطبقاتهم وتفسيرهم، قيل كان يضع الأحاديث للصوفية بلغت تصانيفه مائة أو أكثر منها : حقائق التفسير، وطبقات الصوفية، وغير ذلك، توفى سنة ٤١٢هـ.
(ميزان الاعتدال ٢ :٤٦).

(٢) عوف بن مالك الأشجعى الغطفانى، صحابى من الشجعان الرؤساء، أول مشاهده (١) خيبر وكانت معه راية أشجع يوم الفتح، نزل حمص وسكن دمشق، له ٦٧ حديثا، توفى ٧٣هـ (الإصابة ت ٦١٠٣).

قال: قلنا يا رسول الله، أفلا ننابذهم عند ذلك؟ قال: لا، ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولى عليه وال فرآه يأتى شيئًا من معصية الله، فليكره ما يأتى من معصية الله، ولا ينزعنَّ يدًا من طاعته»(١). وقد تقدم بعض نظائر هذا الحديث فى الإمامة. ولم يقل: إن الإمام يجب أن يكون معصومًا. والرافضة أخسر الناس صفقة فى هذه المسألة، لأنهم جعلوا الإمام المعصوم هو الإمام المعدوم، الذى لم ينفعهم فى دين ولا دنيا.. فإنهم يدعون أنه الإمام المنتظر محمد بن الحسن العسكرى، الذى دخل بهم السرداب فى زعمهم، سنة ستين ومائتين أو قريبًا من ذلك بسامرا. وقد يقيمون هناك دابة، إما بغلة، وإما فرسًا، ليركبها إذا خرج. ويقيمون هناك فى أوقات عينوا فيها من ينادى عليه بالخروج. يا مولانا اخرج. ويشهرون السلاح ولا أحد هناك يقاتلهم. إلى غير ذلك من الأمور التى يضحك عليهم منها العقلاء.

وقوله: «مع أولى الأمر برهم وفاجرهم» - لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر، فلا بد من سائس يسوس الناس فيهما، ويقاوم العدو وهذا المعنى كما يحصل بالإمام البر يحصل بالإمام الفاجر.

الإيمان بالكرام الكاتبين

قوله: «ونؤمن بالكرام الكاتبين، فإن الله قد جعلهم علينا حافظين».

ش: قال تعالى: ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]. وقال تعالى: ﴿ **إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق: ١٧-١٨]. وقال تعالى: ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ [الرعد: ١١]. وقال تعالى: ﴿ **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** ﴾ [الزخرف: ٨٠] وقال تعالى: ﴿ **هَٰذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الجاثية: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ**

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴾ [يونس : ٢١] . وفى الصحيح عن النبى ﷺ أنه قال : « يتعاقبونَ فيكم ملائكةٌ بالليلِ وملائكةٌ بالنهار ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين كانوا فيكم، فيسألهم – والله أعلمُ بهم – كيف تركتم عبادىْ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون، وفارقناهم وهم يصلون »[1] وفى الحديث الآخر : « إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرموهم »[2] . جاء فى التفسير : اثنان عن اليمين وعن الشمال، يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه واحد من ورائه وواحد أمامه فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل، بدلاً، حافظان وكاتبان، وقال عكرمة عن ابن عباس : ﴿ **يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ [الرعد : ١١] قال ملائكته يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه .

وروى مسلم والإمام أحمد عن عبد الله، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما منكم من أحدٍ إلا وقد وُكِّلَ به قرينهُ من الجن، وقرينهُ من الملائكة، قالوا : وإياكَ يا رسول الله؟ قال : وإياى، لكن الله أعاننى عليه فأسلم، فلا يأمرنى إلا بخير »[3] الرواية بفتح الميم من (فاسلم) ومن رواه (فأسلم) رفع الميم – فقد حرف لفظه ومعنى (فأسلم)، أى : فاستسلم وانقاد لى، فى أصح القولين، ولهذا قال : « فلا يأمرنى إلا بخير » ومن قال : إن الشيطان صار مؤمنًا فقد حَرَّفَ معناه فإن الشيطان لا يكون مؤمنًا[4] ومعنى ﴿ **يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ [الرعد : ١١] – قيل :

---

(١) الحديث رواه البخارى فى المواقيت ١٦ ، والتوحيد ٢٣–٣٣ ، و سلم فى ا لمساجد ٢١٠ ،والنسائى فى الصلاة ٢١ ،والموطأ فى السفر ٨٢ ، وأحمد بن حنبل ٢–٢٥٧ ، ٣١٢ ، ٤٨٦ .

(٢) الحديث رواه الترمذى فى الأدب ٤٢ .

(٣) الحديث رواه مسلم فى المسافرين ٦٩ ، والدارمى فى الرقاق ٢٦ ، وأحمد بن حنبل ١–٢٨٥ ، ٢٩٧ ، ٤٠١ .

(٤) قال الشيخ أحمد شاكر والخلاف فى ضبط الميم من « فأسلم » خلاف قديم والراجح فيها الفتح . كما قال الشارح، ولكن المعنى الذى رجحه غير راجح . فقال القاضى عياض فى مشارق الأنوار ٢–١٨ : « رويتان بالضم والفتح، فمن ضم رد ذلك إلى النبى – ﷺ . أى فأنا أسلم منه، ومن فتح رده إلى القرين، أى أسلم من الإسلام » .

وقد روى فى غير هذه الأمهات (فاستسلم) يريد بالأمهات « الموطأ » والصحيحين التى بنى عليها كتابه . وإن كان هذا الحديث لم يروه مالك ولا البخارى .

حفظهم له من أمر الله ، أى الله أمرهم بذلك ، يشهد لذلك قراءة من قرأ : (يحفظونه بأمر الله) .

ثم قد ثبت بالنصوص المذكورة أن الملائكة تكتب القول والفعل . وكذلك النية، لأنها فعل القلب، فدخلت فى عموم ﴿ **يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ [الانفطار : ١٢] ويشهد لذلك قوله ﷺ : « قال الله عز وجل : إذا هَمَّ عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه . فإن عملها فاكتبوها عليه سيئة، وإذا هم عبدى بحسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة . فإن عملها فاكتبوها عشرًا »(١)، وقال رسول الله ﷺ : « قالت الملائكة : ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة، وهو أبصر به فقال : أرقبوه، فإن عملها فاكتبوها بمثلها، وإن تركها فاكتبوها حسنةً، إنما تركها من جرائى »(٢)، خرجاهما فى الصحيحين واللفظ لمسلم .

الإيمان بملك الموت

قوله : « نؤمن بملك الموت، الموكل بقبض أرواح العالمين » .

ش : قال تعالى : ﴿ **قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** ﴾ [السجدة : ١١] . ولا تعارض هذه الآية قوله : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ** ﴾ [الأنعام : ٦١] . وقوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ [الزمر : ٤٢] . لأن ملك الموت يتولى قبضها واستخراجها، ثم تأخذها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ويتولونها بعده، كل ذلك بإذن الله وقضائه وقدره وحكمه وأمره فصحت إضافة التوفى إلى كلٍّ بحسبه .

النفس والروح

وقد اختلف فى حقيقة النفس ما هى؟ وهل هى جزء من أجزاء البدن؟ أو عرض من أعراضه؟ أو جسم مساكن له مودع فيه؟ أو جوهر مجرد؟ وهل هى

---

(١) ، (٢) متفق عليه .

الروح أو غيرها؟ وهل الأمارة وهل اللوامة، والمطمئنة - نفس واحدة، أم هي ثلاثة أنفس؟وهل تموت الروح، أو الموت للبدن وحده؟ وهذه المسألة تحتمل مجلداً، ولكن أشير إلى الكلام عليها مختصراً إن شاء الله تعالى: فقيل: الروح قديمة، وقد أجمعت الرسل على أنها محدثة مخلوقة مصنوعة مربوبة مدبرة. وهذا معلوم بالضرورة من دينهم، أن العالم محدث، ومضى على هذا الصحابة والتابعون، حتى نبغت نابغة ممن قصر فهمه فى الكتاب والسنة، فزعم أنها قديمة واحتج بأنها من أمر الله وأمره غير مخلوق وبأن الله أضافها إليه بقوله: ﴿ **قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي** ﴾ [الإسراء: ٨٥]، وبقوله: ﴿ **وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي** ﴾ [الحجر: ٢٩]. كما أضاف إليه علمه وقدرته وسمعه وبصره ويده. وتوقف آخرون، واتفق أهل السنة والجماعة على أنها مخلوقة وممن نقل الإجماع على ذلك: محمد بن نصر المروزى[1] وابن قتيبة[2] وغيرهما. ومن الأدلة على أن الروح مخلوقة، قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [الزمر: ٦٢] فهذا عام لا تخصيص فيه بوجه ما ولا يدخل فى ذلك صفات الله تعالى. فإنها داخلة فى مسمى اسمه. فالله تعالى هو الإله الموصوف بصفات الكمال، فعلمه وقدرته وحياته وسمعه وبصره وجميع صفاته - داخلة فى مسمى اسمه. فهو سبحانه بذاته وصفاته الخالق وما سواه مخلوق، ومعلوم قطعًا أن الروح ليست هى الله، ولا صفة من صفاته وإنما هى من مصنوعاته، ومنها قوله تعالى: ﴿ **هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا** ﴾ [الدهر: ١]. وقوله تعالى لزكريا: ﴿ **وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا** ﴾ [مريم: ٩] الإنسان اسم لروحه وجسده، والخطاب لزكريا، لروحه وبدنه والروح توصف بالوفاة والقبض والإمساك والإرسال، وهذا شأن المخلوق المحدث وأما احتجاجهم بقوله: ﴿ **مِنْ أَمْرِ رَبِّي** ﴾ [الإسراء: ٨٥]- فليس المراد هنا بالأمر الطلب، بل المراد به المأمور، والمصدر

---

(١) سبق الترجمة له.

(٢) ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينورى، أبو محمد، من أئمة الأدب ومن المصنفين المكثرين، ولد ببغداد سنة ٢١٣هـ، من كتبه: الإمامة والسياسة، والرد على الشعوبية، والمشتبه من الحديث والقرآن، وتفسير غريب القرآن توفى عام ٢٧٦هـ.

يذكر ويراد به اسم المفعول. وهذا معلوم مشهور. وأما استدلالهم بإضافتها إليه بقوله: ﴿ من رُوحي ﴾ [الحجر: ٢٩] - فينبغى أن يعلم أن المضاف إلى الله تعالى نوعان: صفات لا تقوم بأنفسها، كالعلم والقدرة والكلام والسمع والبصر، فهذه إضافة صفة إلى الموصوف بها، فعلمه وكلامه وقدرته وحياته صفات له، وكذا وجهه ويده سبحانه.

والثانى: إضافة أعيان منفصلة عنه، كالبيت والناقة والعبد والرسول والروح، فهذه إضافة مخلوق إلى خالقه، لكن إضافته تقتضى تخصيصاً وتشريفاً، يتميز بها المضاف عن غيره.

واختلف فى الروح: هل هى مخلوقة قبل الجسد أم بعده؟ وقد تقدم عند ذكر الميثاق الإشارة إلى ذلك.

واختلف فى الروح: ما هى؟ فقيل هى جسم، وقيل: عرض، وقيل: لا ندرى ما الروح، أجوهر أو عرض؟ وقيل ليس الروح شيئاً أكثر من اعتدال الطبائع الأربع، وقيل: هى الدم الصافى الخالص من الكدرة والعفونات، وقيل: هى الحرارة الغريزية. وهى الحياة. وقيل: هى جوهر بسيط منبث فى العالم كله من الحيوان، على جهة الأعمال له والتدبير، وهى على مدى ما وصفت من الانبساط فى العالم، غير منقسمة الذات والبنية، وأنها فى كل حيوان العالم بمعنى واحد لا غير، وقيل: النفس هى النسيم الداخل والخارج بالتنفس، وقيل غير ذلك، وللناس فى مسمى (الإنسان) هل هو الروح فقط، أو البدن فقط، أو مجموعهما، أو كل منها؟ وهذه الأقوال الأربعة لهم فى كلامه: هل هو اللفظ، أو المعنى فقط، أو هما، أو كل منهما؟ فالخلاف بينهم فى الناطق ونطقه. والحق: أن الإنسان اسم لهما، وقد يطلق على أحدهما بقرينة، وكذلك الكلام.

والذى يدل عليه الكتاب والسنة وإجماع الصحابة وأدلة العقل أن النفس جسم مخالف بالماهية لهذا الجسم المحسوس، وهو جسم نورانى علوى خفيف حى، متحرك، ينفذ فى جوهر الأعضاء، ويسرى فيها سريان الماء فى الورد وسريان الدهن فى الزيت، والنار فى الفحم. فما دامت هذه الأعضاء صالحة

لقبول الآثار الفائضة عليها من هذا الجسم اللطيف، بقي ذلك الجسم سارياً في هذه الأعضاء، وإفادتها هذه الآثار، من الحس والحركة الإرادية، وإذا فسدت هذه، بسبب استيلاء الأخلاط الغليظة عليها، وخرجت عن قبول تلك الآثار، فارق الروح البدن، وانفصل إلى عالم الأرواح، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا** ﴾ [الزمر: ٤٢]، الآية. ففيها الأخبار بتوفيها وإمساكها وإرسالها. وقوله تعالى: ﴿ **وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمُ** ﴾ [الأنعام: ٩٣]. ففيها بسط الملائكة أيديهم لتناولها، ووصفها بالإخراج والخروج. والإخبار بعذابها ذلك اليوم. والأخبار عن مجيئها إلى ربها، وقوله تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ** ﴾ [الأنعام: ٦٠] الآية. ففيها الأخبار بتوفي النفس بالليل، وبعثها إلى أجسادها بالنهار وتوفي بالملائكة لها عند الموت، وقوله تعالى: ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي** ﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]. ففيها وصفها بالرجوع والدخول والرضا. وقال ﷺ: «إن الروح إذا قُبض تبعه البصرُ»[1] ففيه وصفه بالقبض، وأن البصر يراه. وقال ﷺ في حديث بلال: «قبض أرواحكم وردَّها عليكم»[2] وقال ﷺ: «نسمة المؤمن طائر تعلق في شجر الجنة»[3]. وسيأتي في الكلام على عذاب القبر أدلة كثيرة من خطاب ملك الموت لها، وأنها تخرج تسيل كما تسيل القطرة من فَمْ السقاء، وأنها تصعد ويوجد منها (من المؤمن) كأطيب ريح، ومن الكافر كأنتن ريح، إلى غير ذلك من الصفات وعلى ذلك أجمع السلف ودل العقل،

---

(١) الحديث رواه مسلم في الجنائز ٧، وابن ماجة في الجنائز ٦، وأحمد بن حنبل ٤-٢٢٥، ٦-٢٩٧.

(٢) الحديث رواه النسائي في الإمامة ٤٧، والبخاري مواقيت ٣٥، وتوحيد ٣١، والموطأ ٢٦ بلفظ: «إن الله قبض أرواحكم حين شاء فردها حين شاء».

(٣) الحديث رواه النسائي في الجنائز ١٧، وابن ماجه في الزهد ٢٢، والموطأ في الجنائز ٥٩، وأحمد بن حنبل ٣-٤٥٥، ٤٦٠.

وليس من خالف سوى الظنون الكاذبة، والشبه الفاسدة التى لا يعارض بها ما دلت عليه نصوص الوحى والأدلة العقلية.

وأما اختلاف الناس فى مسمى النفس والروح: هل هما متغايران أو مسماهما واحد؟ فالتحقيق: أن النفس تطلق على أمور، وكذلك الروح، فيتحد مدلولهما تارة، ويختلف تارة. فالنفس تطلق على الروح، ولكن غالب ما يسمى نفسًا إذا كانت متصلة بالبدن، وأما إذا أخذت مجردة فتسمية الروح أغلب عليها. وتطلق على الدم، ففى الحديث: «ما لا نفس له سائلة لا ينجس الماء إذا مات فيه». والنفس: العين، يقال: أصابت فلانًا نفس، أى عين. والنفس الذات، ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، ونحو ذلك. وأما الروح فلا تطلق على البدن، لا بانفراده، ولا مع النفس. وتطلق الروح على القرآن، وعلى جبرائيل، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]. ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ [الشعراء: ١٩٣]. ويطلق الروح على الهواء المتردد فى بدن الإنسان أيضًا. وأما ما يؤيد الله به أولياءه، فهى روح أخرى، كما قال تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]. وكذلك القوى التى فى البدن، فإنها أيضًا تسمى أرواحًا، فيقال: الروح الباصر والروح السامع، والروح الشام. ويطلق الروح على أخص من هذا كله. وهو: قوة المعرفة بالله والإنابة إليه ومحبته وانبعاث الهمة إلى طلبه وإرادته ونسبة هذا الروح إلى الروح، كنسبة الروح إلى البدن، فالعلم روح، والإحسان روح، والمحبة روح، والتوكل روح، والصدق روح. والناس متفاوتون فى هذا الروح: فمن الناس من تغلب عليه هذه الأرواح فيصير روحيًا، ومنهم من يفقدها أو أكثرها فيصير أرضيًا بهيميًا. وقد وقع فى كلام كثير من الناس أن لابن آدم ثلاثة أنفس: مطمئنة، ولوامة، وأمّارة، قالوا: وإن منهم من تغلب عليه هذه، ومنهم من تغلب عليه هذه، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ [الفجر: ٢٧]. ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]. ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]. والتحقيق: أنها نفس واحدة، لها صفات، فهى أمارة

بالسوء، فإذا عارضها الإيمان صارت لوامة، تفعل الذنب ثم تلوم صاحبها، وتلوم بين الفعل، والترك، فإذا قوى الإيمان صارت مطمئنة. ولهذا قال النبى ﷺ: «من سرته حسنتهُ وساءته سيئتهُ فهو مؤمن»[1]. وقوله: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن»[2] الحديث.

واختلف الناس: هل تموت الروح أم لا؟ فقالت طائفة تموت، لأنها نفس، وكل نفس ذائقة الموت وقد قال تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ**﴾ [الرحمن: ٢٦-٢٧]. وقال تعالى: ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ**﴾ [القصص: ٨٨]. وقالوا: وإذا كانت الملائكة تموتُ فالنفوس البشرية أولى بالموت، وقال آخرون: لا تموت الأرواح، فإنها خلقت للبقاء، وإنما تموت الأبدان. قالوا: وقد دل على ذلك الأحاديث الدالة على نعيم الأرواح وعذابها بعد المفارقة إلى أن يرجعها الله فى أجسادها. والصواب أن يقال: موت النفوس هو مفارقتها لأجسادها وخروجها منها، فإن أريد بموتها هذا القدر، فهى ذائقة الموت، وإن أريد أنها تعدم وتفنى بالكلية، فهى لا تموت بهذا الاعتبار، بل هى باقية بعد خلقها فى نعيم أو فى عذاب، كما سيأتى إن شاء الله تعالى وقد أخبر سبحانه أن أهل الجنة ﴿**لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الأُولَىٰ**﴾ [الدخان: ٥٦]، وتلك الموتة هى مفارقة الأروح للأجساد. وأما قول أهل النار: ﴿**رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ**﴾ [غافر: ١١]، وقوله تعالى: ﴿**كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ**﴾ [البقرة: ٢٨]، فالمراد أنهم كانوا أمواتاً وهم نطف فى أصلاب آبائهم وفى أرحام أمهاتهم، ثم أحياهم بعد ذلك، ثم أماتهم، ثم يحييهم يوم النشور وليس فى ذلك إماتة أرواحهم قبل يوم القيامة، ثم يحييهم يوم النشور وإلا كانت ثلاث موتات. وصعق الأرواح عند النفخ فى الصور لا يلزم منه موتها، فإن الناس يصعقون يوم القيامة إذا جاء الله لفصل القضاء، وأشرقت الأرض بنوره، وليس ذلك بموت. وسيأتى ذكر ذلك، إن شاء

---

(١) الحديث رواه أحمد بن حنبل ١-١٨، ٢٦، ٣-١٤٦، والترمذى فى الفتن ٧.

(٢) سبق تخريج هذا الحديث.

الله تعالى، وكذلك صعق موسى عليه السلام لم يكن موتا، والذى يدل عليه أن نفخة الصعق – والله أعلم – موت كل من لم يذق الموت قبلها من الخلائق، وأما من ذاق الموت، أو لم يكتب عليه الموت من الحور والولدان وغيرهم فلا تدل الآية على أنه موتة ثانية. والله أعلم.

الإيمان بعذاب القبر ونعيمه

قوله: «وبعذاب القبر لمن كان له أهل، وسؤال منكر ونكير فى قبره عن ربه ودينه ونبيه، على ما جاءت به الأخبار عن رسول الله ﷺ، وعن الصحابة رضوان الله عليهم، والقبر روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النيران».

ش: قال تعالى: ﴿ **وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾ [غافر: ٤٥–٤٦]. وقال تعالى: ﴿ **فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ * يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ * وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ [الطور: ٤٥–٤٧]، وهذا يحتمل أن يراد به عذابهم بالقتل وغيره فى الدنيا، وأن يراد به عذابهم فى البرزخ، وهو أظهر، لأن كثيراً منهم مات ولم يعذب فى الدنيا، أو المراد أعم من ذلك. وعن البراء بن عازب[1] رضى الله عنه، قال: «كنا فى جنازة فى بقيع الغرقد، فأتانا النبىُّ ﷺ، فقعد، وقعدنا حوله، كأن على رؤوسنا الطيرَ، وهو يلحد له، فقال: أعوذ بالله من عذاب القبر، ثلاث مرات، ثم قال: إن العبدَ المؤمنَ إذا كان فى إقبالٍ من الآخرة وانقطاع من الدنيا، نزلت إليه الملائكة، كأن على وجوههم الشمس، معهم كفنٌ من أكفان الجنة، وحنوطٌ من حنوط الجنة، فجلسوا منه مدَّ البصر، ثم يجىء ملكُ الموت حتى يجلسَ عندَ رأسه فيقول: يا أيتها النفس الطيبة، اخرجى إلى مغفرةٍ من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من فىِّ السقاء، فيأخذها، فإذا

---

(١) البراء بن عازب بن الحارث الخزرجى، قائد صحابى من أصحاب الفتوح، أسلم صغيراً وغزا مع رسول الله ﷺ خمس عشرة غزوة، جعله عثمان أميرا على الرى، روى عنه البخارى ومسلم ٣٠٥ أحاديث، توفى عام ٧١هـ.

أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها فى ذلك الكفن وذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض، قال: فيصعدون بها، فلا يمرون بها، يعنى على ملأ من الملائكة، إلا قالوا: ما هذه الروح الطيبة؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه به فى الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء، فيستفتحون له، فيفتح له فيشيعه من كلِّ سماء مقربوها، إلى السماء التى تليها، حتى ينتهى بها إلى السماء التى فيها الله، فيقولُ الله عز وجل: اكتبوا كتابَ عبدى فى عليين، وأعيدوه إلى الأرض، فإنى منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارةً أخرى، قال: فتُعاد روحهُ فى جسده، فيأتيه ملكان، فيُجلسانه، فيقولان له: من ربُّك؟ فيقول ربى الله، فيقولان له: ما دينُك؟ فيقول: دينى الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذى بُعث فيكم؟ فيقول هو رسولُ الله، فيقولان له: ما علْمك؟ فيقول: قرأت كتابَ الله فآمنتُ به وصدقت، فينادى مناد من السماء: أن صدق عبدى، فافرشوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويُفسح له فى قبره مدَّ بصره، قال: ويأتيه رجلٌ حسنُ الوجه، حسنُ الثياب طيِّب الريح، فيقول: أبشر بالذى يسرك، هذا يومك الذى كنتَ تُوعد، فيقول له: من أنت؟ فوجهُك الوجهُ الذى يجىء بالخير، فيقول: أنا عملُك الصالحُ، فيقول: يا رب أقم الساعةَ حتى أرجع إلى أهلى ومالى. قال: وإن العبدَ الكافر إذا كان فى انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكةٌ سودُ الوجوه، معهم المسوحُ، فيجلسون منه مدَّ البصر، ثم يجىء ملكُ الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجى إلى سخط من الله وغضب، فتتفرق فى جسده، فينتزعها كما يُنتزع السفودُ من الصوفِ المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها فى يده طرفة عين، حتى يجعلوها فى تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح خبيثة وُجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملاء من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون فلانابن فلان، باقبح أسمائه التى كان يُسمى بها فى الدنيا، حتى ينتهى بها إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ **لا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاء**

﴿وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠]، يقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجيل، في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحاً، ثم قرأ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربُّك؟ فيقول: هاه هاه، لا أدرى، فيقولان له: ما هذا الرجلُ الذى بُعث فيكم، فيقول: هاه هاه، لا أدرى، فينادى مناد من السماء: أن كذب، فافرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرِّها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلفَ أضلاعه، ويأتيه رجلٌ قبيحُ الوجه، قبيحُ الثياب، منتن الريح، فيقول: أبشر الذى يسوؤك، هذا يومُك الذى كنت تُوعد، فيقول: مَن أنت فوجهُك الوجه الذى يجىء بالشرِّ. فيقول: أنا عملُك الخبيث، فيقول ربِّ لا تقم الساعةَ»[١]. رواه الإمام أحمد وأبو داود. وروى النسائى وابن ماجه أوله، ورواه الحاكم وأبو عوانة الإسفرائينى فى صحيحيهما، وابن حبان.

وذهب إلى موجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث، وله شواهد من الصحيح. فذكر البخارى رحمه الله عن سعيد عن قتادة عن أنس، أن رسول الله ﷺ قال: «إن العبد إذا وُضع فى قبره وتولى عنه أصحابُه، إنه ليسمع قرعَ نعالهم فيأتيه ملكان، فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقولُ فى هذا الرجل، محمد ﷺ؟ فأما المؤمنُ فيقول: أشهد أنه عبدُ الله ورسوله، فيقول له: انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة، فيراهما جميعاً»[٢]. قال قتادة: وروى لنا: أنه يفسح له فى قبره، وذكر الحديث. وفى الصحيحين عن ابن عباس رضى الله عنهما: «أن النبىَّ ﷺ مر بقبرين، فقال: إنهما ليعذبان، وما يعذبان فى كبير، أما أحدُهما فكان لا يستبرىء من البول. وأما الآخرُ فكان يمشى بالنميمة، فدعا بجريدة رطبة فشقها نصفين، وقال: لعله يخفف عنهما مالم

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد وأبو داود،ورواه الحاكم وأبو عوانة الإسفرائينى وابن حبان.
(٢) الحديث رواه أحمد بن حنبل فى مسنده ٦٥–١٤٠، ٣٥٥.

يُيبسا»(١). وفى صحيح أبى حاتم عن أبى هريرة، قال: قال النبى ﷺ: «إذا قبر أحدكم، أو الإنسان، أتاه ملكان أسودان أزرقان: يقال لأحدهما المنكرُ وللآخر: النكيرُ»(٢)، وذكر الحديث إلخ.

وقد تواترت الأخبار عن رسول الله ﷺ فى ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً. وسؤال الملكين، فيجب اعتقاد ثبوت ذلك والإيمان به، ولا يتكلم فى كيفيته، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته، لكونه لا عهد له به فى هذا الدار، والشرع لا يأتى بما تحيله العقول، ولكنه قد يأتى بما تحار فيه العقول. فإن عود الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود فى الدنيا بل تعاد الروح إليه إعادة غير الإعادة المألوفة فى الدنيا. فالروح لها بالبدن خمسة أنواع من التعلق، متغايرة الأحكام: أحدها: تعلقها به فى بطن الأم جنيناً. والثانى: تعلقها به بعد خروجه إلى وجه الأرض. الثالث: تعلقها به فى حال النوم فلها به تعلق من وجه، ومفارقة من وجه. الرابع: تعلقها به فى البرزخ، فإنها وإن فارقته وتجردت عنه فإنها لم تفارقه فراقًا كليًا بحيث لا يبقى لها إليه التفات، فإنه ورد ردها إليه وقت سلام المسلم، وورد أنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه، وهذا الرد إعادة خاصة، لا يوجب حياة البدن قبل يوم القيامة. الخامس: تعلقها به يوم بعث الأجساد، وهو أكمل أنواع تعلقها بالبدن، ولا نسبة لما قبله من أنواع التعلق إليه، إذ هو تعلق لا يقبل البدن معه موتًا ولا نومًا ولا فسادًا، فالنوم أخو الموت. فتأمل هذا يزح عنك إشكالات كثيرة.

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الوضوء ٥٥–٥٦، وجنائز ٨٩، وأدب ٤٦، ٤٩ ورواه مسلم فى الطهارة ١١١، وأبو داود فى الطهارة ١١، والترمذى فى الطهارة ٥٣، والنسائى فى الطهارة ٢٦، ١١٦، وابن ماجه فى الطهارة ٢٦، وأحمد بن حنبل ١–٢٢٥، ٥–٢٥، ٣٤ ولفظه عند مسلم عن أبى عباس. قال: مر رسول الله – ﷺ – على قبرين فقال: أما إنهما ليعذبان وما يعذبان فى كبير أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله. قال فدعا بعسيب رطب فشقه اثنين ثم غرس على هذا واحداً وعلى هذا واحداً ثم قال: لعله أن يخفف عنهما.

(٢) الحديث أخرجه الترمذى ١–١١٩ وقال حديث حسن غريب، وإسناده حسن وفيه رد على من أنكر من المعاصرين تسمية الملكين بالمنكر والنكير.

وليس السؤال فى القبر للروح وحدها، كما قال ابن حزم[1] وغيره، وأفسد منه قول من قال : إنه للبدن بلا روح. والأحاديث الصحيحة ترد القولين. وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعًا، باتفاق أهل السنة والجماعة، تنعم النفس وتعذب مفرده عن البدن ومتصلة به.

واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ، فكل من مات وهو مستحق للعذاب ناله نصيبه منه، قبر أو لم يقبر، أكلته السباع أو احترق حتى صار رمادًا ونسف فى الهواء، أو صلب أو غرق فى البحر، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى القبور. وما ورد من اجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك، فيجب أن يفهم عن الرسول ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عن مراد ما قصده من الهدى والبيان، فكم حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب - ما لا يعلمه إلا الله. بل سوء الفهم عن الله ورسوله أصل كل بدعة وضلالة نشأت فى الإسلام، وهو أصل كل خطأ فى الفروع والأصول، ولا سيما إن أضيف إليه سوء القصد، والله المستعان.

الدور ثلاثة

فالحاصل أن الدور ثلاث : دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار. وقد جعل الله لكل دار أحكامًا تخصها، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان، والأرواح تبعًا لها، وجعل أحكام البرزخ على الأرواح والأبدان تبعًا لها، فإذا جاء يوم حشر الأجساد وقيام الناس من قبورهم - صار الحكم والنعيم والعذاب على الأرواح والأجساد جميعًا. فإذا تأملت هذا المعنى حق التأمل، ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار، مطابق للعقل، وأنه حق لا مرية فيه، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم.

---

(١) هو : على بن أحمد بن سعيد بن حزم الظاهرى، أبو محمد، عالم الأندلس فى عصره، وأحد أئمة الإسلام، ولد بقرطبة عام ٣٨٤هـ، كانت له ولأبيه من قبله رئاسة الوزارة فزهد بها وانصرف إلى العلم والتأليف، من كتبه : الفصل فى الملل والأهواء والنحل، تحقيق الدكتور عبد الرحمن عميره وجمهرة الأنساب، توفى عام ٤٥٦هـ (نفح الطيب ١ : ٣٦٤).

ويجب أن يعلم أن النار التى فى القبر والنعيم، ليست من جنس نار الدنيا ولا نعيمها، وإن كان الله تعالى يحمى عليه التراب والحجارة التى فوقه حتى تكون أعظم حرًا من جمر الدنيا، ولو مسها أهل الدنيا لم يحسوا بها . بل أعجب من هذا أن الرجلين يدفن أحدهما إلى جنب صاحبه، وهذا فى حفرة من النار، وهذا فى روضة من رياض الجنة، لا يصل من هذا إلى جاره شىء من حر ناره، ولا من هذا إلى جاره شىء من نعيمه . وقدرة الله أوسع من ذلك وأعجب، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علمًا . وقد أرانا الله فى هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثير . إذا شاء الله أن يطلع على ذلك بعض عباده أطلعه وغيبه عن غيره، ولو أطلع الله على ذلك العباد كلهم لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب، ولما تدافن الناس، كما فى الصحيح عنه ﷺ : «لولا ألا تدافنوا لدعوتُ الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع»(١) ولما كانت هذه الحكمة منتفية فى حق البهائم سمعت وأدركت .

سؤال منكر ونكير

وللناس فى سؤال منكر ونكير: هل هو خاص بهذه الأمة أم لا؟ ثلاثة أقوال : الثالث التوقف، وهو قول جماعة، منهم أبو عمر ابن عبد البر، فقال : وفى حديث زيد بن ثابت عن النبى ﷺ، أنه قال : «إن هذه الأمة تُبتلى فى قبورها»(٢)، منهم من يرويه «تُسأل»، وعلى هذا اللفظ يحتمل أن تكون هذه الأمة قد خصت بذلك، وهذا أمر لا يقطع به، ويظهر عدم الاختصاص والله أعلم . وكذلك اختلف فى سؤال الأطفال أيضًا : وهل يدوم عذاب القبر أو ينقطع؟ جوابه أنه نوعان : منه ما هو دائم، كما قال تعالى : ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾ [غافر : ٤٦] . وكذلك فى حديث البراء ابن عازب فى قصة الكافر : « ثم يُتح له بابٌ إلى

---

(١) الحديث رواه مسلم ٦٧، فى الجنة والنسائى فى الجنائز ١١٤، وأحمد بن حنبل ٣-١٠٢، ١١١، ١١٤ .

(٢) الحديث رواه مسلم فى الجنة ٦٧، وأحمد بن حنبل ٣-٣، ٢٢٨، ٢٤٦ .

النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة»، رواه الإمام أحمد فى بعض طرقه.
والنوع الثانى: أنه مدة ثم ينقطع، وهو عذاب بعض أهل[1] العصاة الذى خفت جرائمهم، فيعذب بحسب جرمه، ثم يخفف عنه، كما تقدم ذكره فى المحصات العشرة.

مستقر الأرواح بعد الموت

وقد اختلف فى مستقر الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة: فقيل: أرواح المؤمنين فى الجنة وأرواح الكافرين فى النار، وقيل إن أرواح المؤمنين بفناء الجنة على بابها، يأتيهم من روحها ونعيمها ورزقها. وقيل: على أفنية قبورهم. وقال مالك: بلغنى أن الروح مرسلة، تذهب حيث شاءت. وقالت طائفة: بل أرواح المؤمنين عند الله عز وجل، ولم يزيدوا على ذلك وقيل: إن أرواح المؤمنين «بالجابية» من دمشق، وأرواح الكافرين «ببئر برهوت» ببئر بحضرموت. وقال كعب: أرواح المؤمنين فى عليين فى السماء السابعة، وأرواح الكفار فى سجين فى الأرض السابعة تحت خد إبليس. وقيل أرواح المؤمنين ببئر زمزم، وأرواح الكافرين ببئر برهوت. وقيل: أرواح المؤمنين عن يمين آدم، وأرواح الكفار عن شماله. وقال ابن حزم وغيره: مستقرها حيث كانت قبل خلق أجسادها. وقال أبو عمر بن عبد البر: أرواح الشهداء فى الجنة، وأرواح عامة المؤمنين على أفنية قبورهم. وعن ابن شهاب أنه قال: بلغنى أن أرواح الشهداء كطير خضر معلقة بالعرش، تغدو وتروح إلى رياض الجنة، تأتى ربها كل يوم تسلم عليه. وقالت فرقة: مستقرها العدم المحض، وهذا قول من يقول: إن النفس عرض من أعراض البدن، كحياته وإدراكه. وقولهم مخالف للكتاب والسنة. وقالت فرقة: مستقرها بعد الموت أبدان أخر تناسب أخلاقها وصفاتها التى اكتسبتها فى حال حياتها. فتصير كل روح إلى بدن حيوان يشاكل تلك الروح. وهذا قول التناسخية منكرى المعاد. وهو قول خرج عن أهل الإسلام كلهم. ويضيق هذا المختصر عن بسط أدلة هذه الأقوال والكلام عليها.

---

(١) سقط من ب: أهل.

ويتلخص من أدلتها: أن الأرواح في البرزخ متفاوتة أعظم تفاوت: فمنها: أرواح في أعلى عليين، في الملأ الأعلى، وهي أرواح الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه، وهم متفاوتون في منازلهم. ومنها أرواح في حواصل طير خضر، تسرح في الجنة حيث شاءت، وهي أرواح بعض الشهداء، لا كلهم، بل من الشهداء من تحبس روحه عن دخول الجنة لدين عليه. كما في المسند عن عبد الله بن جحش: «أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله: مالي إن قُتلت في سبيل الله؟ قال: الجنةُ، فلما ولّى، قال: إلا الدَّيْن، سارني به جبريلُ آنفًا»[1]. ومن الأرواح من يكون محبوسًا على باب الجنة، كما في الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «رأيت صاحبكم محبوسًا على باب الجنة»[2]. ومنهم من يكون محبوسًا في قبره، ومنهم من يكون في الأرض، ومنها أرواح تكون في تنور الزناة والزواني، وأرواح في نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة، كل ذلك تشهد له السنة، والله أعلم. وأما الحياة التي اختص بها الشهيد وامتاز بها عن غيره، في قوله تعالى: ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وقوله تعالى: ﴿ **وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ** ﴾ [البقرة: ١٥٤]، (فهي): أن الله تعالى جعل أرواحهم في أجواف طير خضر. كما في حديث عبد الله بن عباس أنه قال: قال رسول الله ﷺ؛ «ما أصيب إخوانُكم، يعني يومَ أحدٍ، جعل الله أرواحَهم في جوف طيرٍ خضرٍ، ترد أنهارَ الجنة، وتأكل من ثمارها، تأوى إلى قناديل من ذهب مظللةً في ظلِّ العرشِ»[3]، الحديث رواه الإمام أحمد

---

(١) الحديث رواه مسلم في الإمارة ١٢٠، ١١٧، ١١٩، والترمذي في فضائل الجهاد ١٣، والنسائي في الجهاد ٣٢، وابن ماجة في الجهاد ١٠، والموطأ جهاد ٣١، والدارمي في الجهاد ٢٠، وأحمد بن حنبل ٢-٢٢٠.

(٢) الحديث رواه ابن ماجة في الصدقات ٢٠، وأحمد بن حنبل ٥-١١، ولفظه عند ابن ماجه.

(٣) الحديث رواه مسلم في الإمارة ١٢١، وأبو داود في الجهاد ٢٥، والترمذي في تفسير سورة ٣، وفضائل الجهاد وابن ماجه في الجنائز ٤، والدارمي في الجهاد ١٨، وأحمد بن حنبل ١-٢٦٦، ٦-٣٨٦.

وأبو داود، وبمعناه فى حديث ابن مسعود، رواه مسلم. فإنهم لما بذلوا أبدانهم لله عز وجل حتى أتلفها أعداؤه فيه، أعاضهم منها فى ا لبرزخ أبدانًا خيرًا منها تكون فيها إلى يوم القيامة، ويكون نعيمها بواسطة تلك الأبدان أكمل من تنعم الأرواح المجردة عنها، ولهذا كانت نسمة المؤمن من صورة طير، أو كطير، ونسمة الشهيد فى جوف طير. وتأمل لفظ الحديثين ففى الموطأ أن كعب بن مالك كان يحدث أن رسول الله ﷺ، قال: «إن نسمةَ المؤمن طائرٌ يعلق فى شجر الجنة، حتى يرجعه اللهُ إلى جسده يومَ يبعثه»[1]. فقوله (نسمة المؤمن) يعم الشهيد وغيره، ثم خص الشهيد بأن قال: «هى فى جوف طير خضر»، ومعلوم أنها إذا كانت فى جوف طير صدق عليها أنها طير، فتدخل فى عموم الحديث الآخر بهذا الاعتبار، فنصيبهم من النعم فى البرزخ أكمل من نصيب غيرهم فى الأموات على فرشهم، وإن كان الميت أعلى درجة من كثير منهم، فلهم نعيم يختص به لا يشاركه فيه من هو دونه، والله أعلم وحرم الله على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء، كما روى فى السنن، وأما الشهداء فقد شوهد منهم بعد مدد من دفنهم كما هو لم يتغير، فيحتمل بقاؤه كذلك فى تربته إلى يوم محشره ويحتمل أنه يبلى بطول المدة، والله أعلم. وكأنه – والله أعلم – كلما كانت الشهادة أكمل والشهيد أفضل، كان بقاء جسده أطول.

* * *

الإيمان بالبعث والجزاء

قوله: «ونؤمن بالبعث وجزاء الأعمال يوم القيامة، والعرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب والعقاب، والصراط والميزان».

ش: الإيمان بالمعاد مما دل عليه الكتاب والسنة، والعقل والفطرة السليمة. فأخبر الله سبحانه عنه فى كتابه، وأقام الدليل عليه، ورد على المنكرين، فى غالب سور القرآن وذلك: أن الأنبياء عليهم السلام كلهم متفقون على الإيمان

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

بالله، فإن الإقرار بالرب عام في بني آدم، وهو فطري، كلهم يقر بالرب، إلا من عاند، كفرعون، بخلاف الإيمان باليوم الآخر، فإن منكريه كثيرون، ومحمد ﷺ لما كان خاتم الأنبياء، وكان قد بعث هو والساعة كهاتين، وكان هو الحاشر المقفى، بيَّن تفصيل الآخرة بيانًا لا يوجد في شيء من كتب الأنبياء [قبله] ولهذا ظن طائفة من المتفلسفة ونحوهم، أنه لم يفصح بمعاد الأبدان إلا محمد ﷺ، وجعلوا هذا حجة لهم في أنه من باب التخييل، والخطاب الجمهوري.

والقرآن بيَّن معاد النفس عند الموت، ومعاد البدن عند القيامة الكبرى، في غير موضع. وهؤلاء ينكرون القيامة الكبرى وينكرون معاد الأبدان ويقول من يقول منهم إنه لم يخبر به إلا محمد - ﷺ على طريق التخييل - وهذا كذب - فإن القيامة الكبرى هي معروفة عند الأنبياء، من آدم إلى نوح، إلى إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم وقد أخبر الله بها من حين أهبط آدم، فقال تعالى: ﴿**قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ**﴾ [الأعراف: ٢٤] ﴿**قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ**﴾ [الأعراف: ٢٥]. ولما قال إبليس اللعين: رب فأنظرني إلى يوم يبعثون. قال: ﴿**قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ * إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ**﴾ [ص: ٨٠-٨١]. وأما نوح عليه السلام فقال: ﴿**وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا**﴾ [نوح: ١٧-١٨]. وقال إبراهيم عليه السلام: ﴿ **وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ**﴾ [الشعراء: ٨٢]. إلى آخر القصة. وقال: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ**﴾ [إبراهيم: ٤١]. وقال: ﴿**رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ**﴾ [البقرة: ٢٦٠]. الآية، أما موسى عليه السلام، فقال تعالى لما ناجاه: ﴿**إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ * فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَىٰ**﴾ [طه: ١٥، ١٦]، بل مؤمن آل فرعون كان يعلم المعاد، ولما آمن بموسى. قال تعالى حكاية عنه: ﴿**وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ**

الله فما له من هاد﴾ [غافر: ٣٢–٣٣] إلى قوله: ﴿يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع وإن الآخرة هي دار القرار﴾ [غافر: ٣٩] إلى قوله: ﴿أدخلوا آل فرعون أشد العذاب﴾ [غافر:٤٦]. وقال موسى: ﴿واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة إنا هدنا إليك﴾ [الأعراف: ١٥٦]. وقد أخبر الله فى قصة البقرة: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها كذلك يحيي الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون﴾ [البقرة: ٧٣]، وقد أخبر الله أنه أرسل الرسل مبشرين ومنذرين. فى آيات (من) القرآن وأخبر عن أهل النار أنهم إذا قال لهم خزنتها: ﴿ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ [الزمر: ٧١]. وهذا اعتراف من أصناف الكفار الداخلين جهنم أن الرسل أنذرتهم لقاء يومهم هذا. فجميع الرسل أنذروا بما أنذر به خاتمهم، من عقوبات المذنبين فى الدنيا والآخرة، فعامة سور القرآن التى فيها ذكر الوعد والوعيد، يذكر ذلك فيها: فى الدنيا والآخرة، وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد، فقال: ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب﴾ [سبأ: ٣] الآيات. وقال تعالى: ﴿ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين﴾ [يونس: ٥٣] وقال تعالي: ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ [التغابن:٧]. وأخبر عن اقترابها. فقال: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ [القمر: ١]. ﴿اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون﴾ [الأنبياء: ١]. ﴿سأل سائل بعذاب واقع * للكافرين﴾ [المعارج: ١، ٢] إلى أن قال: ﴿إنهم يرونه بعيدا * ونراه قريبا﴾ [المعارج: ٦، ٧]. وذم المكذبين بالمعاد، فقال: ﴿قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها﴾ [الأنعام: ٣١]. ﴿ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد﴾ [الشورى: ١٨]. ﴿بل ادارك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها بل هم منها عمون﴾ [النمل: ٦٦]، ﴿وأقسموا بالله جهد

أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا ﴾ [النحل: ٣٨] إلى أن قال: ﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ ﴾ [النحل: ٣٩]. ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [غافر: ٥٩]. ﴿ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴾ [الإسراء: ٩٧]، ﴿ ذَٰلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء: ٩٨]. ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٩٩]. ﴿ وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا * أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا * يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٤٩ – ٥٢].

فتأمل ما أجيبوا به عن كل سؤال على التفصيل: فإنهم قالوا أولاً: ﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء: ٤٩]؟. فقيل لهم فى جواب هذا السؤال: إن كنتم تزعمون أنه لا خالق لكم ولا رب لكم، فهلا كنتم خلقًا لا يفنيه الموت، كالحجارة والحديد وما هو أكبر فى صدوركم من ذلك. فإن قلتم: كنا خلقًا على هذه الصفة التى لا تقبل البقاء – فما الذى يحول بين خالقكم ومنشئكم وبين إعادتكم خلقًا جديدًا؟. وللحجة تقدير آخر، وهو: لو كنتم من حجارة أو حديد أو خلق أكبر منهما، (فإنه) قادر عن أن يفنيكم ويحيل ذواتكم، وينقلها من حال إلى حال، ومن يقدر على التصرف فى هذه الأجسام: مع شدتها وصلابتها، بالإفناء والإحالة – فما الذى يعجزه فيما دونها؟ ثم أخبر أنهم يسألون آخرًا بقولهم: من يعيدنا إذا استحالت جسومنا وفنيت؟ فأجابهم بقوله: (قل الذى فطركم أول مرة). فلما أخذتهم الحجة، ولزمهم

حكمها، انتقلوا إلى سؤال آخر يتعللون به بعلل المنقطع. وهو قولهم: متى هو؟ فأجيبوا بقوله: (عسى أن يكون قريبًا).

ومن هذا قوله: ﴿ **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ** ﴾ [يس: ٧٨]؟ إلى آخر السورة، فلو رام أعلم البشر وأفصحهم وأقدرهم على البيان، أن يأتي بأحسن من هذه الحجة، أو بمثلها، بالفاظ تشابه هذه الألفاظ في الإيجاز ووضوح الأدلة وصحة البرهان — : لما قدر . فإنه سبحانه افتتح هذه الحجة بسؤال أورده ملحد، اقتضى جوابًا، فكان في قوله: (ونسى خلقه) — ما يفى بالجواب. وأقام الحجة وأزال الشبهة. لما أراد سبحانه تأكيداً للحجة وزيادة تقريرها— فقال: ﴿ **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ** ﴾، فاحتج بالإبداء على الإعادة، وبالإنشاء الأول على النشأة الآخرى. إذ كل عاقل يعلم ضروريًا أن من قدر على هذه (قدر على هذه)، وأنه لو كان عاجزًا عن الثانية لكان عن الأولى أعجز وأعجز. ولما كان الخلق يستلزم قدرة الخالق على المخلوق، وعلمه بتفاصيل خلقه — أتبع ذلك بقوله: ﴿ **وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ** ﴾ [يس: ٧٩]، فهو عليم بتفاصيل الخلق الأول وجزئياته، ومواده وصورته، فكذلك الثانى. فإذا كان تام العلم. كامل القدرة، كيف يتعذر عليه أن يحيى العظام وهى رميم؟ ثم أكد الأمر بحجة قاهرة، وبرهان، يتضمن جوابًا عن سؤال آخر يقول: العظام إذا صارت رميمًا عادت طبيعتها باردة يابسة، والحياة لا بد أن تكون مادتها وحاملها طبيعة حارة رطبة بما يدل على أمر البعث، ففيه الدليل والجواب، فقال: ﴿ **الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَاراً فَإِذَا أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ** ﴾ [يس: ٨٠] فأخبر سبحانه بإخراج هذا العنصر، الذى هو فى غاية الحرارة واليبوسة من الشجر الأخضر الممتلىء من الرطوبة والبرودة فالذى يخرج الشىء من ضده، وتنقاد له مواد المخلوقات وعناصرها ولا تستعصى عليه، هو الذى يفعل ما أنكره الملحدون معه: من إحياء العظام وهى رميم. ثم أكد هذا بأخذ الدلالة من الشىء الأجل الأعظم، على الأيسر الأصغر، فإن كل عاقل يعلم أن من قدر على العظيم، فهو على ما دونه بكثير أقدر وأقدر، فمن قدر على حمل قنطار كان على حمل أوقية أشد

اقتدارًا، فقال: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ﴾ [يس: ٨١]؟ فأخبر أن الذى أبدع السموات والأرض، على حالتهما، وعظم شأنهما، وكبر أجسامهما، وسعتهما، وعجيب خلقهما – أقدر على أن يحيى عظامًا قد صارت رميمًا، فيردها إلى حالتها الأولى. كما قال فى موضع آخر: ﴿ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧]. وقال: ﴿ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ ﴾ [يس: ٨١] ثم أكد سبحانه ذلك وبينه ببيان آخر، وهو أنه ليس فعله بمنزلة غيره، الذى يفعل بالآلات والكلفة، والنصب والمشقة، ولا يمكنه الاستقلال بالفعل بل لا بد معه من آلة ومعين، بل يكفى خلقه لما يريد أن يخلقه ويكونه نفس إرادته، وقوله للمكون (كن)، فإذا هو كائن كما شاءه وأراده. ثم ختم هذه الحجة بإخباره أن ملكوت كل شىء بيده، فيتصرف فيه بفعله وقوله، ﴿ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾. ومن هذا قوله سبحانه: ﴿ أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَىٰ * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴾ [القيامة: ٣٦–٤٠]. فاحتج سبحانه على أنه لا يتركه مهملاً عن الأمر والنهى، والثواب والعقاب، وأن حكمته وقدرته تأبى ذلك أشد الإباء. كما قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥]. إلى آخر السورة. فإن من نقله من النطفة إلى العلقة، ثم إلى المضغة، ثم شق سمعه وبصره، وركّب فيه الحواس والقوى، والعظام والمنافع والأعصاب والرطوبات التى هى أشده، وأحكم خلقه غاية الإحكام، وأخرجه على هذا الشكل والصورة، التى هى أتم الصور وأحسن الإشكال، كيف يعجز عن إعادته وإنشائه مرة ثانية؟ أم كيف تقتضى حكمته وعنايته أن يتركه سدى؟ فلا يليق ذلك بحكمته، ولا تعجز عنه قدرته. فانظر إلى هذا الاحتجاج العجيب بالقول الوجيز، الذى لا يكون أوجز منه والبيان الجليل، الذى لا يتوهم أوضح منه، ومأخذه القريب الذى لا تقع الظنون على أقرب منه.

وكم في القرآن من مثل هذا الاحتجاج، كما في قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ﴾ [الحج: ٥]، إلى أن قال: ﴿ وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ ﴾ [الحج: ٧]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ [المؤمنون: ١٢]، إلى أن قال: ﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٦] وذكر قصة أصحاب الكهف، وكيف أبقاهم موتى ثلاثمائة سنة شمسية، وهي ثلاثمائة وتسع سنين قمرية وقال فيها: ﴿ وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيهَا ﴾ [الكهف: ٢١].

والقائلون بأن الأجسام مركبة من الجواهر المفردة، لهم في المعاد خبط واضطراب. وهم فيه على قولين: منهم من يقول: تعدم الجواهر ثم تعاد ومنهم من يقول: تفرق الأجزاء ثم تجمع. فأورد عليهم: الإنسان الذي يأكله حيوان، وذلك أكله إنسان، فإن أعيدت تلك الأجزاء من هذا لم تعد من هذا؟ وأورد عليهم: أن الإنسان يتحلل دائماً، فماذا الذي يعاد؟ أهو الذي كان وقت الموت؟ فإن قيل بذلك، لزم أن يعاد على صورة ضعيفة، وهو خلاف ما جاءت به النصوص، وإن كان غير ذلك، فليس بعض الأبدان بأولى من بعض. فادعى بعضهم أن في الإنسان أجزاء أصلية لا تتحلل، ولا يكون فيها شيء من ذلك الحيوان الذي أكله الثاني. والعقلاء يعلمون أن بدن الإنسان نفسه كله يتحلل، ليس فيه شيء باق، فصار ما ذكروه في المعاد مما قوى شبهة المتفلسفة في إنكار معاد الأبدان.

والقول الذي عليه السلف وجمهور العقلاء: أن الأجسام تنقلب من حال إلى حال، فتستحيل تراباً، ثم ينشئها الله نشأة أخرى، كما استحال في النشأة الأول: فإنه كان نطفة، ثم صار علقة، ثم صار مضغة ثم صار عظاماً ولحماً، ثم أنشأه خلقاً سوياً. كذلك الإعادة يعيده الله بعد أن يبلى كله إلا عجب الذنب، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ، أنه قال: «كلُّ ابن آدم يبلى إلا عجب

الذنب، منه خلق ابن آدم، ومنه يُركّب»[1]، وفى حديث آخر: «إن السماء تمطر مطرًا كمنىّ الرجال، ينبتون فى القبور كما ينبت النبات»[2] فالنشأتان نوعان تحت جنس. يتفقان ويتماثلان من وجه، ويفترقان ويتنوعان من وجه. والمعاد هو الأول بعينه، وإن كان بين لوازم الإعادة ولوازم البداءة فرق فعجب الذنب هو الذى يبقى، وأما سائره فيستحيل، فيعاد من المادة التى استحال إليها. ومعلوم أن من رأى شخصًا وهو صغير، ثم رآه وقد صار شيخًا، علم أن هذا هو ذاك، مع أنه دائمًا فى تحلل واستحالة. وكذلك سائر الحيوان والنبات، فمن رأى شجرة وهى صغيرة، ثم رآها كبيرة، قال: هذه تلك، وليست صفة تلك النشأة الثانية مماثلة لصفة هذه النشأة، حتى يقال إن الصفات هى المغيرة، لا سيما أهل الجنة إذا دخلوها، فإنهم يدخلونها على صورة آدم، طوله ستون ذراعًا، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما، وروى: أن عرضه سبعة أذرع، وتلك نشأة باقية غير معرضة للآفات، هذه النشأة فانية معرضة للآفات.

وقوله «وجزاء الأعمال» – قال تعالى: ﴿ **مالك يوم الدين** ﴾ [الفاتحة: ٤]. ﴿ **يومئذ يوفيهم الله دينهم الحق ويعلمون أن الله هو الحق المبين** ﴾ [النور: ٢٥]. والدين: الجزاء، يقال كما تدين تدان، أى: ما تجازى تجازَى وقال تعالى: ﴿ **جزاء بما كانوا يعملون** ﴾ [السجدة: ١٧]. ﴿ **جزاء وفاقا** ﴾ [النبأ: ٢٦]. ﴿ **من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها وهم لا يظلمون** ﴾ [الأنعام: ١٦٠]. ﴿ **من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فزع يومئذ**

---

(١) الحديث رواه البخارى فى التفسير سورة ٣٩، ٧٨، ورواه مسلم فى الفتن ١٤١–١٤٣، وأبو داود فى السنة ٢٢، والنسائى فى الجنائز ١١٧، وابن ماجة فى الزهد ٣٢، والموطأ فى الجنائز ٤٩، وأحمد بن حنبل ٢–٣٢٢، ٤٢٨.

(٢) أخرجه الطبرانى فى المعجم الكبير فى حديث طويل عن أبى الزعراء. قال: ذكروا عند عبد الله الدجال فقال: فذكره بطوله موقوفًا عليه حكم المرفوع لكنه منقطع بين أبى الزعراء واسمه يحيى بن الوليد، لم يرو عن أحد من الصحابة بل عن بعض التابعين، ثم إن فى الحديث فقرة لم تذكر هنا مخالفة لحديث صحيح نبه عليه الهيثمى (١٠–٣٣٠) وقد أخرجه الحاكم (٤–٦٠٠) وصححه على شرطهما ورده الذهبى بأنهما ما احتجا بأبى الزعراء، وفاته أنه منقطع كما بينا – الألبانى.

آمنون * ومن جاء بالسيئة فكبت وجوههم في النار هل تجزون إلا ما كنتم تعملون ﴾ [النمل: ٨٩-٩٠]. ﴿ من جاء بالحسنة فله خير منها ومن جاء بالسيئة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون ﴾ [القصص: ٨٤]. وأمثال ذلك، وقال ﷺ، فيما يروى عن ربه عز وجل، من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه: «يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثم أوفيكم إياها، فمن وجد خيرا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[1]. وسيأتي لذلك زيادة بيان عن قريب، إن شاء الله تعالى.

العرض والحساب

وقوله: «والعرض والحساب، وقراءة الكتاب، والثواب»:

ش: قال تعالى: ﴿ فيومئذ وقعت الواقعة * وانشقت السماء فهي يومئذ واهية * والملك على أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية * يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴾ [الحاقة: ١٥-١٨]، إلى آخر السورة. ﴿ يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه * فأما من أوتي كتابه بيمينه * فسوف يحاسب حسابا يسيرا * وينقلب إلى أهله مسرورا * وأما من أوتي كتابه وراء ظهره * فسوف يدعو ثبورا * ويصلى سعيرا * إنه كان في أهله مسرورا * إنه ظن أن لن يحور * بلى إن ربه كان به بصيرا ﴾ [الانشقاق: ٦-١٥]. ﴿ وعرضوا على ربك صفا لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة ﴾ [الكهف: ٤٨]. ﴿ ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا ﴾ [الكهف: ٤٩]. ﴿ يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ﴾ [إبراهيم: ٤٨]، إلى آخر السورة. ﴿ رفيع الدرجات ذو العرش يلقي

---

(١) الحديث رواه الإمام مسلم وأحمد بن حنبل.

الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [غافر: ١٥]، إلى قوله: ﴿ **إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [غافر: ١٧]. ﴿ **وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٢٨١]. وروى البخارى رحمه الله فى صحيحه، عن عائشة، أن النبى ﷺ قال: ليس أحدٌ يحاسب يومَ القيامة إلا هلك، فقلت: يا رسول الله، أليس قد قال الله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا** ﴾ [الانشقاق: ٧-٨]؟ فقال رسولُ الله ﷺ: إنما ذلك العرض»[١]. «وليس أحد يُناقش الحسابُ يومَ القيامة إلا عُذب»[٢] يعنى أنه لو ناقش فى حسابه لعبيده لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولكنه تعالى يعفو ويصفح. وسيأتى لذلك زيادة بيان، إن شاء الله تعالى. وفى الصحيح عن النبى ﷺ، أنه قال: «إن الناس يُصعقون يومَ القيامة، فأكون أولَ من يفيق، فإذا موسى آخذٌ بقائمة العرش، فلا أدرى أفاق قبلى، أم جُوزِيَ بصعقة يوم الطور؟»[٣].

وهذا صعق فى موقف القيامة، إذا جاء الله لفصل القضاء، وأشرقت الأرض بنوره، فحينئذ يصعق الخلائق كلهم. فإن قيل: كيف تصنعون بقوله فى الحديث «إن الناس يُصعقون يوم القيامة، فأكون أول من تنشق عنه الأرض، فأجد موسى باطشًا بقائمة العرش»[٤] قيل: لا ريب أن هذا اللفظ قد ورد هكذا، ومنه نشأ الأشكال، ولكنه دخل فيه على الراوى حديث فى حديث، فركّب بين اللفظين فجاء هذان الحديثان هكذا: أحدهما: «أن الناس يصعقون يومَ القيامة فأكون أولَ من يفيق»، كما تقدم. والثانى: «أنا أول من تنشق عنه الأرض يوم القيامة»[٥] فدخل على الراوى هذا الحديث فى الآخر. وممن نبه على هذا

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الرقاق ٤٩، وتفسير ٨٤، ورواه أحمد بن حنبل فى مسنده ٦-٣، ٤١، ٢٠٦.

(٢) الحديث رواه البخارى فى علم ٣٥ وتفسير سورة ٨٤ ورقاق ٤٩، ومسلم فى الجنة ٧٩-٨٠، وأبو داود فى الجنائز ٨، والترمذى فى القيامة ٥، وتفسير سورة ٨٤، وأحمد بن حنبل ٦-٤٧، ٤٨، ٩١، ١٠٨، ١٢٧، ١٨٥، ٢٠٦.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث.

(٤) الحديث أخرجه البخارى فى أول كتاب الخصومات من حديث وهيب، وأخرجه مسلم رقم ٢٣٧٤ من طريق سفيان عن عمرو بن يحيى.

(٥) رواه مسلم رقم ٢٢٧٨ باب تفضيل نبينا - ﷺ - وأبو داود وأحمد.

أبو الحجاج المزّى. وبعده الشيخ شمس الدين بن القيم، وشيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير، رحمهم الله. وكذلك اشتبه على بعض الرواة، فقال: «فلا أدرى أفاقَ قبلى.أم كان ممن استثنى اللهُ عز وجل»[1]؟ والمحفوظ الذى تواطأت عليه الروايات الصحيحة هو الأول، وعليه المعنى الصحيح، فإن الصعق يوم القيامة لتجلى الله لعباده إذا جاء لفصل القضاء، فموسى عليه السلام إن كان لم يصعق معهم، فيكون قد جوزى بصعقة يوم تجلى ربه للجبل فجعله دكًا، فجعلت صعقة هذا التجلى عوضًا عن صعقة الخلائق لتجلى ربه يوم القيامة. فتأمل هذا المعنى العظيم ولا تهمله. وروى الإمام أحمد والترمذى، وأبو بكر بن أبى الدنيا، عن الحسن، قال: سمعت أبا موسى الأشعرى يقول: قال رسول الله ﷺ: «يعرض الناس يوم القيامة ثلاث عرضات، فعرضتان جدال ومعاذير، وعرضة تطاير الصحف، فمن أوتى كتابه بيمينه، وحوسب حسابًا يسيرًا، دخل الجنة، ومن أوتى كتابه بشماله، دخل النار»[2] وقد روى ابن أبى الدنيا[3] عن ابن المبارك: أنه أنشد فى ذلك شعرًا:

وطارت الصحف فى الأيدى منشرة	فيها السرائرُ والأخبار تطَّلعُ
فكيف سهوك والأنباءُ واقعة	عما قليل، ولا تدرى بما تقعُ
أفى الجنانِ وفوزٍ لا انقطاع له	أم الجحيمِ فلا تبقى ولا تدعُ
تهوى بساكنها طَوْرًا وترفعُهم	إذا رجَوا مخرجًا عن غمِّها قمعوا
طال البكاءُ فلَم يرحمْ تضرُّعَهم	فيها، ولا رقيةٌ تغنى ولا جزع
لينفع العلمُ قبلَ الموت عالمه	قد سال قوم بها الرُّجعَى فما رجعوا

(١) الحديث صحيح.

(٢) قال الشيخ الألبانى ضعيف، لأن الحسن البصرى مدلس وقد عنعنه، وهذه علة وإن ثبت سماعه عن أبى هريرة وأبى موسى، فإن ثبوت مطلق السماع لا يغنى فى رواية المدلس والحديث رواه الترمذى فى كتاب الزهد رقم ٢٥٤٢، ورواه ابن ماجه فى كتاب الزهد باب: ذكر البعث رقم ٤٢٧٧.

(٣) ابن أبى الدنيا: هو أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد بن سفيان بن قيس القرشى البغدادى، ولد سنة ٢٠٨هـ، قضى حياته فى دراسة الحديث والأخبار وروايتهما. من مؤلفاته: الفرج بعد الشدة، ومكارم الأخلاق، وذم الهوى، توفى سنة ٢٨١هـ رحمه الله. (الأعلام، ج٤، صفحة ٢٦٠).

وقوله (والصراط) — أى ونؤمن بالصراط، وهو جسر على جهنم، إذ انتهى الناس بعد مفارقتهم مكان الموقف إلى الظلمة التى دون الصراط، كما قالت عائشة رضى الله عنها: «إن رسول الله ﷺ سئل: أين الناس يومَ تبدَّل الأرضُ غير الأرض والسموات؟ فقال: هم فى الظلمة دونَ الجسر»(١). وفى هذا يفترق المنافقون عن المؤمنين، ويتخلفون عنهم، ويسبقهم المؤمنون، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم. وروى البيهقى بسنده، عن مسروق، عن عبد الله، قال: «يجمع اللهُ الناسَ يومَ القيامة»، إلى أن قال: «فيعطون نورَهم على قدر أعمالهم، وقال: فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل بين يديه ومنهم من يعطى نورُه فوق ذلك ومنهم من يعطى نورهُ مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يُعطى دون ذلك بيمينه، حتى يكون آخر من يُعطى نوره على إبهام قدمه، يضىء مرة ويطفأُ مرة، إذا أضاء قدَّم قدمَه، وإذا طفىء قام. قال: فيمر ويمرون على الصراط، والصراط كحدِّ السيف، دخض، مزلة، فيقال لهم: امضوا على قدر نوركم، فمنهم من يمر كانقضاض الكواكب، ومنهم كالريح، ومنهم من يمر كالطرف، ومنهم من يمر كشدِّ الرجل، يرمل رملاً، فيمرون على قدر أعمالهم، حتى يمر الذى نوره على إبهام قدمه، تخرُّ يَدٌ، وتعلق يد، وتخر رجل، وتعلق رجل، وتصيب جوانبه النار، فيخلصون، فإذا خلصوا قالوا: الحمد لله الذى نجانا منك بعد أن أراناك، لقد أعطانا الله ما لم يُعط أحد»(٢). الحديث.

---

(١) الحديث رواه مسلم فى كتاب الحيض باب: بيان صفة منى الرجل والمرأة وأن الولد مخلوق من مائهما وهو جزء من حديث طويل. ولفظه: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات..؟ فقال رسول الله ﷺ: هم فى الظلمة دون الجسر. وقد ورد هذا الحديث بمعناه فى سنن ابن ماجه كتاب الزهد تحت رقم ٤٢٧٩ بلفظ: «يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات فأين يكون الناس يومئذ..؟ قال: على الصراط».

(٢) الحديث أخرجه الحاكم ٢-٣٧٦ وقال صحيح على شرط الشيخين ووافقه الذهبى. قال الألبانى: وفيه يزيد بن عبد الرحمن أبو خالد الدالاتى، ولم يخرج له الشيخان شيئًا، ثم هو وإن كان صدوقًا فقد كان يخطىء كثيرًا وكان يدلس كما فى التقريب، وقد أخرجه الحاكم أيضا مطولاً ٤-٥٩٠-٥٩٢ (وكذلك الطبرانى فى المعجم الكبير ٣-٤٦-٢-٤٧-٢) من طريق أبى خالد هذا عن ابن مسعود مرفوعًا وقد تابعه زيد بن أبى أنيسة مرفوعًا أيضا بتمامه عند الطبرانى، وزيد ثقة فصح بذلك الحديث والحمد لله.

واختلف المفسرون في المراد بالورود المذكور في قوله تعالى: ﴿ **وإن منكم إلاَّ واردها** ﴾ [مريم: ٧١] - ما هو؟ والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط، قال تعالى: ﴿ **ثمَّ ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا** ﴾ [مريم: ٧٢] وفي الصحيح أنه ﷺ قال: «والذى نفسى بيده، لا يلج النار أحدٌ بايع تحت الشجرة»[١] قالت حفصة: فقلت: يا رسول الله، أليس الله يقول: ﴿ **وإن منكم إلاَّ واردها** ﴾؟ فقال: ألم تسمعيه قال: ﴿ **ثمَّ ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا** ﴾ [مريم: ٧٢]. أشار ﷺ إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها، وأن النجاة من الشر لا يستلزم حصوله، بل تستلزم انعقاد سببه، فمن طلبه عدوه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه، يقال: نجّاه الله منهم. وفي هذا قال تعالى: ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا هودا** ﴾ [هود: ٥٨]. ﴿ **فلما جاء أمرنا نجينا صالحا** ﴾ [هود: ٦٦]. ﴿ **ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا** ﴾ [هود: ٩٤]. ولم يكن العذاب أصابهم ولكن أصاب غيرهم، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك. وكذلك حال الوارد في النار، يمرون فوقها على الصراط، ثم ينجي الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيًا. فقد بين ﷺ في حديث جابر المذكور: أن الورود هو الورود على الصراط. وروى الحافظ أبو نصر الوائلي، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال ﷺ: «علّم الناس سنتي وإن كرهوا ذلك. وإن أحببت ألا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة، فلا تحدثن في دين الله حدثًا برأيك»[٢] أورده القرطبي. وروى أبو بكر بن أحمد بن سليمان النجار، عن يعلى ابن منبه، عن رسول الله ﷺ، قال: «تقول النارُ للمؤمن يومَ القيامة: جز يا مؤمن، فقد أطفأ نورُك لهبي»[٣].

---

(١) الحديث رواه الترمذي في المناقب ٥٧-٥٨ بلفظ: «لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة».

(٢) موضوع، وهو قطعة من حديث رواه أبو نعيم، والخطيب عن أبي هريرة مرفوعًا، وذكره ابن الجوزي في الموضوعات، وذكره الشيخ الألباني في الأحاديث الضعيفة «٢٦٣».

(٣) ورد هذا الحديث في حلية الأولياء، ج٩ ص٣٢٩. وذكره القرطبي في تفسيره، ج١١، ص١٤١، وذكره صاحب كتاب كشف الخفاج ١، ص٣١٣. وجاء في سنده منصور بن عمار الواعظ، ليس بالقوي ورواه الطبراني، وفيه سليم بن منصور بن عمار وهو ضعيف.

الإيمان بالميزان

وقوله « والميزان » :

أى ونؤمن بالميزان، قال تعالى : ﴿ **وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ** ﴾ [الأنبياء : ٤٧]، وقال تعالى : ﴿ **فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ** ﴾ [المؤمنون : ١٠٢-١٠٣]، قال القرطبى : قال العلماء : إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال، لأن الوزن للجزاء، فينبغى أن يكون بعد المحاسبة، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال، والوزن لإظهار مقاديرها، ليكون الجزاء بحسبها، قال : وقوله : (ونضع الموازين القسطَ ليوم القيامة) - يحتمل أن يكون ثم موازين متعددة توزن فيها الأعمال، ويحتمل أن يكون المراد الموزونات، فجمع باعتبار تنوع الأعمال والله أعلم.

والذى دلت عليه السنة : أن ميزان الأعمال له كفتان حسيتان مشاهدتان. وروى الإمام أحمد، من حديث أبى عبد الرحمن الحبلى، قال سمعت عبد الله بن عمرو يقول : قال رسول الله ﷺ : « إن الله سيخلص رجلاً من أمتى على رؤوس الخلائق يوم القيامة. فينشر عليه تسعةً وتسعين سجلاً، كل سجلٍ مد البصر، ثم يقول له : أتنكر من هذا شيئًا ؟ أظلمتك كتبتى الحافظون ؟ قال : لا، يا رب، فيقول : ألك عذرٌ أو حسنة ؟ فيبهتُ الرجلُ. فيقول : لا، يا رب، فيقول : بلى، إن لك عندنا حسنةً واحدة، لا ظلمَ اليومَ عليك، فتخرج له بطاقةٌ فيها : أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فيقول أحضروه، فيقول : يا رب، وما هذه البطاقة مع هذه السجلات ؟ فقال : إنك لا تظلمُ قال : فتوضع السجلات فى كفة، (والبطاقة فى كفة)، قال : فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، ولا يثقل شىء بسم الله الرحمن الرحيم »[١]. وهكذا رواه الترمذى، وابن أبى الدنيا، من

---

(١) يقول الشيخ الألبانى : صحيح وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبى وحسنه الترمذى وفى روايتهما، فلا يثقل مع اسم الله شىء. وأما رواية الكتاب فهى رواية لأحمد (٢-٢١٢) وهى شاذة وقد تكلمت على إسناد الحديث فى سلسلة الأحاديث الصحيحة.

حديث الليث، زاد الترمذى: «ولا يثقل مع اسم الله شيء»، وفى سياق آخر: «توضع الموازينُ يومَ القيامة، فيؤتى بالرجلِ فيوضع فى كفَّة»[1]، الحديث... وفى هذا السياق فائدة جليلة، وهى: أن العامل يوزن مع عمله، ويشهد له ما روى البخارى عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ، قال: «إنه ليأتى الرجلُ العظيمُ السمينُ يومَ القيامة. لا يزن عندَ الله جناحَ بعوضة[2]، قال: اقرؤا إن شئتم: ﴿ **فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا** ﴾ [الكهف: ١٠٥]، وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود: «أنه كان يجنى سواكًا من الأراك. وكان دقيق الساقين. فجعلت الريح تكفؤه، فضحك القوم منه. فقال رسول الله ﷺ: مم تضحكون؟ قالوا: يا نبىَّ الله من دقة ساقيه، فقال: والذى نفسى بيده، لهما أثقلُ فى الميزان من أحد»[3]. وقد وردت الأحاديث أيضًا بوزن الأعمال نفسها، كما فى صحيح مسلم، عن أبى مالك الأشعرى، قال: قال رسول الله ﷺ: «الطهور شطرُ الإيمان، والحمدُ لله تملأ الميزان»[4]، وفى الصحيح وهو خاتمة كتاب البخارى، قوله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان، حبيبتان إلى الرحمن، ثقيلتان فى الميزان: سبحانَ الله وبحمده، سبحانَ الله العظيم»[5]. وروى الحافظ أبو بكر البيهقى، عن أنس بن مالك رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، قال: «يؤتَى بابنِ آدمَ يومَ القيامة، فيوقف بين كفتىِّ الميزان، ويوكل به ملك، فإن ثقلَ ميزانُه. نادى الملكُ بصوت يسمع

---

(١) هو الحديث المتقدم، وهذا لفظ آخر ولا يصح من قبل سنده، لأن فيه ابن لهيعة وهو سيء الحفظ فلا يحتج بما تفرد به - وأخرجه أحمد (٢-٢١٢).

(٢) الحديث رواه البخارى فى تفسير سورة ١٨، ورواه مسلم فى المنافقين ١٨ ولفظه عند مسلم عن أبى هريرة عن رسول الله -ﷺ- أنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة. اقرؤا: «فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا».

(٣) الحديث رواه أحمد بن حنبل فى مسنده ١-٤٢١، ٥، ١٣١ بلفظ «والذى نفسى بيده لهو أثقل فى ميزانه من أحد».

(٤) الحديث رواه مسلم فى الطهارة ١، والترمذى فى الدعاء ٨٥، والنسائى فى الزكاة ١، وابن ماجه فى الطهارة ٥، والدارمى فى الوضوء ٢، وأحمد بن حنبل ٤-٢٦٠، ٥-٣٤٢، ٣٤٣، ٣٧٠.

(٥) الحديث ذكره البخارى فى كتاب الدعوات، باب٦٥، وفى كتاب التوحيد باب ٦٦ وذكره مسلم فى كتاب الذكر باب ١٠ حديث ٢٦٩٤ وابن ماجه فى كتاب الأدب باب ٥٦ حديث ٣٨٠٦ وسنن الترمذى كتاب الدعوات باب ٦٠ حديث ٣٤٦٧.

الخلائق: سعدَ فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً، وإن خف ميزانه، نادى الملكُ بصوت يسمع الخلائق: شقى فلان شقاوةً لا يسعدُ بعدَها أبداً»[1]. فلا يلتفت إلى ملحد معاند يقول: الأعمال أعراض لا تقبل الوزن، وإنما يقبل الوزنَ الأجسامُ. فإن الله يقلب الأعراض أجساماً، كما تقدم، كما روى الإمام أحمد، عن أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «يُؤتَى بالموت كبشًا أغرَّ، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون ويقال: يا أهل النار: فيشرئبون وينظرون. ويرون أن قد جاء الفرجُ، فيذبح، ويقال: خلود لا موت»[2]. ورواه البخارى بمعناه: فثبت وزن الأعمال والعامل وصحائف الأعمال، وثبت أن الميزان له كفتان. والله تعالى أعلم بما وراء ذلك من الكيفيات.

فعلينا الإيمان بالغيب، كما أخبرنا الصادق ﷺ. من غير زيادة ولا نقصان. ويا خيبة من ينفى وضع الموازين القسط ليوم القيامة كما أخبر الشارع، لخفاء الحكمة عليه، ويقدح فى النصوص بقوله: لا يحتاج إلى الميزان إلا البقال والفوال. وما أحراه بأن يكون من الذين لا يقيم الله لهم يوم القيامة وزنًا. ولو لم يكن من الحكمة فى وزن الأعمال إلا ظهور عدله سبحانه لجميع عباده، فإنه لا أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين. فكيف وراء ذلك من الكم ما لا أطلاع لنا عليه. فتأمل قول الملائكة، لما قال الله لهم: ﴿ **إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ [البقرة: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ **وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً** ﴾ [الإسراء: ٨٥]. وقد تقدم عند ذكر الحوض كلام القرطبى رحمه الله، أن الحوض قبل الميزان، والصراط بعد الميزان. ففى الصحيحين: «أن المؤمنين إذا عبروا الصراط على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص لبعضهم من بعض، فإذا هذبوا ونقو أذن لهم فى دخول الجنة»

---

(١) الحديث رواه أبو نعيم فى الحلية (٦-١٧٤) وقال: تفرد به داود بن المحبر وقال الشيخ الألبانى وهو متروك متهم بالوضع.

(٢) الحديث رواه البخارى فى التفسير ١٩، ورواه مسلم فى الجنة ٤، والترمذى فى التفسير سورة ١٩٥، والدارمى فى الرقاق ٩٠، وأحمد بن حنبل ٢-٢٧٧، ٤٢٢، ٥١٣.

وجعل القرطبي في التذكرة هذه القنطرة صراطًا ثانيًا للمؤمنين خاصة، وليس يسقط منه أحد في النار. والله تعالى أعلم.

الجنة والنار مخلوقتان

قوله: «والجنة والنار مخلوقتان، لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان فإن الله تعالى خلق الجنة والنار قبل الخلق، وخلق لهما أهلاً، فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه، وكل يعمل لما قد فرغ له، وصائر إلى ما خلق له، والخير والشر مقدران على العباد».

ش: أما قوله: «إن الجنة والنار مخلوقتان» – فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن، ولم يزل على ذلك أهل السنة، حتى نبغت نابغة من المعتزلة والقدرية فأنكر ذلك، وقالت: بل ينشئهما الله يوم القيامة.. وحملهم على ذلك أصلهم الفاسد الذي وضعوا به شريعة لما يفعله الله، وأنه ينبغي أن يفعل كذا، ولا ينبغي له أن يفعل كذا.. وقاسوه على خلقه في أفعالهم، فهم مشبهة في الأفعال، ودخل التجهم فيهم، فصاروا مع ذلك معطلة وقالوا: خلق الجنة قبل الجزاء عبث. لأنها تصير معطلة مددًا متطاولة. فردوا من النصوص ما خالف هذه الشريعة الباطلة التي وضعوها للرب تعالى، وحرفوا النصوص عن مواضعها، وضللوا وبدعوا من خالف شريعتهم.

فمن نصوص الكتاب: قوله تعالى عن الجنة: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ**﴾ [آل عمران: ١٣٣] ﴿**أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ**﴾ [الحديد: ٢١]. وعن النار: ﴿**أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾ [آل عمران: ٢١] ﴿**إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا * لِلطَّاغِينَ مَآبًا**﴾ [النبأ: ٢١-٢٢]. وقد قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ**﴾ [النجم: ١٣-١٥]. وقد رأى النبي ﷺ سدرة المنتهى، ورأى عندها جنة المأوى. كما في الصحيحين، في حديث أنس رضي الله عنه، في قصة الإسراء، وفي آخره: «ثم انطلق بي جبرائيل، حتى أتى سدرة المنتهى، فغشيها ألوانٌ لا أدري ما هي؛ قال: ثم دخلتُ الجنة، فإذا هي

جنابذ اللؤلؤ، وإذا ترابها المسك »[١]. وفى الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: « إن أحدكم إذا مات عُرِض عليه مقعدُه بالغداة والعشى، إن كان من أهل الجنة فمن أهل الجنة، وإن كان من أهلِ النارِ فمن أهل النار، يقال: هذا مقعدك حتى يبعثك الله يومَ القيامة »[٢]. وتقدم حديث البراء ابن عازب، وفيه: « ينادى منادٍ من السماءِ: أن صدق عبدى، فأفرشوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها »[٣]. وتقدم حديث أنس بمعنى حديث البراء. وفى صحيح مسلم، عن عائشة رضى الله عنها، قالت: « خُسفت الشمسُ فى حياة رسول الله ﷺ »، فذكرت الحديث، وفيه: وقال رسول الله ﷺ: « رأيت فى مقامى هذا كلَّ شىءٍ وعُدتم به، حتى لقد رأيتُنى آخذ قطفًا من الجنة حين رأيتمونى تقدمت »[٤]. وفى الصحيحين، واللفظ للبخارى عن عبد الله بن عباس، قال: « انخسفت الشمس على عهد رسول الله ﷺ »، فذكر الحديث، وفيه: « فقالوا: يا رسولَ الله رأيناك تناولتَ شيئًا فى مقامك، ثم رأيناك تكعكعت؟ فقال: إنى رأيت الجنة، وتناولت عنقودًا، ولو أصبته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا، ورأيت النار، فلم أر منظرًا كاليوم قط أفظع، ورأيت أكثر أهلها النساءِ قالوا: بم يا رسول الله؟ قال: بكفرهن، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشيرَ، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهرَ كلّه. ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيت خيرًا قط »[٥]. وفى صحيح مسلم، من حديث أنس: « وأيم الذى نفسى بيدِه، لو رأيتم ما رأيت، لضحكتم قليلاً

---

(١) أشار الشيخ الألبانى على هذا الحديث بالصحة.

(٢) سبق تخريج هذا الحديث.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث.

(٤) الحديث رواه البخارى فى العمل ١١، ومسلم فى الكسوف ٣، والنسائى فى الكسوف ١١.

(٥) الحديث رواه البخارى فى الكسوف ٩، والنكاح ١٨، ومسلم فى الكسوف ١٧ والنسائى فى الكسوف ١٧، وأحمد بن حنبلٍ ١-٢٩٨، ٣٥٩ وهو جزء من حديث طويل ولفظه عند مسلم: ورأيت النار فلم أر كاليوم منظرًا قط ورأيت أكثر أهلها النساء. قالوا: بم يا رسول الله..؟ قال: « بكفرهن » قيل: أيكفرن بالله؟ قال: بكفرن العشير ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر كله ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت منك خيرا قط.

وبكيتم كثيراً. قالوا: وما رأيت يا رسول الله؟ قال: رأيت الجنةَ والنار»[1]. وفى الموطأ والسنن، من حديث كعب بن مالك، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنما نسمةُ المؤمن طير تعلق فى شجرة الجنة، حتى يرجعها اللهُ إلى جسده يومَ القيامة»[2]. وهذا صريح فى دخول الروح الجنة قبل يوم القيامة. وفى صحيح مسلم والسنن والمسند، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لما خلق اللهُ الجنةَ والنار، أرسل جبرائيلَ إلى الجنة فقال: أذهب فانظر إليها وإلى ما أعددْتُ لأهلها فيها، فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد اللهُ لأهلها فيها، فرجع فقال: وعزتك، لا يسمع بها أحدٌ إلا دخلها، فأمر بالجنة فحُفَّتْ بالمكاره، فقال: ارجع فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر إليها، ثم رجع فقال: وعزتك، لقد خشيت أن لا يدخلها أحدٌ، قال: ثم أرسله إلى النار، قال: اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها، قال: فنظر فيها، فإذا هى يركب بعضها بعضًا، ثم رجع فقال: وعزتك، لا يدخلها أحدٌ سمع بها، فأمر بها فحُفت بالشهوات، ثم قال: اذهب فانظر إلى ما أعددت لأهلها فيها. فذهب فنظر إليها، فرجع فقال: وعزتك، لقد خشيت أن لا ينجو منها أحد إلا دخلها»[3]. ونظائر ذلك فى السنة كثيرة.

وأما على قول من قال: إن الجنة الموعود بها هى الجنة التى كان فيها آدم، ثم أخرج منها، فالقول بوجودها الآن ظاهر، والخلاف فى ذلك معروف. وأما شبهة من قال: إنها لم تخلق بعد، وهى: أنها لو كانت مخلوقة الآن لوجد اضطراراً أن تفنى يوم القيامة وأن يهلك كل من فيها ويموت، لقوله تعالى: ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ**

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الكسوف ٢، وتفسير سورة ٥ والرقاق ٢٧، ورواه مسلم فى الصلاة ١١٢، والنسائى فى السهو ٢٠٢، والكسوف ١١، ولفظه عند مسلم وهو جزء من حديث طويل: «لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً قالوا: وما رأيت يا رسول الله...؟ قال: رأيت الجنة والنار».

(٢) سبق تخريج هذا الحديث.

(٣) الحديث رواه مسلم فى الجنة ١، وأبو داود فى السنة ٢٢، والترمذى فى الجنة ٢١، والنسائى فى الإيمان ٣، وأبو داود فى الرقاق ١١٧، وأحمد بن حنبل ٢-٢٦٠، ٢٢٢، ٣٥٤١، ٣٨٠.

﴿إلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، و﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، وقد روى الترمذى فى جامعه، من حديث ابن مسعود، قال: قال رسول الله ﷺ: «لقيت إبراهيم ليلةَ أُسرى بى، فقال: يا محمدُ، أقرىء أمتك منى السلامَ، وأخبرهم أن الجنةَ طيبةُ التربة عذبة الماء، وأنها قيعان، وأن غراسَها سبحانَ الله، والحمدُ لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[١] قال: هذا حديث حسن غريب. وفيه أيضًا من حديث أبى الزبير، عن جابر، عن النبى ﷺ، أنه قال: «من قال سبحانَ الله وبحمده، غُرست له نخلةٌ فى الجنة»[٢]، قال هذا حديث صحيح، قالوا: فلو كانت مخلوقة مفروغًا منها لم تكن قيعانًا، ولم يكن لهذا الغراس معنى. قالوا: وكذا قوله تعالى عن امرأة فرعون أنها قالت: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] فالجواب: إنكم إن أردتم بقولكم أنها الآن معدومة. بمنزلة النفخ فى الصور وقيام الناس من القبور، فهذا باطل، يرده ما تقدم من الأدلة وأمثالها مما لم يذكر، وإن أردتم أنها لم يكمل خلق جميع ما أعد الله فيها لأهلها، وأنها لا يزال الله يحدث فيها شيئًا بعد شىء، وإذا دخلها المؤمنون أحدث الله فيها عند دخولهم أمورًا أخر - فهذا حق لا يمكن رده وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القدر. وأما احتجاجم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، فقلبتم من سوء فهمكم معنى الآية، واحتجاجكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن نظير احتجاج إخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموت أهلهما. فلم توفقوا أنتم ولا إخوانكم لفهم معنى الآية. وإنما وفق لذلك أئمة الإسلام، فمن كلامهم: أن المراد (كل شىء) مما كتب الله عليه الفناء والهلاك (هالك)، والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء، وكذا العرش، فإنه سقف الجنة. وقيل: المراد إلا ملكه. وقيل: إلا ما أريد به وجهه، وقيل: إن الله تعالى أنزل: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]، فقالت الملائكة: هلك أهل الأرض، وطمعوا فى البقاء، فأخبر تعالى عن أهل السماء والأرض أنهم يموتون، فقال: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إلاَّ وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، لأنه لا يموت، فأيقنت الملائكة

(١) الحديث رواه الترمذى فى الدعوات ٥٨.
(٢) الحديث رواه الترمذى فى الدعوات ٥٩.

عند ذلك الموت. وإنما قالوا ذلك توفيقًا بينها وبين النصوص المحكمة، الدالة على بقاء الجنة، وعلى بقاء النار أيضًا، على ما يذكر عن قريب إن شاء الله تعالى.

وقوله: «لا تفنيان أبدًا ولا تبيدان» - هذا قول جمهور الأئمة من السلف والخلف، وقال ببقاء الجنة بفناء النار جماعة من السلف والخلف، والقولان مذكوران في كثير من كتب التفسير وغيرها. وقال بفناء الجنة والنار الجهم بن صفوان إمام المعطلة، وليس له سلف قط، لا من الصحابة ولا من التابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين ولا من أهل السنة. وأنكره عليه عامة أهل السنة، وكفروه به، وصاحوا به وبأتباعه من أقطار الأرض. وهذا قاله لأصله الفاسد الذي اعتقده، وهو امتناع وجود ما لا يتناهى من الحوادث. وهو عمدة أهل الكلام المذموم، التي استدلوا بها على حدوث الأجسام، وحدوث ما لم يخل من الحوادث، وجعلوا ذلك عمدتهم في حدوث العالم. فرأى الجهم أن ما يمنع من حوادث لا أول لها في الماضي، يمنعه في المستقبل. فدوام الفعل عنده على الرب في المستقبل ممتنع، كما هو ممتنع عنده عليه في الماضي. وأبو الهذيل العلاف شيخ المعتزلة[1]، وافقه على هذا الأصل، لكن قال: إن هذا يقتضي فناء الحركات، فقال بفناء حركات أهل الجنة والنار، حتى يصيروا في سكون دائم، لا يقدر أحد منهم على حركة. وقد تقدمت الإشارة إلى اختلاف الناس في تسلسل الحوادث في الماضي والمستقبل، وهي مسألة دوام فاعلية الرب تعالى، وهو لم يزل ربًا قادرًا فعالاً لما يريد، فإنه لم يزل حيًا عليمًا قديرًا. ومن المحال أن يكون الفعل ممتنعًا عليه لذاته، ثم ينقلب فيصير ممكنًا لذاته، من غير تجدد شيء وليس للأول حد محدود حتى يصير الفعل ممكنًا له عند ذلك الحد، ويكون قبله ممتنعًا عليه.. فهذا القول تصوره كاف في الجزم بفساده.

فأما أبدية الجنة، وأنها لا تفنى ولا تبيد - فهذا مما يعلم بالضرورة أن الرسول ﷺ أخبر به، قال تعالى: ﴿ **وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا**

---

(١) هو: محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدي، مولى عبد القيس أبو الهذيل العلاف، من أئمة المعتزلة، ولد في البصرة عام ١٣٥هـ، واشتهر بعلم الكلام قال المأمون: أطل أبو الهذيل على الكلام كإطلاق الغمام على الأنام، توفي بسامراء عام ٢٣٥هـ.

دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربك عطاء غير مجذوذ ﴾ [هود: ١٠٨]، أى غير مقطوع، ولا ينافى قوله «إلا ما شاء ربك». واختلف السلف فى هذا الاستثناء: فقيل: معناه إلا مدة مكثهم فى النار، وهذا يكون لمن دخل منهم إلى النار ثم أخرج منها، لا لكلهم. وقيل: إلا مدة مقامهم فى الموقف وقيل: إلا مدة مقامهم فى القبور والموقف وقيل: هو استثناء الرب ولا يفعله، كما تقول: والله لأضربنك إلا أن أرى غير ذلك، وأنت لا تراه، بل تجزم بضربه. وقيل: (إلا) بمعنى الواو، هذا على قول بعض النحاة، وهو ضعيف. ومنهم من يجعل (إلا) بمعنى (لكن)، فيكون الاستثناء منقطعاً، ورجحه ابن جرير وقال: إن الله تعالى لا خلف لوعده، وقد وصل الاستثناء بقوله: «عطاء غير مجذوذ». قالوا: ونظيره أن تقول: أسكنتك دارى حولاً إلا ما شئت، أى سوى ما شئت، ولكن ما شئت من الزيادة عليه. وقيل الاستثناء لإعلامهم بأنهم مع خلودهم فى مشيئة الله، لأنهم لا يخرجون عن مشيئته، ولا ينافى ذلك عزيمته وجزمه لهم بالخلود كما فى قوله تعالى: ﴿ **ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً** ﴾ [الإسراء: ٨٦]، وقوله تعالى: ﴿ **فإن يشأ الله يختم على قلبك** ﴾ [الشورى: ٢٤]، وقوله: ﴿ **قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به** ﴾ [يونس: ١٦] ونظائره كثيرة، يخبر عباده سبحانه أن الأمور كلها بمشيئته، ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن. وقيل: إن (ما) بمعنى (من) أى: إلا من شاء الله دخوله النار بذنوبه من السعداء. وقيل غير ذلك. وعلى كل تقدير، فهذا الاستثناء من المتشابه، وقوله: «عطاء غير مجذوذ» محكم. وكذلك قوله تعالى: ﴿ **إن هذا لرزقنا ما له من نفاد** ﴾ [ص: ٥٤]. وقوله: ﴿ **أكلها دائم وظلها** ﴾ [الرعد: ٣٥]. وقوله: ﴿ **وما هم منها بمخرجين** ﴾ [الحجر: ٤٨]، وقد أكد الله خلود أهل الجنة بالتأبيد فى عدة مواضع فى القرآن، وأخبر أنهم ﴿ **لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى** ﴾ [الدخان: ٥٦]، وهذا الاستثناء منقطع، وإذا ضممته إلى الاستثناء فى قوله تعالى: ﴿ **إلا ما شاء ربك** ﴾ – تبين أن المراد من الآيتين استثناء الوقت الذى لم يكونوا فيه فى الجنة من مدة الخلود، كاستثناء الموتة

الأولى من جملة الموت، فهذه موتة تقدمت على حياتهم الأبدية، وذلك مفارقة للجنة تقدمت على خلودهم فيها.

والأدلة من السنة على أبدية الجنة ودوامها كثيرة كقوله ﷺ: «من يدخل الجنةَ ينعمْ لا ييأس، ويخلد ولا يموت»[١]. وقوله: «ينادى منادٍ: يا أهل الجنة، إن لكم أن تصحُّوا فلا تقسموا، وأن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وأن تحيوا فلا تموتوا أبداً»[٢]. وتقدم ذكر ذبح الموت بين الجنة والنار، ويقال: «يا أهل الجنة، خلود فلا موت، ويا أهل النار، خلود بلا موت»[٣].

وأما أبدية النار ودوامها، فللناس فى ذلك ثمانية أقوال أحدهما: أن من دخلها لا يخرج منها أبد الآباد، وهذا قول الخوارج والمعتزلة، والثانى: أن أهلها يعذبون فيها ثم تنقلب طبيعتهم وتبقى طبيعة النارية، يتلذذون بها لموافقتها لطبيعتهم. وهذا قول إمام الإتحادية ابن عربى الطائى. الثالث: أن أهلها يعذبون فيها إلى وقت محدود، ثم يخرجون منها، ويخلفهم فيها قوم آخرون، وهذا القول حكاه اليهود للنبى ﷺ، وأكذبهم فيه، وقد أكذبهم الله تعالى، فقال عز من قائل: ﴿ **وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عندَ اللَّه عَهْدًا فَلَن يُخْلفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّه مَا لا تَعْلَمُونَ * بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ به خَطيئَتُهُ فَأُولَٰئكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فيهَا خَالدُونَ** ﴾ [البقرة: ٨٠-٨١]. الرابع يخرجون منها، وتبقى على حالها ليس فيها أحد. الخامس: أنها تفنى بنفسها، لأنها حادثة وما ثبت حدوثه استحال بقاؤه. وهذا قول الجهم وشيعته، ولا فرق عنده فى ذلك بين الجنة والنار، كما تقدم. السادس: تفنى حركات أهلها ويصيرون جماداً، لا يحسون بألم، وهذا قول أبى الهذيل كما تقدم. السابع: أن الله يخرج منها من يشاء، كما ورد فى الحديث، ثم يبقيها شيئًا ثم يفنيها،

---

(١) الحديث رواه مسلم فى الجنة باب: فى دوام نعيم أهل الجنة، ولفظه: «من يدخل الجنة ينعم لا ييأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه».

(٢) الحديث رواه مسلم فى كتاب الجنة رقم ٢٨٣٧ باب فى دوام نعيم أهل الجنة وقوله تعالى: ﴿ **وَنُودُوا أَن تلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورثْتُمُوهَا بمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾.

(٣) سبق تخريج هذا الحديث.

فإنه جعل لها أمداً تنتهي إليه، الثامن: أن الله تعالى يخرج منها من يشاء، كما ورد في السنة، ويبقى فيها الكفار، بقاء لا انقضاء له، كما قال الشيخ رحمه الله. وما عدا هذين القولين الأخيرين ظاهر البطلان.

وهذان القولان لأهل السنة ينظر في أدلتهما: فمن أدلة القول الأول منهما، قوله تعالى: ﴿ **قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنعام: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿ **فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ * خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ إِلاَّ مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ** ﴾ [هود: ١٠٦-١٠٧] ولم يأت بعد هذين الاستثناءين ما أتى بعد الاستثناء المذكور لأهل الجنة، وهو قوله: ﴿ **عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ** ﴾ وقوله تعالى: ﴿ **لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا** ﴾ [النبأ: ٢٣]. وهذا القول، أعني القول، بفناء النار دون الجنة – منقول عن عمر، وابن مسعود، وأبي هريرة، وأبي سعيد، وغيرهم. وقد روى عبد بن حميد في تفسيره المشهور، بسنده إلى عمر رضي الله عنه، أنه قال: «لو لبث أهلُ النار في النار كقدر رمل عالج، لكان لهم على ذلك وقتٌ يخرجون فيه»[١] ذكر ذلك في تفسير قوله تعالى: ﴿ **لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا** ﴾ قالوا: والنار موجب غضبه، والجنة موجب رحمته. وقد قال ﷺ: «لما قضى الله الخلقَ، كتب كتابًا، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبي»[٢]. وفي رواية «تغلب غضبي». رواه البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قالوا: والله سبحانه يخبر عن العذاب أنه: ﴿ **عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ [الأنعام: ١٥]. و(أليم). و(عقيم). ولم يخبر ولا في موضع واحد عن النعيم أنه نعيم يوم. وقد قال تعالى: ﴿ **عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ** ﴾ [الأعراف: ١٥٦] وقال تعالى حكاية عن الملائكة: ﴿ **رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ**

---

(١) قال الشيخ الألباني: لم أقف على سنده وما أراه يصح، وقد روى نحوه عن عبد الله ابن عمرو موقوفًا بسند ضعيف وعن أبي أمامة مرفوعًا بسند تالف.

(٢) الحديث أخرجه البخاري في التوحيد عن أبي هريرة ورواه الإمام أحمد ٢-٢٥٨. وأخرجه مسلم في صحيحه كتاب التوبة رقم ١٤ بلفظ «لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي».

﴿ رَحْمَةً وَعِلْمًا ﴾ [غافر: ٧]. فلا بد أن تسع رحمته هؤلاء المعذبين، فلو بقوا فى العذاب لا إلى غاية لم تسعهم رحمته، وقد ثبت فى الصحيح تقدير يوم القيامة بخمسين ألف سنة، والمعذبون فيها متفاوتون فى مدة لبثهم فى العذاب بحسب جرائمهم، وليس فى حكمة أحكم الحاكمين، ورحمة أرحم الراحمين، أن يخلق خلقًا يعذبهم أبد الآباد عذابًا سرمدًا لا نهاية له، وأما أنه يخلق خلقًا ينعم إليهم ويحسن إليهم نعيمًا سرمدًا، فمن مقتضى الحكمة. والإحسان مراد لذاته، والانتقام مراد بالعرض. قالوا: وما ورد من الخلود فيها، والتأبيد، وعدم الخروج، وأن عذابها مقيم، وأنه غرام – كله حق مسلم، لا نزال فيه، وذلك يقتضى الخلود فى دار العذاب ما دامت باقية، وإنما يخرج منها فى حال بقائها أهل التوحيد. فقرب بين من يخرج من الحبس وهو حبس على حاله، وبين من يبطل حبسه بخراب الحبس وانتقاضه.

ومن أدلة القائلين ببقائها وعدم فنائها قوله: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [المائدة: ٣٧]. ﴿ لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴾ [الزخرف: ٧٥]. ﴿ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا ﴾ [النبأ: ٣٠]. ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴾ [البينة: ٨]. ﴿ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾ [الحجر: ٤٨]. ﴿ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾ [البقرة: ١٦٧]. ﴿ وَلا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ﴾ [الأعراف: ٤٠]. ﴿ لا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ﴾ [فاطر: ٣٦]، ﴿ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴾ [الفرقان: ٦٥]، أى مقيمًا لازمًا. وقد دلت السنة المستفيضة أنه يخرج من النار من قال: «لا إله إلا الله»: وأحاديث الشفاعة صريحة فى خروج عصاة الموحدين من النار، وأن هذا حكم مختص بهم فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلتهم، ولم يختص الخروج بأهل الإيمان. وبقاء الجنة والنار ليس لذاتهما، بل بإبقاء الله لهما.

وقوله: «وخلق لهما أهلاً» – قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، الآية. وعن عائشة رضى الله عنها قالت: «دُعِىَ رسول الله ﷺ إلى جنازة صبىٍّ من الأنصار، فقلت: يا رسول الله، طوبى

لهذا، عصفور من عصافير الجنة، لم يعمل سوءًا ولم يدركه فقال: أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلاً، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم، وخلق للنار أهلاً، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم»[1]. رواه مسلم وأبو داود والنسائى، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾ [الدهر: ٢-٣]. والمراد الهداية العامة، وأعم منها الهداية المذكورة فى قوله تعالى: ﴿**الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ**﴾ [طه: ٥٠]. فالموجودات نوعان: أحدهما: مسخر بطبعه، والثانى: متحرك بإرادته. فهدى الأول لما سخره له طبيعة، وهدى الثانى هداية إرادية تابعة لشعوره وعلمه بما ينفعه ويضره. ثم قسم الأنواع إلى ثلاثة أنواع: نوع لا يريد إلا الخير ولا تأتى منه إرادة سواه، كالملائكة، ونوع لا يريد إلا الشر ولا تتأتى منه إرادة سواه، كالشيطان، ونوع يتأتى منه إرادة القسمين، كالإنسان؛ ثم جعله ثلاثة أصناف: صنف يغلب إيمانه ومعرفته وعقله وهواه وشهوته، فيلتحق بالملائكة. وصنف عكسه، فيلتحق بالشياطين. وصنف تغلب شهوته، البهيمية عقله، فيلتحق بالبهائم، والمقصود: أنه سبحانه أعطى الوجودين: العينى والعلمى. فكما أنه لا موجود إلا بإيجاد، فلا هداية إلا بتعليمه. وذلك كله من الأدلة على كمال قدرته، وثبوت وحدانيته، وتحقيق ربوبيته، سبحانه وتعالى.

وقوله: «فمن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه»، إلخ، مما يجب أن يعلم: أن الله تعالى لا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه، وهو العمل الصالح، فإنه: ﴿**وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا**﴾ [طه: ١١٢] وكذلك لا يعاقب أحدًا إلا بعد حصول سبب العقاب، فإن الله تعالى يقول: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ**﴾ [الشورى: ٣٠] وهو سبحانه المعطى المانع، لا مانع لما أعطى، ولا معطى لما منع. لكن إذا منَّ على الإنسان بالإيمان (والعمل) الصالح، فلا يمنعه موجب

---

(١) الحديث رواه مسلم فى القدر ٣٠ - ٣١، والنسائى فى الجنائز ٥٨، وابن ماجه فى المقدمة ١٠، وأحمد بن حنبل ٦-٤١، ٢٠٨.

ذلك أصلاً، بل يعطيه من الثواب والقرب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر. وحيث منعه ذلك فلانتفاء سببه، وهو العمل الصالح، ولا ريب أنه يهدى من يشاء، ويضل من يشاء، لكن ذلك كله حكمة منه وعدل، فمنعه للأسباب التى هى الأعمال الصالحة من حكمته وعدله. وأما المسببات بعد وجود أسبابها، فلا يمنعها بحال إذا لم تكن أسبابًا غير صالحة، إما لفساد فى العمل، وإما لسبب يعارض موجبه ومقتضاه، فيكون ذلك لعدم المقتضى، أو لوجود المانع. وإذا كان منعه وعقوبته من عدم الإيمان والعمل الصالح، وهو لم يعط ذلك ابتلاء وابتداء إلا حكمة منه وعدلاً. فله الحمد فى الحالين، وهو المحمود على كل حال، كل عطاء منه فضل، وكل عقوبة منه عدل، فإن الله تعالى حكيم يضع الأشياء فى مواضعها التى تصلح لها، كما قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وكما قال تعالى: ﴿ **وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴾ [الأنعام: ٥٣]. ونحو ذلك وسيأتى لذلك زيادة إن شاء تعالى.

الاستطاعة مناط التكليف

قوله: «والاستطاعة التى يجب بها الفعل، من نحو التوفيق الذى لا يجوز أن يوصف المخلوق به - تكون مع الفعل. وأما الاستطاعة من جهة الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الآلات فهى قبل الفعل، وبها يتعلق الخطاب، وهو كما قال تعالى: ﴿ **لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا** ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

ش: الاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع، ألفاظ متقاربة. وتنقسم الاستطاعة إلى قسمين، كما ذكره الشيخ رحمه الله، وهو قول عامة أهل السنة، وهو الوسط، وقالت القدرية والمعتزلة: لا تكون القدرة إلا قبل الفعل. وقابلهم طائفة من أهل السنة فقالوا: لا تكون إلا مع الفعل.

والذى قاله عامة أهل السنة: أن للعبد قدرة هى مناط الأمر والنهى، وهذه قد تكون قبله، لا يجب أن تكون معه، والقدرة التى بها الفعل لا بد أن تكون مع الفعل، لا يجوز أن يوجد الفعل بقدرة معدومة.

وأما القدرة التى من جهة الصحة والوسع، والتمكن وسلامة الآلات – فقد تتقدم الأفعال، وهذه القدرة المذكورة فى قوله: ﴿ **وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً** ﴾ [آل عمران: ٩٧]، فأوجب الحج على المستطيع، فلو لم يستطع إلا من حج لم يكن الحج قد وجب إلا على من حج، ولم يعاقب أحدا على ترك الحج. وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الإسلام. وكذلك قوله تعالى: ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ** ﴾ [التغابن: ١٦]. فأوجب التقوى بحسب الاستطاعة، فلو كان من لم يتق الله لم يستطع التقوى، لم يكن قد أوجب التقوى إلا على من اتقى، ولم يعاقب من لم يتق. وهذا معلوم الفساد. وكذا قوله تعالى: ﴿ **فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا** ﴾ [المجادلة: ٤]. المراد منه استطاعة الأسباب والآلات. وكذا ما حكاه سبحانه من قوله للمنافقين: ﴿ **لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ** ﴾ [التوبة: ٤٢]، وكذبهم فى ذلك القول ولو كانوا أرادوا الاستطاعة التى هى حقيقة قدرة الفعل – ما كانوا بنفيهم عن أنفسهم كاذبين، وحيث كذّبهم دل على أنهم أرادوا بذلك المرض أو فقد المال، على ما بيَّن تعالى بقوله: ﴿ **لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ** ﴾ [التوبة: ٩١]، إلى أن قال: ﴿ **إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ** ﴾ [التوبة: ٩٣]. وكذلك قوله تعالى: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ** ﴾ [النساء: ٢٥]. والمراد: استطاعة الآلات والأسباب. ومن ذلك قوله ﷺ لعمران ابن حصين[١]: «صلِّ قائمًا، فإن لم تستطعْ فقاعدًا، فإن لم تستطعْ فعلى جنب»[٢]. وإنما نفى استطاعة الفعل معها.

وأما ثبوت الاستطاعة التى هى حقيقة القدرة، فقد ذكروا فيها قوله تعالى: ﴿ **مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ** ﴾ [هود: ٢٠]. والمراد نفى

---

(١) عمران بن حصين بن عبيد أبو نجيد الخزاعى، من علماء الصحابة، أسلم عام خيبر سنة ٧هـ، وكانت معه راية خزاعة يوم فتح مكة، وبعثه عمر إلى أهل البصرة ليفقههم. توفى بها وهو ممن اعتزل حرب صفين، له فى كتب الحديث ١٣٠ حديثا، توفى سنة ٥٢هـ.

(٢) الحديث رواه البخارى فى التقصير ١٩، والترمذى فى المواقيت ١٥٧، وأبو داود فى الصلاة ١٧٥، وابن ماجه فى الإقامة ١٣٩، وأحمد بن حنبل ٤–٤٢٦.

حقيقة القدرة، لا نفى الأسباب والآلات، لأنها كانت ثابتة. وسيأتى لذلك زيادة بيان عند قوله: (ولا يطيقون إلا ما كلفهم)، إن شاء الله تعالى. وكذا قول صاحب موسى: ﴿ **قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** ﴾ [الكهف: ٦٧]. وقوله: ﴿ **أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا** ﴾ [الكهف: ٧٥]. والمراد منه حقيقة قدرة الصبر، لا أسباب الصبر وآلاته، فإن تلك كانت ثابتة له، ألا ترى أنه عاتبه على ذلك؟ ولا يلام من عدم آلات الفعل وأسبابه على عدم الفعل، وإنما يلام من امتنع من الفعل لتضييع قدرة الفعل، لاشتغاله بغير ما أمر به، أو (لعدم) شغله إياها بفعل ما أمر به ومن قال: إن القدرة لا تكون إلا حين الفعل – يقولون: إن القدرة لا تصلح للضدين، فإن القدرة المقاربة للفعل لا تصلح إلا لذلك الفعل، وهى مستلزمة له، لا توجد بدونه. وما قالته القدرية، بناء على أصلهم الفاسد، وهو إقدار الله للمؤمن والكافر والبر والفاجر سواء، فلا يقولون إن الله خص المؤمن المطيع بإعانة حصل بها الإيمان، بل هذا بنفسه رجَّح الطاعة، وهذا بنفسه رجَّح المعصية كالوالد الذى أعطى كل واحد من بنيه سيفاً، فهذا جاهد به فى سبيل الله، وهذا قطع به الطريق وهذا القول فاسد باتفاق أهل السنة والجماعة المثبتين للقدر، فإنهم متفقون على أن لله على عبده المطيع نعمة دينية، خصه بها دون الكافر. وأنه أعانه على الطاعة لم يعن بها الكافر. كما قال تعالى: ﴿ **وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** ﴾ [الحجرات: ٧]، فالقدرية يقولون: هذا التحبيب والتزيين عام فى كل الخلق، وهو بمعنى البيان وإظهار دلائل الحق. والآية تقتضى أن هذا خاص بالمؤمن، لهذا قال: ﴿ **أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ** ﴾. والكفار ليسوا راشدين وقال تعالى: ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٢٥]. وأمثال هذه الآية فى القرآن كثيرة، يبين أنه سبحانه هدى هذا وأضل هذا. قال تعالى: ﴿ **مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ**

﴿ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾ [الكهف: ١٧]. وسيأتي لهذه المسألة زيادة بيان، إن شاء الله تعالى.

وأيضًا: فقول القائل: يرجح بلا مرجح - إن كان لقوله (يرجح) معنى زائد على الفعل، فذاك هو السبب المرجح، وإن لم يكن له معنى زائد كان حال الفاعل قبل وجود الفعل كحاله عند الفعل، ثم الفعل حصل في إحدى الحالتين دون الأخرى بلا مرجح. وهذا مكابرة للعقل. فلما كان أصل قول القدرية أن فاعل الطاعات وتاركها كليهما في الإعانة والإقدار سواء - امتنع على أصلهم أن يكون مع الفعل قدرة تخصه، لأن القدرة التي تخص الفعل لا تكون للتارك، وإنما تكون للفاعل، ولا تكون القدرة إلا من الله تعالى. وهم لما رأوا أن القدرة لا بد أن تكون قبل الفعل، قالوا: لا تكون مع الفعل، لأن القدرة هي التي يكون بها الفعل والترك، وحال وجود الفعل يمتنع الترك، فلهذا قالوا: القدرة لا تكون إلا قبل الفعل. وهذا باطل قطعًا، فإن وجود الأمر مع عدم بعض شروطه الوجودية ممتنع بل لا بد أن يكون جميع ما يتوقف عليه الفعل من الأمور الوجودية موجودًا عند الفعل، فنقيض قولهم حق وهو: أن الفعل لا بد أن يكون معه قدرة.

لكن صار أهل الإثبات هنا حزبين: حزب قالوا: لا تكون القدرة إلا معه، ظنًا منهم أن القدرة نوع واحد لا يصلح للضدين وظنًا من بعضهم أن القدرة عرض، فلا تبقى زمانين، فيمتنع وجودها قبل الفعل. والصواب: أن القدرة نوعان كما تقدم: نوع مصحح للفعل، يمكن معه الفعل والترك، وهذه هي التي يتعلق بها الأمر والنهي، وهذه تحصل للمطيع والعاصي، وتكون قبل الفعل، وهذه إلى حين الفعل، إما بنفسها عند من يقول ببقاء الأعراض، وإما بتجدد أمثالها عند من يقول: إن الأعراض لا تبقى زمانين، وهذه قد تصلح للضدين، وأمر الله مشروط بهذه الطاقة، فلا يكلف الله من ليس معه هذه الطاقة، وأمر الله مشروط بهذه الطاقة، فلا يكلف الله من ليس معه هذه الطاقة، وضد هذه العجز، كما تقدم. وأيضًا: فالاستطاعة المشروطة في الشرع أخص من الاستطاعة التي يمتنع الفعل مع عدمها، فإن الاستطاعة الشرعية قد تكون ما يتصور الفعل مع

عدمها وإن لم يعجز عنه. فالشارع ييسر على عباده ويريد بهم اليسر ولا يريد بهم العسر، وما جعل عليكم فى الدين من حرج، والمريض قد يستطيع القيام مع زيادة المرض وتأخر برئه، فهذا فى الشرع غير مستطيع، لأجل حصول الضرر عليه، وإن كان قد يسمى مستطيعًا. فالشارع لا ينظر فى الاستطاعة الشرعية إلى مجرد إمكان الفعل، بل ينظر إلى لوازم ذلك فإن كان الفعل ممكنًا مع المفسدة الراجحة لم تكن هذه استطاعة شرعية، كالذى يقدر على الحج مع ضرر يلحقه فى بدنه أو ماله، أو يصلى قائماً مع زيادة مرضه، أو يصوم الشهرين مع انقطاعه عن معيشته، ونحو ذلك. فإن كان الشارع قد اعتبر فى المكنة عدم المفسدة الراجحة، فكيف يكلف مع العجز؟ ولكن هذه الاستطاعة - مع بقائها إلى حين الفعل - لا تكفى فى وجود الفعل، ولو كانت كافية لكان التارك كالفاعل، بل لا بد من إحداث إعانة أخرى تقارن، مثل جعل الفاعل مريداً، فإن الفعل لا يتم إلا بقدرة وإرادة، والاستطاعة المقارنة تدخل فيها الإرادة الجازمة بخلاف المشروطة فى التكليف، فإنه لا يشترك فيه الإرادة. فالله تعالى يأمر بالفعل من لا يريده، لكن لا يأمر به من لو أراده لعجز عنه. وهكذا أمر الناس بعضهم لبعض، فالإنسان يأمر عبده بما لا يريده العبد، لكن لا يأمر بما يعجز عنه العبد، وإذا اجتمعت الإرادة الجازمة والقوة التامة، لزم وجود الفعل. وعلى هذا ينبنى تكليف ما لا يطاق، فإن من قال: القدرة لا تكون إلا مع الفعل - يقول: كل كافر وفاسق قد كلف ما لا يطيق. وما لا يطاق يفسر بشيئين: بما لا يطاق للعجز عنه، فهذا لم يكلفه الله أحداً، ويفسر بما لا يطاق للاشتغال بضده، فهذا هو الذى وقع فيه التكلف. كما فى أمر العباد بعضهم بعضاً، فإنهم يفرقون بين هذا وهذا، فلا يأمر السيد عبده الأعمى بنقط المصاحف. ويأمره إذا كان قاعداً أن يقوم، ويعلم الفرق بين الأمرين بالضرورة.

أفعال العباد

قوله: «وأفعال العباد هى خلق الله وكسب من العباد».

ش: اختلف الناس فى أفعال العباد الاختيارية. فزعمت الجبرية ورئيسهم

الجهم بن صفوان السمرقندى : أن التدبير فى أفعال الخلق كلها لله تعالى، وهى كلها اضطرارية، كحركات المرتعش والعروق النابضة، وحركات الأشجار، وإضافتها إلى الخلق مجاز . وهى على حسب ما يضاف الشىء إلى محله دون ما يضاف إلى محصله . وقابلتهم المعتزلة، فقالوا : إن جميع الافعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخلقها، لا تعلق لها بخلق الله تعالى . واختلفوا فيما بينهم : أن الله تعالى يقدر على أفعال العباد أم لا ؟

وقال أهل الحق : أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة، وهى مخلوقة لله تعالى، والحق سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات، لا خالق لها سواه . فالجبرية غلوا فى إثبات القدر، فنفوا صنع العبد أصلاً، كما عملت المشبهة فى إثبات الصفات، فشبهوا . والقدرية نفاة القدر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى . ولهذا كانوا : (مجوس هذه الأمة) بل أردأ من المجوس، من حيث أن المجوس أثبتوا خالقين، وهم أثبتوا خالقين. وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم، فكل دليل صحيح تقيمه الجبرية، فإنما يدل على أن الله خالق كل شىء، وأنه على كل شىء قدير، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته وأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن . على أن العبد ليس بفاعل فى الحقيقة ولا مريد ولا مختار، وأن حركاته الاختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح وحركات الأشجار . وكل دليل صحيح يقيمه القدرى فإنه يدل على أن العبد فاعل لفعله حقيقة، وأنه مريد له مختار له حقيقة، وأن إضافته ونسبته إليه إضافة حق، ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته . فإذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى، فإنما يدل ذلك على ما دل عليه القرآن وسائر كتب الله المنزلة، من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما فى الكون من الأعيان والأفعال، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة، وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم .

وهذا هو الواقع فى نفس الأمر، فإن أدلة الحق لا تتعارض . والحق يصدق بعضه بعضاً . ويضيق هذا المختصر عن ذكر أدلة الفريقين ولكنها تتكافأ وتتساقط

ويستفاد من دليل كل فريق بطلان قول الآخر، ولكن أذكر شيئًا مما استدل به كل من الفريقين، ثم أبين أنه لا يدل على ما استدل عليه من الباطل.

الرد على الجبرية والمعتزلة

فمما استدلت به الجبرية، قوله تعالى: ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ** ﴾ [الأنفال: ١٧] فنفى الله عن نبيه الرمى، وأثبته لنفسه سبحانه، فدل على أنه لا صنع للعبد. قالوا: والجزاء غير مرتب على الأعمال بدليل قوله ﷺ: «لن يدخلَ أحدٌ الجنةَ بعمله، قالوا: ولا أنت يا رسولَ الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني اللهُ برحمةٍ منه وفضل»(١).

ومما استدل به القدرية، قوله تعالى: ﴿ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ [المؤمنون: ١٤]. قالوا: والجزاء مرتب على الأعمال ترتب العوض كما قال تعالى: ﴿ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [السجدة: ١٧]. ﴿ **تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [الأعراف: ٤٣]. ونحو ذلك.

فأما ما استدل به الجبرية من قوله تعالى: ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ** ﴾ - فهو دليل عليهم لأنه تعالى أثبت لرسوله ﷺ رميًا، بقوله: ﴿ **إِذْ رَمَيْتَ** ﴾، فعلم أن المثبت غير المنفى، وذلك أن الرمى له ابتداء وانتهاء: فابتداؤه الحذف، وانتهاؤه الإصابة، وكل منهما يسمى رميًا، فالمعنى حينئذ - والله تعالى أعلم - وما أصبت إذ حذفت ولكن الله أصاب. وإلا فطرد قولهم: وما صليت إذ صليت ولكن الله صلى. وما صمت إذ صمت. وما زنيت إذ زنيت. وما سرقت إذ سرقت. وفساد هذا ظاهر. وأما ترتيب الجزاء على الأعمال، فقد ضلت فيه الجبرية والقدرية، وهدى الله أهل السنة، وله الحمد والمنة. إن الباء التى فى النفى غير الباء التى فى الإثبات، فالنفى فى قوله ﷺ: «لن يدخل الجنة أحد بعمله» - باء العوض، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل إلى الجنة، كما زعمت

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الرقاق ١٨ ومرضى ١٩، ومسلم فى المنافقين ٧١، ٧٣، ٧٥، ورواه ابن ماجه فى الزهد ٢٠، والدارمى فى الرقاق ٢٤، وأحمد بن حنبل ٢-٢٣٥، ٢٥٦.

المعتزلة أن العامل يستحق دخول الجنة على ربه بعمله بل ذلك برحمة الله وفضله. والباء التى فى قوله تعالى: ﴿ **جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾، ونحوها - باء السبب، أى بسبب عملكم، والله تعالى خالق الأسباب والمسببات، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته.

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى: ﴿ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ [المؤمنون: ١٤] فمعنى الآية: أحسن المصورين المقدرين. و(الخلق) يذكر ويراد به التقدير، وهو المراد هنا، دليل قوله تعالى: ﴿ **اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [الرعد: ١٦، الزمر: ٦٢] أى الله خالق كل شىء مخلوق، فدخلت أفعال العباد فى عموم (كل) وما أفسد قولهم فى إدخال كلام الله تعالى فى عموم (كل) الذى هو صفة من صفاته، يستحيل عليه أن يكون مخلوقًا. وأخرجوا أفعالهم التى هى مخلوقة من عموم (كل).. وهو يدخل فى عموم (كل) إلا ما هو مخلوق؟ فذاته المقدسة وصفاته غير داخلة فى هذا العموم، ودخل سائر المخلوقات فى عمومها وكذا قوله تعالى: ﴿ **وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ** ﴾ [الصافات: ٩٦] ولا نقول: إن (ما) مصدرية، أى خلقكم وعملكم إذ سياق الآية يأباه، لأن إبراهيم عليه السلام إنما أنكر عليهم المنحوت، لا النحت، والآية تدل على أن المنحوت مخلوق لله تعالى، وهو ما صار منحوتًا إلا بفعلهم، فيكون ماهو من آثار فعلهم مخلوقًا لله تعالى، ولو لم يكن النحت مخلوقًا لله تعالى لم يكن المنحوت مخلوقًا له، بل الخشب أو الحجر لا غير. وذكر أبو الحسن البصرى إمام المتأخرين من المعتزلة: أن العلم بأن العبد يحدث فعله - ضرورى. وذكر الرازى أن افتقار الفعل المحدث الممكن إلى مرجح يجب وجوده عنده ويمتنع عند عدمه - ضرورى، وكلاهما صادق فيما ذكره من العلم الضرورى ثم إدعاء كل منهما أن هذا العلم الضرورى يبطل ما ادعاه الآخر من الضرورة غير مسلم بل كلاهما صادق فيما ادعاه من العلم الضرورى وإنما وقع غلطه فى إنكاره ما مع الآخر من الحق. فإنه لا منافاة بين كون العبد محدثًا لفعله وكون هذا الإحداث وجب وجوده بمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿ **وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا**

وَتَقْوَاهَا ﴾ [الشمس : ٧–٨] فقوله : ﴿ **فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا** ﴾ إثبات للقدر بقوله (فألهمها) وإثبات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه . ليعلم أنها هى الفاجرة والمتقية . وقوله بعد ذلك : ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا** ﴾ [الشمس : ٩–١٠] إثبات أيضًا لفعل العبد . ونظائر ذلك كثيرة .

وهذه شبهة أخرى من شبه القوم التى فرقتهم، بل مزقتهم كل ممزق، وهى : أنهم قالوا : كيف يستقيم الحكم على قولكم بأن الله يعذب المكلفين على ذنوبهم وهو خلقها فيهم؟ فأين العدل فى تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم؟ وهذا السؤال لم يزل مطروقًا فى العالم على ألسنة الناس، وكل منهم يتكلم فى جوابه بحسب علمه ومعرفته، وعنه تفرقت بهم الطرق : فطائفة أخرجت أفعالهم عن قدرة الله تعالى، وطائفة أنكرت الحكم والتعليل، وسدت باب السؤال، وطائفة أثبتت كسبًا لا يعقل . جعلت الثواب (والعقاب) عليه . وطائفة التزمت لأجله وقوع مقدور بين قادرين، ومفعول بين فاعلين . وطائفة التزمت لأجله وقوع مقدور بين قادرين، ومفعول بين فاعلين . وطائفة التزمت الجبر، وأن الله يعذبهم على ما لا يقدرون عليه . وهذا السؤال هو الذى أوجب هذا التفرق والاختلاف .

والجواب الصحيح عنه، أن يقال : إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية، وإن كانت خلقًا لله تعالى، فهى عقوبة له على ذنوب قبلها، فالذنب يكسب الذنب، ومن عقاب السيئة السيئة بعدها فالذنوب كالأمراض التى يورث بعضها بعضًا . ويبقى أن يقال فالكلام فى الذنب الأول الجالب لما بعده من الذنوب؟ يقال : هو عقوبة أيضًا على عدم فعل ما خلق له وفطر عليه، فإن الله سبحانه خلقه لعبادته وحده لا شريك له، وفطره على محبته وتأليهه والإنابة إليه، كما قال تعالى : ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا** ﴾ [الروم : ٣٠] . فلما لم يفعل ما خلق له وفطر عليه، من محبة الله وعبوديته والإنابة إليه – عوقب على ذلك بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصى، فإنه صادف قلبًا خاليًا قابلاً للخير والشر، ولو كان فيه الخير،

الذى يمنع ضده لم يتمكن منه الشر، كما قال تعالى: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤]، وقال إبليس: ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، وقال الله عز وجل: ﴿ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ * إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الحجر: ٤١-٤٢]. والإخلاص: خلوص القلب من تأليه ما سوى الله تعالى وإرادته ومحبته فخلص لله، فلم يتمكن منه الشيطان. وأما إذا صادفه فارغًا من ذلك تمكن منه بحسب فراغه، فيكون جعله مذنبًا مسيئًا فى هذه الحال عقوبة له على هذا الإخلاص وهى محض العدل.

فإن قلت: فذلك العدم من خلقه فيه؟ قيل: هذا سؤال فاسد، فإن العدم كاسمه، لا يفتقر إلى تعلق التكوين والأحداث به، فإن عدم الفعل ليس أمرًا وجوديًا حتى يضاف إلى الفاعل، بل شر محض والشر ليس إلى الله سبحانه كما قال ﷺ فى حديث الاستفتاح: «لبيك وسعديك والخير كله فى يديك والشر ليس إليك»[1] وكذلك فى حديث الشفاعة يوم القيامة حين يقول الله له: «يا محمد، فيقول: لبيك وسعديك، والخير فى يديك، والشر ليس إليك». وقد أخبر الله تعالى أن تسليط الشيطان إنما هو على الذين؟ يتولونه والذين هم به مشركون، فلما تولوه دون الله وأشركوا به معه عوقبوا على ذلك بتسليط الله (إياه) عليهم، وكانت هذه الولاية والإشراك خلو القلب وفراغه من الإخلاص، فإلهام البر والتقوى ثمرة هذا الإخلاص ونتيجته، وإلهام الفجور عقوبة على خلوه من الإخلاص. فإن قلت: إن كان هذا الترك أمرًا وجوديًا عاد السؤال جذعًا، وإن كان أمرًا عدميًا فكيف يعاقب على العدم المحض؟ قيل: ليس هنا ترك هو كف النفس ومنعها عما تريده وتحبه، فهذا قد يقال: إنه أمر وجودى، وإنما هنا عدم وخلو من أسباب الخير، وهذا العدم هو محض خلوها مما هو أنفع شيء لها والعقوبة على الأمر العدمى هى بفعل السيئات، لا بالعقوبات التى تناله بعد إقامة الحجة عليه بالرسل - فلله فيه عقوبتان: إحداهما: جعله مذنبًا خاطئًا، وهذه

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

عقوبة عدم إخلاصه وإنابته وإقباله على الله، وهذه العقوبة قد لا يحس بألمها ومضرتها لموافقتها شهوته وإرادته، وهى فى الحقيقة من أعظم العقوبات. والثانية: العقوبات المؤلمة بعد فعله للسيئات. وقد قرن الله تعالى بين هاتين العقوبتين فى قوله تعالى: ﴿ **فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ** ﴾ [الأنعام: ٤٤]، فهذه العقوبة الأولى، ثم قال: ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً** ﴾ [الأنعام: ٤٤]، فهذه العقوبة الثانية. فإن قيل: فهل كان يمكنهم أن يأتوا بالإخلاص والإنابة والمحبة له وحده – من غير أن يخلق ذلك فى قلوبهم ويجعلهم مخلصين منيبين له محبين له؟ أم ذلك محض جعله فى قلوبهم وإلقائه فيها؟ قيل: لا ، بل هو محض منته وفضله، وهو من أعظم الخير الذى هو بيده، والخير كله فى يديه، ولا يقدر أحد أن يأخذ من الخير إلا ما أعطاه، ولا يتقى من الشر إلا ما وقاه.

فإن قيل: فإذا لم يخلق ذلك فى قلوبهم ولم يوفقوا له ولا سبيل لهم إليه بأنفسهم، عاد السؤال؟ وكان منعهم منه ظلمًا، ولزمكم القول بأن العدل هو تصرف المالك فى ملكه بما شاء لا يسأل عما يفعل وهم يسألون؟ قيل: لا يكون سبحانه بمنعهم من ذلك ظالما، وإنما يكون المانع ظالمًا إذا منع غيره حقًا لذلك الغير عليه وهذا هو الذى حرَّمه الرب على نفسه وأوجب على نفسه خلافه وأما إذا منع غيره ما ليس بحق له. بل هو محض فضله ومنته عليه – ولم يكن ظالمًا بمنعه، فمنع الحق ظلم، ومنع الفضل والإحسان عدل. وهو سبحانه العدل فى منعه. كما هو المحسن المنان بعطائه.

فإن قيل: فإذا كان العطاءُ والتوفيق إحسانًا ورحمة، فهلا كان العمل له والغلبة، كما أن رحمته تغلب غضبه؟ قيل: المقصود فى هذا المقام بيان أن هذه العقوبة المترتبة على هذا المنع، والمنع المستلزم للعقوبة ليس بظلم. بل هو محض العدل، وهذا سؤال عن الحكمة التى أوجبت تقديم العدل على الفضل فى بعض المحال؟ وهلا سوى بين العباد فى الفضل؟ وهذا السؤال حاصله: لم يتفضل على هذا ولَمَ يتفضل على الآخر؟ وقد تولى الله سبحانه الجواب عنه بقوله: ﴿ **ذَلِكَ**

فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١]. وقوله: ﴿ **لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ** ﴾ [الحديد: ٢٩]. ولما سأله اليهود والنصارى عن تخصيص هذه الأمة بأجرين، وإعطائهم أجرهم، قال: «هل ظلمتكم من حقكم شيئًا؟ قالوا: لا، قال: فذلك فضلى أوتيه من أشاء»[1].
وليس فى الحكمة إطلاع كل فرد من أفراد الناس على كمال حكمته فى عطائه ومنعه، بل إذا كشف الله عن بصيرة العبد حتى أبصر جزءًا يسيرًا من حكمته فى خلقه وأمره وثوابه وعقابه، وتخصيصه وحرمانه وتأمل أحوال محال ذلك استدل بما علمه على ما لم يعلمه. ولما استشكل أعداؤه المشركون هذا التخصيص، قالوا: أهؤلاء منَّ الله عليهم منْ بيننا؟ قال تعالى مجيبًا لهم: ﴿ **أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ** ﴾ [الأنعام: ٥٣] فتأمل هذا الجواب ترى فى ضمنه أنه سبحانه أعلم بالمحل الذى يصلح لغرس شجرة النعمة فتثمر بالشكر، من المحل الذى لا يصلح لغرسها ولو غرست ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فإن قيل: إذا حكمتم باستحالة الإيجاد من العبد، فإذًا لا فعل للعبد أصلاً.
قيل: العبد فاعل لفعله حقيقة. وله قدرة حقيقةً. قال تعالى: ﴿ **وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ** ﴾ [البقرة: ١٩٧]، ﴿ **فَلا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ [هود: ٣٦]. وأمثال ذلك. وإذا ثبت كون العبد فاعلاً، فأفعاله نوعان: نوع يكون منه من غير اقتران قدرته وإرادته، فيكون صفة له ولا يكون فعلاً، كحركات المرتعش. ونوع يكون منه مقارنًا لإيجاد قدرته واختياره، فيوصف بكونه صفة وفعلاً وكسبًا للعبد، كالحركات الاختيارية. والله تعالى هو الذى جعل العبد فاعلاً مختارًا، وهو الذى يقدر على ذلك وحده لا شريك له، ولهذا أنكر السلف الجبر، فإن الجبر لا يكون إلا من عاجز، فلا يكون إلا مع الإكراه يقال: للأب ولاية إجبار البكر الصغيرة على النكاح، وليس له إجبار الثيب البالغ، أى: ليس له أن

---

(١) الحديث رواه البخارى فى المواقيت ١٧، وأنبياء ٥، وفضائل القرآن ١٧، وتوحيد ٣١، ٤٧، والترمذى فى الأدب ٨٢، وأحمد بن حنبل ٢-٦، ١١١، ١٢١.

يزوجها مكرهة، والله تعالى لا يوصف بالإجبار بهذا الاعتبار، لأنه سبحانه خالق الإرادة والمراد، قادر أن يجعله مختاراً، بخلاف غيره، ولهذا جاء فى ألفاظ الشارع (الجبل) دون (الجبر)، كما قال ﷺ لأشج عبد القيس: «إن فيك لخُلقين يحبهما اللهُ: الحلمُ والأناة، فقال: أخلقين تخلقتُ بهما؟ أم خلقين جُبلت عليهما؟ فقال: بل خلقان جبلت عليهما. فقال: الحمدُ لله الذى جبلنى على خلقين يحبهما الله تعالى»[1]، والله تعالى إنما يعذب عبده على فعله الاختيارى، والفرق بين العقاب على الفعل الاختيارى وغير الاختيارى مستقر فى الفطر والعقول.

وإذا قيل: خلق الفعل مع العقوبة عليه ظلم؟ كان بمنزلة أن يقال خلق أكل السُّم ثم حصول الموت به ظلم.. فكما أن هذا سبب للموت، فهذا سبب للعقوبة، ولا ظلم فيهما.

العبد فاعل لفعله ولكنه مخلوق لله

فالحاصل: أن فعل العبد فعل له حقيقة، ولكنه مخلوق لله تعالى ومفعول لله وليس هو نفس فعل الله. ففرق بين الفعل والمفعول، والخلق والمخلوق. وإلى هذا المعنى أشار الشيخ رحمه الله بقوله: «وأفعال العباد خلق الله وكسب من العباد» – أثبت للعباد فعلاً وكسبًا، وأضاف الخلق إلى الله تعالى. والكسب: هو الفعل الذى يعود على فاعله منه نفع أو ضرر كما قال تعالى: ﴿ **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

وقوله: «ولم يكلفهم الله تعالى إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم». وهو تفسير: (لا حول ولا قوة إلا بالله)، نقول: لا حيلة لأحد، ولا تحول لأحد، ولا حركة لأحد عن معصية الله إلا بمعونة الله، ولا قوة لأحد على إقامة طاعة الله والثبات عليها إلا بتوفيق الله، وكل شىء يجرى بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدرته. غلبت مشيئته المشيئات كلها، وعكست إرادته الإرادات كلها، وغلب قضاؤه الحيل كلها. يفعل ما يشاءُ، وهو غير ظالم أبداً: ﴿ **لا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ** ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

---

(١) الحديث رواه الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده، ورواه أبو داود فى الأدب ١٤٩.

ش: فقوله (فـم يكلفهـم الله تعالى إلا ما يطيقون) قال تعالى: ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]. ﴿لا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [الأنعام: ١٥٢] وعند أبي الحسن الأشعري أن تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً، ثم تردد أصحابه أنه: هل أورده الشارع أم لا؟ واحتج من قال بوروده بأمر أبي لهب بالإيمان، فإنه تعالى أخبرَ بأنه لا يؤمن. وأنه سيصلى نارًا ذات لهب، فكان مأمورًا بأن يؤمن والله يعلم بأنه لا يؤمن. وهذا تكليف بالجمع بين الضدين، وهو محال. والجواب عن هذا بالمنع: فلا نسلم بأنه مأمور (بأن نؤمن) بأنه لا يؤمن والاستطاعة التي بها يقدر على الإيمان كانت حاصلة، فهو غير عاجز عن تحصيل الإيمان، فما كلف إلا ما يطيقه كما تقدم في تفسير الاستطاعة. ولا يلزم قوله تعالى للملائكة: ﴿أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ﴾ [البقرة: ٣١]. مع عدم علمهم بذلك، وقوله للمصورين يوم القيامة: (أحيوا ما خلقتم)، وأمثال ذلك لأنه ليس بتكليف طلب فعل يثاب عليه فاعله ويعاقب تاركه، بل هو خطاب تعجيز. وكذا لا يلزم دعاءُ المؤمنين في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦]، لأن تحميل ما لا يطاق ليس تكليفًا بل يجوز أن يحمله جبلاً لا يطيقه فيموت. وقال ابن الانباري: أي لا تحملنا ما يثقل علينا أداؤه وإن كنا مطيقين له على تجشم وتحمل مكروه، قال: فخاطب العرب على حسب ما تعقل، فإن الرجل منهم يقول للرجل يبغضه: ما أطيق النظر إليك وهو مطيق لذلك، لكنه يثقل عليه. ولا يجوز في الحكمة أن يكلفه بحمل جبل بحيث لو فعل يثاب ولو امتنع يعاقب، كما أخبر سبحانه عن نفسه أنه لا يكلف نفسًا إلا وسعها.

ومنهم من يقول: يجوز تكليف الممتنع عادة، دون الممتنع لذاته، لأن ذاك لا يتصور وجوده فلا يعقل الأمر به، بخلاف هذا.

ومنهم من يقول: ما لا يطاق للعجز عنه لا يجوز تكليفه، بخلاف ما لا يطاق للاشتغال بضده، فإنه يجوز تكليفه. وهؤلاء موافقون للسلف والأئمة في المعنى، لكن كونهم جعلوا ما يتركه العبد لا يطاق لكونه تاركًا له مشتغلاً بضده

– بدعة فى الشرع واللغة فإن مضمونه أن فعل ما لا يفعله العبد لا يطيقه. وهم التزموا هذا، لقولهم: إن الطاقة – التى هى الاستطاعة وهى القدرة لا تكون إلا مع الفعل. فقالوا: كل من لم يفعل فعلاً فإنه لا يطيقه. وهذا خلاف الكتاب والسنة وإجماع السلف، وخلاف ما عليه عامة العقلاء، كما تقدمت الإشارة إليه عند ذكر الاستطاعة.

وأما ما لا يكون إلا مقارناً للفعل، فذلك ليس شرطاً فى التكليف مع أنه فى الحقيقة إنما هناك إرادة الفعل. وقد يحتجون بقوله تعالى: ﴿ **مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ** ﴾ [هود: ٢٠]، ﴿ **إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً** ﴾ [الكهف: ٦٧، ٧٢، ٧٥] وليس فى ذلك إرادة ما سموه استطاعة، وهو ما لا يكون إلا مع الفعل، فإن الله ذمهم على كونهم لا يستطيعون السمع ولو أراد بذلك المقارنة لكان جميع الخلق لا يستطيعون السمع قبل السمع. فلم يكن لتخصيص هؤلاء بذلك معنى، ولكن هؤلاء لبغضهم الحق وثقله عليهم، إما حسداً لصاحبه، وإما اتباعاً للهوى – لا يستطيعون السمع. وموسى عليه السلام لا يستطيع الصبر لمخالفة ما يراه لظاهر الشرع، وليس عنده منه علم. وهذه لغة العرب وسائر الأمم، فمن يبغض غيره يقال: إنه لا يستطيع الإحسان إليه، ومن يحبه يقال: إنه لا يستطيع عقوبته، لشدة محبته له، لا لعجزه عن عقوبته، فيقال ذلك للمبالغة، كما نقول: لأضربنه حتى يموت، والمراد الضرب الشديد. وليس هذا عذراً، فلو لم يأمر العباد إلا بما يهوونه لفسدت السموات والأرض، قال تعالى: ﴿ **وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ** ﴾ [المؤمنون: ٧١].

وقوله: «ولا يطيقون إلا ما كلفهم به»، إلى آخر كلامه – أى: ولا يطيقون إلا ما أقدرهم عليه. وهذه الطاقة هى التى من نحو التوفيق، لا التى من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات و«لا حول ولا قوة إلا بالله» – دليل على إثبات القدر. وقد فسرها الشيخ بعدها. ولكن فى كلام الشيخ إشكال: فإن التكليف لا يستعمل بمعنى الإقدار، وإنما يستعمل بمعنى الأمر والنهى، وهو قد قال: «لا يكلفهم إلا ما يطيقون، ولا يطيقون إلا ما كلفهم». وظاهره أنه يرجع

إلى معنى واحد، ولا يصح ذلك، لأنهم يطيقون فوق ما كلفهم به لكنه سبحانه يريد بعباده اليسر والتخفيف، كما قال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥]. وقال تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ [النساء: ٢٨]. وقال تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج: ٧٨]. فلو زاد فيما كلفنا به لأطقناه ولكنه تفضل علينا ورحمنا، وخفف عنا، ولم يجعل علينا فى الدين من حرج. ويجاب عن هذا الإشكال بما تقدم أن المراد الطاقة التى من نحو التوفيق، لا من جهة التمكن وسلامة الآلات، لكن فى العبارة قلق فتأمله.

قضاء الله يكون كونيًا وشرعيًا

وقوله: «وكل شيء يجرى بمشيئة الله وعلمه وقضائه وقدره» يريد بقضائه القضاء الكونى لا الشرعى، فإن القضاء يكون كونيًا وشرعيًا، وكذلك الإرادة والأمر والإذن والكتاب والحكم والتحريم والكلمات، ونحو ذلك. أما القضاءُ الكونى، ففى قوله تعالى: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ [فصلت: ١٢]. والقضاءُ الدينى الشرعى، فى قوله تعالى: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣] وأما الإرادة الكونية والدينية، فقد تقدم ذكرها عند قول الشيخ: «ولا يكون إلا ما يريد». وأما الأمر الكونى، ففى قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [يس: ٨٢]. وكذا قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦]، فى أحد الأقوال، هو أقواها. والأمر الشرعى، فى قوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ [النحل: ٩٠].. الآية. وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨]. وأما الإذن الكونى ففى قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢]. والإذن الشرعى فى قوله تعالى: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ [الحشر: ٥]. وأما الكتاب الكونى، ففى قوله تعالى: ﴿ مَا

يُعَمَّرُ من مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر: ١١]. وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. والكتاب الشرعى الدينى، في قوله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ ﴾ [المائدة: ٤٥] ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ [البقرة: ١٨٣]. وأما الحكم الكونى ففى قوله تعالى عن ابن يعقوب عليه السلام: ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يوسف: ٨٠]، وقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١١٢]. والحكم الشرعي، في قوله تعالى: ﴿ أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ [المائدة: ٢]. وقال تعالى: ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١٠]. وأما التحريم الكونى، ففى قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ [المائدة: ٢٦]، ﴿ وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لا يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء:٩٥]. والتحريم الشرعي، في قوله: ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣].... الآية. وأما الكلمات الكونية، ففى قوله تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ﴾ [الأعراف: ١٣٧]، وفى قوله ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر»[1]، والكلمات الشرعية الدينية، فى قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

* * *

---

(١) الحديث رواه البخارى أنبياء ١٠، ومسلم فى دعوات ٥٤-٥٥، وأبو داود فى الطب ١٩ وسنة ٢٠، والترمذى في طب ١٨ ودعوات ٤٠، ٩٠، ١١٢، وابن ماجه فى الطب ٣٥، ٣٦، ٤٦، والدارمى فى الاستئذان ٤٨، وأحمد بن حنبل ٢-١٨١، ٢٩٠.

نفى الظلم عن الله تعالى

وقوله: « يفعل ما يشاءُ، وهو غير ظالم أبداً » – الذى دل عليه القرآن من تنزيه الله لنفسه عن ظلم العباد، يقتضى قولاً وسطًا بين قولى القدرية والجبرية، فليس ما كان من بنى آدم ظلمًا وقبيحًا يكون منه ظلمًا وقبيحًا كما تقول القدرية، والمعتزلة ونحوهم. فإن ذلك تمثيل لله بخلقه، وقياس له عليهم. وهو الرب الغنىّ القادر، وهم العباد الفقراءُ المقهورون. وليس الظلم عبارة عن الممتنع الذى لا يدخل تحت القدرة، كما يقوله من يقوله من المتكلمين وغيرهم؛ يقولون: إنه يمتنع أن يكون فى الممكن المقدور ظلم. بل كل ما كان ممكنًا فهو منه – لو فعله – عدل، إذ الظلم لا يكون إلا من مأمور من غيره منهى، والله ليس كذلك. فإن قوله تعالى: ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا** ﴾ [طه: ١١٢]، وقوله تعالى: ﴿ **مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ** ﴾ [ق: ٢٩]، وقوله تعالى: ﴿ **وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ** ﴾ [الزخرف: ٧٦]، وقوله تعالى: ﴿ **وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا** ﴾ [الكهف: ٤٩] وقوله تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ تُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ [غافر: ١٧]. يدل على نقيض هذا القول.

ومنه قوله: (الذى رواه عنه رسوله: « يا عبادى، إنى حرمتُ الظلمَ على نفسى، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا »)[1]. فهذا دل على شيئين أحدهما: أنه حرم على نفسه الظلم. والممتنع لا يوصف بذلك. والثانى: أنه أخبر أنه حرمه على نفسه، كما أخبر أنه كتب على نفسه الرحمة، هذا يبطل احتجاجهم بأن الظلم لا يكون إلا من مأمور منهى، والله ليس كذلك. فيقال لهم: هو سبحانه كتب على نفسه الرحمة، وحرم على نفسه الظلم، وإنما كتب على نفسه وحرم على نفسه ما هو قادر عليه، لا ما هو ممتنع عليه.

---

(١) الحديث رواه مسلم فى البر ٥٥، وأحمد بن حنبل فى مسنده ٥–١٦٠ وهو جزء من حديث طويل رواه مسلم بسنده عن أبى ذر بقوله عن رسول الله قال: يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا... إلخ.

وأيضـا: فإن قـوله: ﴿ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا ﴾ [طه: ١١٢] – قد فسره السلف، بأن الظلم: أن توضع عليه سيئات غيره، والهضم: أن ينقص من حسناته، كما قال تعالى: ﴿ وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الإسراء: ١٥].

وأيضـا: فإن الإنسـان لا يخـاف الممتنع الذي لا يدخل تحت القـدرة حتى يأمن ذلك، وإنما يأمن مما يمكن، فلما آمنه من الظلم بقوله: «فلا يخاف» – علم أنه ممكن مقدور عليه. وكذا قوله: ﴿ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ ﴾ [ق: ٢٨] إلى قوله: ﴿ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ [ق: ٢٩] – لم يعن بها نفى ما لا يقدر عليه ولا يمكن منه، وإنما نفى ما هو مقدور عليه ممكن، وهو أن يجزوا بغير أعمالهم. فعلى قول هؤلاء ليس الله منزهًا عن شيء من الأفعال أصلاً، ولا مقدسًا عن أن يفعله، بل كل ممكن فإنه لا ينزه عن فعله، بل فعله حسن، ولا حقيقة للفعل السوء، بل ذلك ممتنع والممتنع لا حقيقة له.. والقرآن يدل على نقيض هذا القول، في مواضع، نزه الله نفسه فيها عن فعل ما لا يصلح له ولا ينبغي له، فعلم أنه منزه مقدس عن فعل السوء والفعل المعيب المذموم، كما أنه منزه مقدس عن وصف السوء والوصف المعيب المذموم. وذلك كقوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ ﴾ [المؤمنون: ١١٥] فإنه نزه نفسه عن خلق الخلق عبثًا، وأنكر على من حسب ذلك، وهذا فعل. وقوله تعالى: ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ﴾ [القلم: ٣٥]. وقوله تعالى: ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ص: ٢٨] إنكار منه على من جوز أن يسوى الله بين هذا وهذا. وكذا قوله: ﴿ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [الجاثية: ٢١] – إنكار على من حسب أنه يفعل هذا، وإخبار أن هذا حكم سيىء قبيح، وهو مما ينزه الرب عنه.

وروى أبو داود، والحاكم في «المستدرك»، من حديث ابن عباس وعبادة بن

الصامت(1)، وزيد بن ثابت(2)، عن النبى ﷺ: «لو أن الله عذَّب أهل السموات وأهل أرضه، لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم»(3). وهذا الحديث مما يحتج به الجبرية، وأما القدرية فلا يتأتى على أصولهم الفاسدة! ولهذا قابلوه إما بالتكذيب أو بالتأويل!! وأسعد الناس به أهل السنة، الذين قابلوه بالتصديق، وعلموا من عظمة الله وجلاله، قدْرَ نعمَ الله على خلقه، وعدم قيام الخلق بحقوق نعمه عليهم، إما عجزًا، وإما جهلاً، وإما تفريطًا وإضاعة، وإما تقصيرًا فى المقدور من الشكر، ولو من بعض الوجوه. فإن حقه على أهل السموات والأرض أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وتكون قوة الحب والإنابة، والتوكل والخشية، والمراقبة والخوف والرجاء: جميعها متوجهة إليه، ومتعلقة به، بحيث يكون القلب عاكفًا على محبته وتأليهه، بل على إفراده بذلك، واللسان محبوسًا على ذكره، والجوارح وقفًا على طاعته. ولا ريب أن هذا مقدور فى الجملة، ولكن النفوس تشح به، وهى فى الشح على مراتب لا يحصيها إلا الله تعالى. وأكثر المطيعين تشحُّ به نفسه من وجه، وإن أتى به من وجه آخر. فأين الذى لا تقع منه إرادةٌ تزاحم مرادَ الله وما يحبه منه؟ ومن ذا الذى لم يصدر منه خلاف ما خُلق له ولو فى وقت من الأوقات؟ فلو وضع الرب(4) سبحانه عدله على أهل سمواته وأرضه، لعذبهم

(1) هو عبادة بن الصامت بن قيس الأنصارى، أبو الوليد، صحابى، شهد العقبة، وكان أحد النقباء فى بيعة العقبة، ثم حضر فتح مصر، وولى القضاء بفلسطين، ومات بالرملة عام ٣٤هـ، روى ١٨١ حديثًا، اتفق البخارى ومسلم على ستة منها.

(2) هو زيد بن ثابت بن الضحاك الأنصارى، صحابى من أكابرهم. كان كاتب الوحى ولد فى المدينة سنة ١١ ق. م، ونشأ بمكة وقتل أبوه وهو ابن ست سنين، وهاجر مع النبى - ﷺ وهو ابن ١١ سنة، كان رأسًا فى القضاء والفتوى، له فى كتاب الحديث ٩٢ حديثًا، مات سنة ٤٥هـ.

(3) هذا جزء من حديث طويل رواه أبو داود فى السنة ١٦، وابن ماجه فى المقدمة، وبعد هذا: ولو كان مثل أحد ذهبًا تنفقه فى سبيل الله ما قبله منك حتى تؤمن بالقدر كله، فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك وأنك إن مت على غير هذا دخلت النار، وروى بعضه أحمد بن حنبل فى مسنده، (٥-١٨٢-١٨٣). وقال الشيخ أحمد شاكر: وهو حديث صحيح رجاله ثقات.

(4) فى «أ» سقطت كلمة (الرب).

بعدله، ولم يكن ظالمًا لهم. وغاية ما يُقدَّر ، توبة العبد من ذلك واعترافه، وقبول التوبة محض فضله وإحسانه، وإلا فلو عذَّب عبدَه على جنايته لم يكن ظالمًا، ولو قدِّر أنه تابَ منها. لكن أوجب على نفسه - بمقتضى فضله ورحمته - أنه لا يعذب من تاب، وقد كتب على نفسه الرحمة، فلا يسع الخلائق إلا رحمته وعفوه، ولا يبلغ عملُ أحد منهم أن ينجو به من النار، أو يدخل به الجنة، كما قال أطوعُ الناس لربه وأفضلهم عملاً، وأشدُّهم تعظيمًا لربه وإجلالاً: «لن ينجى أحداً منكم عمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل»[1]. وسأله الصديقُ دعاءً يدعو به فى صلاته، فقال: «اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى، إنك أنت الغفور الرحيم»[2]. فإذا كان هذا حال الصديق، الذى هو أفضل الناس بعد الأنبياء والمرسلين - فما الظن بسواه؟ بل إنما صار صدِّيقًا بتوفيته هذا المقام حقه، الذى يتضمن معرفة ربه، وحقه وعظمته، وما ينبغى له، وما يستحق على عبده، ومعرفة تقصيره. فسحقًا وبُعداً لمن زعم أن المخلوق يستغنىٰ عن مغفرة ربه ولا يكون به حاجة إليها! وليس وراء هذا الجهل بالله وحقه غاية فإن لم يتسع فهمك لهذا، فانزلْ إلى وطاة النعم، وما عليها من الحقوق، ووازنْ من[3] - شُكرها وكُفرها، فحينئذ تعلم أنه سبحانه لو عذَّب أهل سمواته وأرضه، لعذَّبهم وهو غير ظالم لهم.

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الرقاق ١٨، ومسلم فى المنافقين ٧١، ٧٣، ٧٥، وابن ماجه فى الزهد ٢٠، والدارمى فى الرقاق ٢٤، وأحمد بن حنبل ٢-٢٣٥، ٢٥٦، و٢٦٤، ٣١٩، ولفظه عند ابن ماجه: قال رسول الله - ﷺ - قاربوا وسددوا فإنه ليس أحد منكم بمنجيه عمله، قالوا: ولا أنت يا رسول الله...؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل.

(٢) الحديث رواه البخارى فى الآذان رقم ١٤٩ والتوحيد ٩، والدعوات ١٦، ورواه مسلم فى الذكر ٤٧-٤٨، وابن ماجه فى الدعاء ٣، والترمذى فى الدعوات ٩٦، والنسائى فى السهو ٥٩، وأحمد بن حنبل ١-٤، ٧.

(٣) فى الأصل: «بين».

«دعاء الأحياء للأموات»

قوله: «وفى دعاء الأحياء وصدقاتهم منفعة[1] للأموات».

ش: اتفق أهل السنة أن الأموات ينتفعون من سعى الأحياء بأمرين: أحدهما ما تسبب إليه الميت فى حياته. والثانى دعاءُ المسلمين واستغفارهم له، والصدقة والحج، على نزاع فيما يصل إليه[2] من ثواب الحج: فعن محمد بن الحسن: أنه إنما يصل إلى الميت ثواب النفقة، والحج للحاج. وعند عامة العلماء: ثواب الحج للمحجوج عنه، وهو الصحيح. واختلف فى العبادات البدنية، كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر: فذهب أبو حنيفة[3]، وأحمد وجمهور السلف إلى وصولها، والمشهور من مذهب الشافعى[4] ومالك[5] عدم وصولها. وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام إلى عدم وصول شيء البتة، لا الدعاء ولا غيره. وقولهم مردود بالكتاب والسنة، لكنهم استدلوا بالمتشابه من قوله تعالى: ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ** ﴾ [النجم: ٣٩]. وقوله: ﴿ **وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [يس: ٥٤] وقوله: ﴿ **لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ** ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو ولد صالح يدعو له، أو علم ينتفع به من بعده»[6]. فأخبر أنه إنما ينتفع بما كان تسبب فيه فى الحياة. وما لم يكن تسبب فيه فى الحياة فهو منقطع عنه. واستدل المقتصرون على وصول العبادات التى لا تدخلها النيابة بحال كالإسلام والصلاة والصوم وقراءة القرآن، وأنه يختص ثوابها بفاعله لا يتعداه، كما أنه فى الحياة لا يفعله أحدٌ عن أحد، ولا ينوب فيه عن فاعله غيره - بما روى النسائى بسنده، عن ابن عباس، عن النبى ﷺ، أنه قال:

---

(١) سقط من (ب) كلمة «منفعة».

(٢) سقط من (ب) كلمة «إليه».

(٣) راجع ترجمته فى ج١ ص٨٣.

(٤) راجع ترجمته فى ج١، ص١٨.

(٥) راجع ترجمته فى ج١ ص٨٣.

(٦) مسلم وغيره من حديث أبى هريرة، وهو مخرج فى «أحكام الجنائز» ص١٧٤ وراجع الدارمى فى المقدمة رقم ٤٦.

« لا يصلى أحد عن أحد ولا يصوم أحد عن أحد ، ولكن يطعم عنه مكان كل يوم مدًا من حنطة »[١].

انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه

والدليل على انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه، الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح. أما الكتاب، فقال تعالى: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ** ﴾ [الحشر: ١٠]. فأثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء. وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء إجماع الأمة على الدعاء له فى صلاة الجنازة، والادعية التى وردت بها السنة فى صلاة الجنازة مستفيضة. وكذا الدعاءُ له بعد الدفن، ففى « سنن أبى داود »، من حديث عثمان بن عفان رضى الله عنه، قال: كان النبى ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال: « استغفروا لأخيكم؛ واستألوا له التثبيت، فإنه الآن يُسأل »[٢] وكذلك الدعاءُ لهم عند زيارة قبورهم، كما فى « صحيح مسلم »، من حديث بُريدة بن الحصيب، قال: كان رسول الله ﷺ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا: « السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون، نسأل الله لنا ولكم العافية »[٣]. وفى « صحيح مسلم » أيضًا، عن عائشة رضى الله عنها: سألت النبى ﷺ: كيف تقول إذا استغفرت لأهل القبور؟ قال: « قولى: السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، ويرحم الله المستقدمين منا ومنكم والمستأخرين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون »[٤].

---

(١) قال الشيخ الألبانى: لا أعرف له أصلاً مرفوعًا، لا عند النسائى ولا عند غيره، وإنما رواه النسائى فى الكبرى (٤-٤٣-١)، والطحاوى فى « مشكل الآثار » (٣-١٤١) عن ابن عباس موقوفا عليه. وسنده صحيح.

(٢) الحديث رواه أبو داود فى كتاب الجنائز باب الاستغفار عند القبر للميت فى وقت الانصراف، قال أبو داود: بحير بن ريسان.

(٣) الحديث رواه مسلم فى الطهارة ٣٩، والجنائز ١٠٣، وأبو داود فى الجنائز ٧٩، والنسائى فى الطهارة ١٠٩، والجنائز ١٠٣.

(٤) الحديث رواه مسلم فى الجنائز ١٠٤، وابن ماجه فى الزهد ٣٦، وأحمد بن حنبل ٢-٣٠٠، ٣٧٥، ٤٠٨، ٥-٣٥٣، ٣٦٠، ٦-٧١، ١١١، ١٨٠.

وصول ثواب العبادات للأموات

وأما وصول ثواب الصدقة، ففى «الصحيحين»، عن عائشة رضى الله عنها: أن رجلاً أتى النبى ﷺ، فقال: يا رسول الله، إن أُمى افتُلتت نفسها، ولم توص، وأظنها لو تكلمت تصدقت، أفلها أجرٌ إن تصدقْت عنها؟ قال: «نعم»[1]. وفى «صحيح البخارى»، عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: أن سعد بن عبادة[2] توفيت أُمه وهو غائب عنها فأَتى النبى ﷺ، فقال: يا رسولَ الله، إنى أُمى توفيت وأنا غائب عنها، فهل ينفعها إن تصدقتُ عنها؟ قال: «نعم»، قال: فإنى أُشهدك أن حائطى المخرافَ صدقة عنها[3]. وأمثال ذلك كثيرة فى السنة.

وأما وصول ثواب الصوم، ففى «الصحيحين»، عن عائشة رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وعليه صيامٌ صام عنه وليُّه»[4]. وله نظائر فى «الصحيح». ولكن أبو حنيفة رحمه الله قال بالإطعام عن الميت دون الصيام عنه، لحديث ابن عباس المتقدم. والكلام على ذلك معروف فى كتب الفروع.

وصول ثواب الحج للميت

وأما وصول ثواب الحج، ففى «صحيح البخارى»، عن ابن عباس رضى الله عنهما: أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى ﷺ، فقالت: إن أُمى نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: «حجى عنها، أرأَيت لو كان على أُمك دينٌ، أكنت قاضيتَه؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاءِ»[5]. ونظائره أيضًا كثيرة.

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الجنائز ٩٥، وصايا ١٩، ورواه مسلم فى الزكاة ٥١، والوصية ١٢، ١٣، وابن ماجه فى الوصايا ٨، وأحمد بن حنبل ٦–٥١.

(٢) هو سعد بن عبادة بن دليم، صحابى من أهل المدينة، كان سيد الخزرج، وأحد الأمراء الأشراف فى الجاهلية والإسلام، وكان يلقب فى الجاهلية بالكامل لمعرفته الكتابة والرمى والسباحة، شهد العقبة، وشهد أحدا والخندق، خرج إلى الشام مهاجرا فمات عام ١٤هـ.

(٣) الحديث رواه الترمذى فى الزكاة ٣٣، والبخارى فى الوصايا ١٥، ٣٠، ٢٦، وأبو داود فى الوصايا باب فيمن مات عن غير وصية يتصدق عنه ولفظه: «أن رجلا قال: يا رسول الله، إن أمى توفيت أفينفعها إن تصدقت عنها؟ قال: نعم. قال: فإنى لى مخرفا، وإنى أشهدك أنى قد تصدقت به عنها».

(٤) الحديث رواه البخارى فى الصوم ٤٢، ومسلم فى صيام ١٥٣، وأبو داود فى الصوم ٤١، وابن ماجه فى الكفارات ١٩، وأحمد بن حنبل ٦–١٩.

(٥) الحديث رواه البخارى فى الاعتصام ١٢، ومسلم فى الصيام ١٥٧، والترمذى فى الحج ٨٥، والنسائى فى الحج ٧، والدارمى فى الصوم ٤٩، وأحمد بن حنبل ١–٢٣٩، و٢٧٩، ٣٤٥.

وأجمع المسلمون على أن قضاءَ الدين يُسقطه من ذمة الميت، ولو كان من أجنبى، ومن غير تركته. وقد دل على ذلك حديث أبى قتادة، حيث ضَمن الدينارين عن الميت، فلما قضاهما قال النبى ﷺ: «الآن بردت عليه جلدته»[1]. وكل ذلك جار على قواعد الشرع. وهو محض القياس، فإن الثواب حق العامل، فإذا وهبه لأخيه المسلم لم يُمنع من ذلك، كما لم يمنع من هبة ماله فى حياته، وإبرائه له منذ بعد وفاته. وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية. يوضحه: أن الصوم كفُّ النفس عن المفطرات بالنية، وقد نص الشارع على وصول ثوابه إلى الميت، فكيف بالقراءة التى هى عمل ونية؟!

والجواب عما استدلوا به فى قوله تعالى: ﴿ **وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ** ﴾ [النجم: ٣٩]. قد أجاب العلماءُ بأجوبة: أصحها جوابان: أحدها: أن الإنسان بسعيه وحسن عشرته اكتسب الأصدقاء، وأولد الأولاد، ونكح الأزواج، وأسدى الخير وتودَّد إلى الناس، فترحموا عليه، ودَعَوْا له، وأهْدَوا له ثواب الطاعات، فكان ذلك أثر سعيه، بل دخول المسلم مع جملة المسلمين فى عَقد الإسلام من أعظم الأسباب فى وصول نفع كل من المسلمين إلى صاحبه، فى حياته وبعد مماته، ودعوة المسلمين تُحيط من ورائهم. ويوضحه: أن الله تعالى جعل الإيمان سببًا لانتفاع صاحبه بدعاءِ إخوانه من المؤمنين وسعيهم فإذا أتى به فقد سعى فى السبب الذى يوصل إليه ذلك.

الثانى، وهو أقوى منه: أن القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعى غيره وإنما نفى ملكه لغير سعيه، وبين الأمرين من الفرق[2] ما لا يخفى. فأخبر تعالى أنه لا يملك إلا سعيه، وأما سعى غيره فهو ملك لساعيه، فإن شاء أن يبذله لغيره، وإن شاء أن يبقيه لنفسه.

وقوله سبحانه: ﴿ **أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا**

(١) الحديث رواه أحمد بن حنبل فى مسنده ٣-٣٣٠.
(٢) فى (ب) فرق.

سَعَىٰ ﴾ [النجم : ٣٨-٣٩] . آيتان محكمتان، مقتضيتان عدل الرب تعالى : فالأولى : تقتضى أنه لا يعاقب أحداً بجرم غيره، ولا يؤاخذه بجريرة غيره، كما يفعله ملوك الدنيا .

والثانية : تقتضى أنه لا يفلح إلا بعمله، لينقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه، كما عليه أصحاب الطمع الكاذب، وهو سبحانه لم يقل لا ينتفع إلا بما سعى .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ **لَهَا مَا كَسَبَتْ** ﴾ [البقرة : ٢٨٦] . وقوله : ﴿ **وَلا تُجْزَوْنَ إلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [يس : ٥٤] . على أن سياق هذه الآية يدل على أن المنفى عقوبة العبد بعمل غيره، فإنه تعالى قال : ﴿ **فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلا تُجْزَوْنَ إلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ** ﴾ [يس : ٥٤] .

وأما استدلالهم بقوله ﷺ : « إذا مات ابن آدم انقطع عمله »[١] فاستدلال ساقط، فإنه لم يقل انقطاع انتفاعه، وإنما أخبر عن انقطاع عمله . وأما عمل غيره فهو لعامله فإن وهبه له وصل إليه ثواب عمل العامل، لا ثواب عمله هو، وهذا كالدَّيْن يوفيه الإنسان عن غيره، فتبرأ ذمته، ولكن ليس له ما وفَّى به[٢] الدين .

وأما تفريق من فرق بين العبادات المالية والبدنية - فقد شرع النبى ﷺ الصوم عن الميت، كما تقدم، مع أن الصوم لا تجزىء فيه النيابة، وكذلك[٣] حديث جابر رضى الله عنه قال : صليت مع رسول الله ﷺ عيد الأضحى، فلما انصرف أتى بكبش فذبحه، فقال : « بسم الله والله أكبر، اللهم هذا عنى وعمن لم يضح من أمتى »[٤]، رواه أحمد وأبو داود والترمذى، وحديث الكبشين اللذين قال فى أحدهما : « اللهم هذا عن أمتى جميعًا »[٥]، وفى الآخر : « اللهم هذا عن

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث .

(٢) فى الأصل : « هذا » .

(٣) فى ب : « ولكن » .

(٤) الحديث رواه أبو داود فى الأضاحى ٧-٩، ١٣، ١٤، ورواه الترمذى فى الأضاحى ٢-٣، وأحمد بن حنبل ١-١٤٩، ١٥٠ .

(٥) قال الشيخ الألبانى : حسن . وهو فى المسند ٦-٣٩١-٣٩٢ .

محمد وآل محمد»[١]، رواه أحمد. والقُربة فى الأضحية إراقة الدم، وقد جعلها لغيره.

وكذلك عبادة الحج بدنية، وليس المال ركنًا فيه، وإنما هو وسيلة، ألا تَرى أن المكى يجب عليه الحج إذا قدر على المشى إلى عرفات، من غير شرط المال، وهذا هو الأظهر، أعنى أن الحج غير مركب من مال وبدن، بل بدنى محض، كما قد نص عليه جماعة من أصحاب أبى حنيفة المتأخرين. وانظر إلى فروض الكفايات كيف قام فيها البعض عن الباقين؟ ولأن هذا إهداء[٢] ثواب، وليس من باب النيابة، كما أن الأجير الخاص ليس له أن يستنيب عنه، وله أن يعطى أُجرته لمن شاء.

استئجار من يقرأ القرآن لم يفعله السلف

وأما استئجار قوم يقرؤون القرآن ويهدونه للميت!! فهذا لم يفعله أحد من السلف، ولا أمر به أحد من أئمة الدين، ولا رخص فيه. والاستئجار على نفس التلاوة غير جائز بلا خلاف. وإنما اختلفوا فى جواز الاستئجار على التعليم ونحوه، مما فيه منفعة تصل إلى الغير والثواب لا يصل إلى الميت إلا إذا كان العمل لله، وهذا لم يقع عبادة خالصة، فلا يكون له من ثوابه ما يهدى إلى الموتى!! ولهذا لم يقل أحد إنه يكترى من يصوم ويصلى ويهدى ثواب ذلك إلى الميت، لكن إذا أعطى لمن يقرأ القرآن ويعلمه ويتعلمه معونة لأهل القرآن على ذلك، كان هذا من جنس الصدقة عنه، فيجوز. وفى الاختيار: أوصى بأن يعطى من ماله لمن يقرأُ القرآن على قبره، فالوصية باطلة، لأنه فى معنى الأُجرة، انتهى. وذكر الزاهدى[٣] فى «الغنية» أنه لو وقف على من يقرأُ عند قبره، فالتعيين باطل.

---

(١) قال الشيخ الألبانى: ضعيف الإسناد فيه أبو صالح الخوزى قال فى التقريب: «لين الحديث» وأما الحاكم فقال فى هذا الحديث (١-٤٩١): صحيح الإسناد وسكت عليه الذهبى، وقال الترمذى: لا نعرفه إلا من هذا الوجه.

(٢) سقط من ب: «إهداء».

(٣) هو مختار بن محمود بن محمد أبو الرجا نجم الدين الزاهدى الغزمينى، فقيه من أكابر الحنفية من أهل غزمين بخوارزم، رحل إلى بغداد، من كتبه: الحاوى فى الفتاوى، والمجتبى شرح مختصر القدورى فى الفقه، وقنية المنية لتتميم الغنية، مات سنة ٦٥٨هـ.

التطوع بقراءة القرآن يصل للميت

وأما قراءة القرآن وإهداؤها له تطوعًا بغير أجرة، فهذا يصل إليه، كما يصل ثواب الصوم والحج. فإن قيل: هذا لم يكن معروفًا فى السلف، ولا أرشدهم إليه النبى ﷺ؟ فالجواب: إن كان مورد هذا السؤال معترفًا بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء، قيل له: ما الفرق بين ذلك وبين وصول ثواب قراءة القرآن؟ وليس كون السلف لم يفعلوه حجة فى عدم الوصول، ومن أين لنا هذا النفى العام؟ فإن قيل: فرسول الله ﷺ أرشدهم إلى الصوم والحج والصدقة دون القراءة؟ قيل: هو ﷺ لم يبتدئهم بذلك، بل خرج ذلك منه مخرج الجواب لهم، فهذا سأله عن الحج عن ميتة فأذن له فيه، وهذا سأله عن الصوم عنه، فأذن له فيه، ولم يمنعهم مما سوى ذلك، وأى فرق بين وصول ثواب الصوم – الذى هو مجرد نية وإمساك – وبين وصول ثواب القراءة والذكر؟ فإن قيل: ما تقولون فى الإهداء إلى رسول الله ﷺ؟ قيل: من المتأخرين من استحبه، ومنهم من رآه بدعة، لأن الصحابة لم يكونوا يفعلونه، ولأن النبى ﷺ له مثل أجر كل من عمل خيرًا من أمته، من غير أن ينقص من أجر العامل شىء، لأنه هو الذى دل أُمته على كل خير، وأرشدهم إليه.

ومن قال: إن الميت ينتفع بقراءة القرآن عنده، باعتبار سماعه كلام الله – فهذا لم يصح عن أحد من الأئمة المشهورين. ولا شك فى سماعه، ولكن انتفاعه بالسماع لا يصح، فإن ثواب الاستماع مشروط بالحياة، فإنه عمل اختيارى، وقد انقطع بموته، بل ربما يتضرر ويتألم، لكونه لم يمتثل أوامر الله ونواهيه، أو لكونه لم يَزْدَدْ من الخير.

واختلف العلماءُ فى قراءة القرآن عند القبور، على ثلاثة أقوال: هل تكره، أم لا بأس بها وقت الدفن وتكره بعده؟ فمن قال بكراهتها، كأبى حنيفة ومالك وأحمد فى رواية – قالوا: لأنه محدَث لم ترد به السنة، والقراءة تشبه الصلاة، والصلاة عند القبور منهى عنها، فكذلك القراءة. ومن قال: لا بأس بها، كمحمد ابن الحسن وأحمد فى رواية – استدلوا بما نقل عن ابن عمر رضى الله

عنه: أنه أوصى أن يُقرأ على قبره وقت الدفن بفواتح سورة البقرة وخواتمها ومن قال: لا بأس بها وقت الدفن فقط، وهو رواية عن أحمد - أخذ بما نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين. وأما بعد ذلك، فكالذين يتناوبون القبر للقراءة عنده - فهذا مكروه، فإنه لم تأت به السنة، ولم ينقل عن أحد من السلف مثل ذلك أصلاً. وهذا القول لعله أقوى من غيره، لما فيه من التوفيق بين الدليلين.

استجابة الله لعباده

قوله: «والله تعالى يستجيب الدعوات، ويقضي الحاجات».

ش: قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] والذى عليه أكثر الخلق من المسلمين وسائر أهل الملل وغيرهم - : أن الدعاء من أقوى الأسباب فى جلب المنافع ودفع المضار، وقد أخبر تعالى عن الكفار أنهم إذا مسهم الضر فى البحر دَعَوُا الله مخلصين له الدين، وأن الإنسان إذا مسه الضر دعاه لجنبه أو قاعدًا أو قائمًا. وإجابة الله لدعاء العبد، مسلماً كان أو كافراً، وإعطاؤه سؤاله: من جنس رزقه لهم، ونصره لهم. وهو مما توجبه الربوبية للعبد مطلقًا، ثم قد يكون ذلك فتنة فى حقه ومضرة عليه، إذ كان كفره وفسوقه يقتضى ذلك. وفى «سنن ابن ماجه» من حديث أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «من لم يسأل الله يغضب عليه»[1].

وقد نظم بعضهم هذا المعنى، فقال:

الرب يغضب إن تركتَ سؤاله ... وبُنىَّ آدمَ حين يُسأل يغضبُ

قال ابن عقيل[2]: قد ندب الله تعالى إلى الدعاء، وفى ذلك معان:

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه ورواه أيضاً الترمذى فى الدعوات ٢٤.

(٢) هو على بن عقيل بن محمد بن عقيل البغدادى الظفرى، أبو الوفا، عالم العراق، وشيخ الحنابلة ببغداد فى وقته، كان قوى الحجة، اشتغل بمذهب المعتزلة فى حداثته، وكان يعظم الحلاج، فأراد الحنابلة قتله ثم تاب، له تصانيف منها «كتاب الفنون»، وله الواضح فى الأصول، توفى عام ٥١٣هـ. (راجع جلاء العينين ٩٩).

أحدها: الوجود، فإن [الذى] ليس بموجود لا يدعى.

الثانى: الغنى، فإن الفقير لا يدعى.

الثالث: السمع، فإن الأصم لا يدعى.

الرابع: الكرم، فإن البخيل لا يدعى.

الخامس: الرحمة، فإن القاسى لا يدعى.

السادس: القدرة، فإن العاجز لا يدعى.

ومن يقول بالطبائع يعلمْ أن النار لا يقال لها: كُفى! ولا النجم يقال له: أصلح مزاجى!! لأن هذه عندهم مؤثرة طبعًا لا اختيارًا، فشرع الدعاء وصلاة الاستسقاء ليبين كذب أهل الطبائع(1).

الرد على من قال الدعاء لا يفيد

وذهب قوم من المتفلسفة وغالبةُ المتصوفة إلى ان الدعاء لا فائدة فيه! قالوا: لأن المشيئة الإلهية إن اقتضتْ وجودَ المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء، وإن لم تقتضه فلا فائدة فى الدعاء!! وقد يخص بعضهم بذلك خواص العارفين! ويجعل الدعاء علةً فى مقام الخواص!! وهذا من غلطات بعض الشيوخ. فكما أنه معلوم الفساد بالاضطرار من دين الإسلام - فهو معلوم الفساد بالضرورة العقلية، فإن منفعة الدعاء أمرٌ أُنشئت عليه تجارب الأمم، حتى إن الفلاسفة تقول: ضجيج الأصوات فى هياكل العبادات، بفنون اللغات، يحلل ما عقدته الأفلاك المؤثرات!! هذا وهم مشركون.

وجواب الشبهة بمنع المقدمتين: فإن قولهم عن المشيئة الإلهية: إما أن تقتضيه أولاً - ثم قسم ثالث، وهو: أن تقتضيه بشرط لا تقتضيه مع عدمه، وقد يكون الدعاءُ من شرطه، كما توجب الثواب مع العمل الصالح، ولا توجبه مع عدمه، وكما توجب الشبع والرى عند الأكل والشرب، ولا توجبه مع عدمهما؛ وحصول الولد بالوطء والزرع بالبذر. فإذا قُدِّر وقوع المدعوِّ به بالدعاء لم يصح أن

(1) فى ب: «الصنائع».

يقال لا فائدة فى الدعاء، كما لا يقال لا فائدة فى الأكل والشرب والبذر وسائر الأسباب. فقول هؤلاء – كما أنه مخالف للشرع، فهو مخالف للحس والفطرة.

ومما ينبغى أن يعلم، ما قاله طائفة من العلماء، وهو: أن الالتفات إلى الأسباب شرك فى التوحيد! ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص فى العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح فى الشرع ومعنى التوكّل والرجاء، يتألف من وجوب التوحيد والعقل والشرع.

وبيان ذلك: أن الالتفات إلى السبب هو اعتماد القلب عليه ورجاؤه والاستناد إليه. وليس فى المخلوقات ما يستحق هذا، لأنه ليس بمستقل، ولا بدَّ له من شركاء وأضداد مع هذا كله. فإن لم يسخره مسبب الأسباب لم يسخر.

وقولهم: إن اقتضت المشيئة المطلوب فلا حاجة إلى الدعاء؟ قلنا: بل قد تكون إليه حاجة، من تحصيل مصلحة أخرى عاجلة وآجلة، ودفع مضرة أخرى آجلة وعاجلة. وكذلك قولهم: وإن لم تقتضه فلا فائدة فيه؟ قلنا: بل فيه فوائد عظيمة، من جلب منافع، ودفع مضار، كما نبه عليه النبى ﷺ، بل ما يعجل للعبد، من معرفته بربه، وإقراره به، وبأنه سميع قريب قدير عليم رحيم، وإقراره بفقره إليه واضطراره إليه، وما يتبع ذلك من العلوم العلية والأحوال الزكية، التى هى من أعظم المطالب.

فإن قيل: إذا كان إعطاء الله معللاً بفعل العبد، كما يعقل من إعطاء المسؤول للسائل، كان السائل قد أثَّر فى المسؤول[1] حتى أعطاه؟! قلنا: الرب سبحانه هو الذى حرك العبد إلى دعائه، فهذا الخير منه، وتمامه عليه. كما قال عمر رضى الله عنه: «إنى لا أحمل همَّ الإجابة وإنما أحمل هم الدعاء، ولكن إذا أُلهمتُ الدعاء فإن الإجابة معه». وعلى هذا قوله تعالى: ﴿ **يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ** ﴾ [السجدة: ٥] فأخبر سبحانه أنه يبتدئُ بتدبير الأمر، ثم يصعد إليه الأمر الذى

(١) فى ب: «المال».

دبره، فالله سبحانه هو الذى يقذف فى قلب العبد حركة الدعاء، ويجعلها سببًا للخير الذى يعطيه إياه، كما فى العمل والثواب، فهو الذى وفق العبد للتوبة ثم قبلها، وهو الذى وفَّقه للعمل ثم أثابه وهو الذى وفقه للدعاء ثم أجابه، فما أثَّر فيه شىء من المخلوقات، بل هو جعل ما يفعله سببًا لما يفعله. قال مطفر بن عبد الله بن الشخير[1]، أحد أئمة التابعين: نظرت فى هذا الأمر، فوجدت مبدأه من الله، وتمامه على الله، ووجدت ملاك ذلك الدعاء.

وهنا سؤال معروف، وهو: أن من الناس من قد يسأل الله فلا يعطى شيئًا، أو يعطى غير ما سأل؟ وقد أجيب عنه بأجوبة، فيها ثلاثة أجوبة محققة -: أحدها: أن الآية لم تضمن عطية السؤال مطلقًا وإنما تضمنت إجابة الداعى، والداعى أعم من السائل، وإجابة الداعى أعم من إعطاء السائل. ولهذا قال النبى ﷺ: «ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول: من يدعونى فأستجيب له؟ من يسألنى فأعطيه؟ من يستغفرنى فأغفر له؟»[2]. ففرق بين الداعى والسائل، وبين الإجابة والإعطاء، وهو فرق بين[3] العموم والخصوص، كما أتبع ذلك بالمستغفر، وهو نوع من السائل، فذكر العام ثم الخاص ثم الأخص. وإذا علم العباد أنه قريب، يجيب دعوة الداعى، علموا قربه منهم، وتمكنهم من سؤاله -: وعلموا علمه ورحمته وقدرته، فدعوه دعاء العبادة فى حال، ودعاء المسألة فى حال، وجمعوا بينهما فى حال، إذ الدعاء اسم يجمع العبادة والاستعانة، وقد فسر قوله: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠] - بالدعاء، الذى هو العبادة، والدعاء الذى هو الطلب. وقوله بعد ذلك: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي ﴾ [غافر: ٦٠] - يؤيد المعنى الأول.

---

(١) هو مطرف بن عبد الله بن الشخير الحرشى العامرى، أبو عبد الله، زاهد من كبار التابعين، له كلمات فى الحكمة مأثورة، وأخبار ثقة فيما رواه من الحديث، كانت إقامته فى البصرة، مات سنة ٨٧هـ.

(٢) الحديث رواه البخارى فى التهجد ١٤، ومسلم فى المسافرين ١٦٨، ١٧٠، وأبو داود فى السنة ١٩، والترمذى فى الصلاة ٢١١، والدعوات ٧٨، وابن ماجه فى الإقامة ١٨٢، والدارمى فى الصلاة ١٦٨، وموطأ مالك ٣٠، وأحمد بن حنبل ج٢، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٨٢.

(٣) فى ب: «بالعموم».

الجواب الثاني: أن إجابة دعاء السؤال أعم من إعطاء عين السؤال كما فسره النبي ﷺ فيما رواه مسلم في «صحيحه»، أن النبي ﷺ قال: «ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث خصال: إما أن يعجل له دعوته، أو يدخر له من الخير مثلها، أو يصرف عنه من الشر مثلها»، قالوا: يا رسول الله، إذًا نكثر. قال: «الله أكثر»[1]. فقد أخبر الصادق المصدوق أنه لا بد في الدعوة الخالية عن العدوان من إعطاء السؤال معجلاً، أو مثله من الخير مؤجلاً، أو يصرف عنه من السوء مثله.

الجواب الثالث: أن الدعاء سبب مقتض لنيل المطلوب والسبب له شروط وموانع، فإذا حصلت شروطه وانتفت موانعه حصل المطلوب وإلا فلا يحصل ذلك المطلوب، بل قد يحصل غيره. وهكذا سائر الكلمات الطيبات، من الأذكار المأثورة المعلّق عليها جلبُ منافع أو دفع مضار، فإن الكلمات بمنزلة الآلة في يد الفاعل، تختلف باختلاف قوته وما يعينها، وقد يعارضها مانع من الموانع. ونصوص الوعد والوعيد المتعارضة في الظاهر-: من هذا الباب. وكثيراً ما تجد أدعية دعا بها قوم فاستجيب لهم، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورة صاحبه وإقباله على الله، أو حسنة تقدمتْ منه، جعل الله سبحانه إجابة دعوته شكرَ الحسنة، أو صادف وقت إجابة، ونحو ذلك – فأجيبت دعوته، فيظن أن السر في ذلك الدعاء، فيأخذه مجرداً عن تلك الأمور التي قارنته من ذلك الداعي. وهذا كما إذا استعمل رجل دواءً نافعًا في الوقت الذي ينبغي، فانتفع به، فظن آخر أن استعمال هذا الدواء بمجرده كاف في حصول المطلوب، وكان غالطًا. وكذا قد يدعو باضطرار عند قبر، فيجابُ، فيظن أن السر للقبر، ولم يدْر أن السر للاضطرار وصدْق اللَّجْء[2] إلى الله تعالى، فإذا حصل ذلك في بيت من بيوت الله تعالى كان أفضل وأحب إلى الله تعالى. فالأدعية والتعوُّذات والرُّقى بمنزلة السلاح، والسلاحُ بضاربه لا بحده فقط، فمتى كان السلاح سلاحًا تامًا، والساعد ساعداً قويًا، والمحل قابلاً، والمانع مفقوداً – : حصلت به النكاية في

---

(١) الحديث رواه أحمد بن حنبل في مسنده ج: (٣: ٨١).
(٢) اللجء: بفتح اللام وسكون الجيم: مصدر، كاللجوء.

العدو، ومتى تخلف واحد من هذه الثلاثة تخلف التأثير فإذا كان الدعاء في نفسه غير صالح، أو الداعي لم يجمع بين قلبه ولسانه في الدعاء أو كان ثمّ مانعٌ من الإجابة :- لم يحصل الأثر.

الله يملك ويغضب ويرضى

قوله: «ويملك كل شيء، ولا يملكه شيء. ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين، ومن استغنى عن الله طرفة عين، فقد كفر وصار من أهل الحين».

ش: كلام حق ظاهر لا خفاء فيه. والحين (بالفتح) الهلاك.

قوله: «والله يغضب ويرضى، لا كأحد من الورى».

ش: قال تعالى: ﴿**رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ**﴾ [المائدة: ١١٩]، ﴿**لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ**﴾ [الفتح: ١٨]، وقال تعالى: ﴿**مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ**﴾ [المائدة: ٦٠]، ﴿**وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ**﴾ [النساء: ٩٣]، ﴿**وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ٦١]. ونظائر ذلك كثيرة. ومذهب السلف وسائر الأئمة إثبات صفة الغضب والرضا والعداوة والولاية والحب والبغض، ونحو ذلك من الصفات، التي ورد بها الكتاب والسنة، ومنع التأويل الذي يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى. كما يقولون مثل ذلك في السمع والبصر والكلام وسائر الصفات، كما أشار إليه الشيخ فيما تقدم بقوله: إذ كان تأويل الرؤية وتأويل كل معنى يضاف إلى الربوبية بترك التأويل، ولزوم التسليم، وعليه دين المسلمين. وانظر إلى جواب الإمام مالك رضي الله عنه في صفة الاستواء كيف قال: الاستواء معلوم، والكيف مجهول. وروى أيضًا عن أم سلمة رضي الله عنها موقوفًا عليها، ومرفوعًا إلى النبي ﷺ. وكذلك قال الشيخ رحمه الله فيما تقدم: «مَنْ لم يتوق النفي والتشبيه، زل ولم يصب التنزيه»(١). ويأتي في كلامه: «أن الإسلام بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتعطيل». فقول الشيخ رحمه الله: لا كأحد من الورى، نفي التشبيه. ولا يقال: إن الرضى إرادة

---

(١) قال الشيخ الألباني: لا يصح مرفوعًا.

الإحسان، والغضب إرادة الانتقام – فإن هذا نفى للصفة. وقد اتفق أهل السنة على أن الله يأمر بما يحبه ويرضاه، وإن كان لا يريده ولا يشاؤه، وينهى عما يسخطه ويكرهه، ويبغضه ويغضب على فاعله، وإن كان قد شاءه وأراده. فقد يحبُّ عندهم ويرضى ما لا يريده، ويكره ويسخط ويغضب[1] لما أراده.

ويقال لمن[2] تأول الغضب والرضى بإرادة الإحسان: لم تأوّلت ذلك؟ فلابد أن يقول: إن الغضب غليان دم القلب، والرضى الميل والشهوة، وذلك لا يليق بالله تعالى! فيقال له: غليان دم القلب فى الآدمى أمر ينشأ عن صفة الغضب، لا أنّه الغضب[3]. ويقال له أيضًا: وكذلك الإرادة والمشيئة فينا، فهى مَيْل الحى إلى الشىء أو إلى ما يلائمه ويناسبه، فإن الحى منا لا يريد إلا ما يجلب له منفعة أو يدفع عنه مضرةً، وهو محتاج إلى ما يريده ومفتقر إليه، ويزداد بوجوده، وينتقص بعدمه. فالمعنى الذى صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذى صرفته عنه سواء، فإن جاز هذا جاز ذاك، وإن امتنع هذا امتنع ذاك.

فإن قال: الإرادة التى يوصف الله بها مخالفةٌ للإرادة التى يوصَف بها العبد، وإن كان كل منهما حقيقة؟ قيل له: فقل: إنَّ الغضب والرضى الذى يوصف الله به مخالفٌ لما يوصف به العبد، وإن كان كل منهما حقيقة. فإذا كان ما يقوله فى الإرادة يمكن أن يقال فى هذه الصفات، لم يتعين التأويل، بل يجب تركه، لأنك تسلم من التناقض، وتسلم أيضًا من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب. فإن صرف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب حرام ولا يكون الموجب للصرف ما دله عليه عقله، إذ العقول مختلفة، فكل يقول إن عقله دله على خلاف ما يقوله الآخر!

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفة من صفات الله تعالى، لامتناع مسمى ذلك فى المخلوق، فإنه لا بد أن يثبت شيئًا لله تعالى على خلاف ما يعهده حتى فى صفة الوجود، فإن وجود العبد كما يليق به، ووجود البارىء تعالى كما يليق

---

(١) سقط من (أ) : ويغضب.
(٢) فى (ب) : بأن.
(٣) سقط من (ب) : الغضب.

به، فوجوده تعالى يستحيل عليه العدم، ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم، وما سمى به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته، مثل الحى والعليم والقدير، أو سمى به بعض صفاته، كالغضب والرضى، وسمى به بعض صفات عباده: فنحن نعقل بقلوبنا معانى هذه الأسماء فى حق الله تعالى وأنه حق ثابت موجود ونعقل أيضًا معانى هذه الأسماء فى حق المخلوق، ونعقل أن بين المعنيين قدرًا مشتركًا، لكن هذا المعنى لا يوجد فى الخارج مشتركًا، إذ المعنى المشترك الكلى لا يوجد مشتركًا إلا فى الأذهان، ولا يوجد فى الخارج إلا معينًا مختصًا. فيثبت فى كل منهما كما يليق به. بل لو قيل: غضب مالك خازن النار وغضب غيره من الملائكة - لم يجب أن يكون مماثلاً لكيفية غضب الآدميين، لأن الملائكة ليسوا من الأخلاط الأربعة، حتى تغلى دماء قلوبهم كما يغلى دم قلب الإنسان عند غضبه، فغضب الله أولى.

وقد نفى الجهم[1] ومن وافقه كلَّ ما وصف الله به نفسه، من كلامه ورضاه وغضبه وحبه وبغضه وأسفه ونحو ذلك، وقالوا: إنما هى أمور مخلوقة منفصلةٌ، ليس هو فى نفسه متَّصفًا بشىء من ذلك!! وعارض هؤلاء من الصفاتية ابن كلاب[2] ومن وافقه، فقالوا: لا يوصف الله بشىء يتعلق بمشيئته وقدرته أصلاً، بل جميع[3] هذه الأمور صفاتٌ لازمة لذاته، قديمة أزلية، فلا يرضى فى وقت دون وقت، ولا يغضب فى وقت دون وقت. كما قال فى حديث الشفاعة: «إن ربى قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله»[4]. وفى «الصحيحين» عن أبى سعيد الخدرى[5] رضى الله عنه، عن النبى ﷺ: «إن الله تعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة، فيقولون: لبيك ربنا وسعديك والخير

---

(١) راجع ترجمته فى الجزء الأول، ص٧.

(٢) راجع ترجمته فى الجزء الأول، ص٨٨.

(٣) فى ب: وجميع.

(٤) هذا جزء من حديث طويل رواه البخارى فى الأنبياء ٣، والتفسير سورة ١٧، ورواه الإمام مسلم فى الإيمان ٣٢٧، والترمذى فى القيامة ١٠، ورواه أحمد بن حنبل فى مسنده، ٢: ٤٢٥، ٤٣٦.

(٥) هو سعد بن مالك بن سنان الخدرى الأنصارى، الخزرجى، أبو سعيد، صحابى، كان من ملازمى النبى ﷺ، وروى عنه أحاديث كثيرة، غزا اثنتى عشرة غزوة، وله ١١٧ حديثا، توفى فى المدينة عام ٧٤هـ رضى الله عنه.

فى يديك، فيقول: هل رضيتم؟ فيقولون: وما لنا لا نرضى يا رب؟ وقد أعطيتنا ما لم تعط أحداً من خلقك. فيقول: ألا أُعطيكم أفضل من ذلك؟ فيقولون: يا رب، وأىُّ شىءٍ أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحلُّ عليكم رضوانى، فلا أسخط عليكم بعده أبداً»(١). فيستدل به على أنه يحل رضوانه فى وقت دون وقت وأنه قد يحل رضوانه ثم يسخط، كما يحل السخط ثم يرضى، لكن هؤلاء أحل عليهم رضوانًا لا يعقبه سخط. وهم قالوا: لا يتكلم إذا شاء، ولا يضحك إذا شاء، ولا يغضب إذا شاء، ولا يرضى إذا شاء، بل إما أن يجعلوا الرضى والغضب والحب والبغض هو الإرادة، أو يجعلوها صفات أُخرى، وعلى التقديرين فلا يتعلق شىء من ذلك إلا بمشيئته ولا بقدرته، إذ لو تعلَّق بذلك لكان محلاً للحوادث!! فنفى هؤلاء الصفات الذاتية بهذا الأصل، كما نفى أولئك الصفات مطلقًا بقولهم: ليس محلاً للأعراض. وقد يقال: بل هى أفعال، ولا تسمى حوادث، كما سميت تلك صفات ولم تُسمَّ أعراضًا. وقد تقدمت الإشارة إلى هذا المعنى، ولكن الشيخ رحمه الله لم يجمع الكلام فى الصفات فى المختصر فى مكان واحد، وكذلك الكلام فى القدر ونحو ذلك، ولم يعتن فيه بترتيب.. وأحسن ما يرتب عليه كتاب أُصول الدين ترتيبُ جواب النبى ﷺ لجبريل عليه السلام، حين سأله عن الإيمان، فقال: «أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره»(٢)، الحديث، فيبدأ بالكلام على التوحيد والصفات وما يتعلق بذلك، ثم بالكلام عن الملائكة، ثم وثم، إلى آخره.

حب أصحاب رسول الله ﷺ

وقوله: «ونحب أصحاب رسول الله ﷺ، ولا نفرط فى حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم. ونبغض من يبغضهم، وبغير الخير يذكرهم. ولا نذكرهم إلا بخير. وحبهم دين وإيمان وإحسان وبغضهم كفر ونفاق وطغيان».

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الرقاق ٥١، والتوحيد ٣٨، ورواه مسلم فى الجنة ٩ والترمذى فى الجنة ١٨.

(٢) الحديث رواه مسلم فى الإيمان ١، ٧. وأبو داود فى السنة ١٦، والترمذى فى القدر ١٠، والإيمان ٤، والنسائى فى الإيمان ٥-٦، وابن ماجه فى المقدمة ٩-١٠ وأحمد بن حنبل ٢٧١-٢٨، ٥٢، ٩٧، ١٣٣، ٣١٩.

ش : يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الروافض[1] والنواصب . وقد أثنى الله تعالى على الصحابة هو ورسوله، ورضي الله عنهم ، ووعدهم الحسنى، كما قال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة : ١٠٠] . وقال تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ [الفتح : ٢٩]، إلى آخر السورة، وقال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح : ١٨]، وقال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ [الأنفال : ٧٢] إلى آخر السورة . وقال تعالى : ﴿ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد : ١٠] . وقال تعالى : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر : ٨-١٠] . وهذه الآيات تتضمن الثناء على المهاجرين والأنصار، وعلى الذين جاؤوا من بعدهم، يستغفرون لهم، ويسألون الله أن لا يجعل في قلوبهم

---

(١) الروافض : فرقة من فرق الشيعة الذين شايعوا الإمام على رضى الله عنه : والرفض أنهم كانوا يطلبون منهم رفض حب الإمام على وأبنائه ولذا قال الشاعر :

إن كان رفضاً حب آل محمد   فليشهد الثقلان أني رافض

غلاً لهم، وتتضمن أن هؤلاء هم المستحقون للفيء، فمن كان فى قلبه غل للذين آمنوا ولم يستغفر لهم لا يستحق فى الفيء نصيبًا، بنص القرآن. وفى «الصحيحين» عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه، قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف بشئ، فسبَّه خالد، فقال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أحداً من أصحابى، فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا، ما أدرك مد أحدهم ولا نصيفه»[1]. انفرد مسلم بذكر سب خالد لعبد الرحمن، دون البخارى. فالنبى[2] ﷺ يقول لخالد ونحوه «لا تسبوا أصحابى»، يعنى عبد الرحمن وأمثاله، لأن عبد الرحمن ونحوه هم السابقون الأولون وهم الذين أسلموا من قبل الفتح وقاتلوا وهم أهل بيعة الرضوان وهم أفضل وأخص بصحبته ممن أسلم بعد بيعة الرضوان، وهم الذين أسلموا بعد الحديبية، وبعد مصالحة النبى ﷺ أهل مكة، ومنهم خالد بن الوليد، وهؤلاء أسبق ممن تأخر إسلامهم إلى فتح مكة وسموا الطلقاء منهم أبو سفيان وابناه يزيد ومعاوية والمقصود أنه نهى من له صحبة آخراً أن يسب من له صحبةٌ أولاً، لامتيازهم عنهم من الصحبة بما لا يمكن أن يشركوهم فيه، حتى لو أنفق أحدُهم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه. فإذا كان هذا حال الذين أسلموا بعد الحديبية، وإن كان قبل فتح مكة فكيف حال من ليس من الصحابة بحال مع الصحابة؟ رضى الله عنهم أجمعين.

والسابقون الأولون – من المهاجرين والأنصار – هم الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، وأهل بيعة الرضوان كلهم منهم، وكانوا أكثر من ألف وأربعمائة. وقيل: إن السابقين الأولين من صلى إلى القبلتين، وهذا ضعيف. فإن الصلاة إلى القبلة المنسوخة ليس بمجرده فضيلة، لأن النسخ ليس من فعلهم، ولم يدل على التفضيل به دليل شرعى، كما دل على التفضيل بالسبق إلى الإنفاق والجهاد والمبايعة التى كانت تحت الشجرة.

وأما ما يروى عن النبى ﷺ أنه قال: «أصحابى كالنجوم، بأيهم اقتديتم

---

(١) الحديث رواه البخارى فى فضائل أصحاب النبى ٥، ورواه مسلم فى فضائل الصحابة ٢٢١–٢٢٢، وأبو داود فى السنة ١٠، والترمذى فى المناقب ٥٨، وأحمد بن حنبل ٣: ١١.

(٢) فى (ب): «فإن النبى».

اهتديم»[1] – فهو حديث ضعيف، قال البزار : هذا حديث لا يصح عن رسول الله ﷺ، وليس هو فى كتب الحديث المعتمدة.

وفى «صحيح مسلم» عن جابر، قال: قيل لعائشة رضى الله عنها إن ناساً يتناولون أصحاب رسول الله ﷺ حتى أبا بكر وعمر! فقالت: وما تعجبون من هذا! انقطع عنهم العمل، فأحب الله أن لا يقطع عنهم الأجر[2]. وروى ابن بطة[3] بإسناد صحيح، عن ابن عباس، أنه قال: لا تسبوا أصحاب محمد ﷺ، فلمقام أحدهم ساعة يعنى مع النبى ﷺ خير من عمل أحدكم أربعين سنة. وفى رواية وكيع: خير من عبادة أحدكم عمره. وفى «الصحيحين» من حديث عمران ابن حُصين وغيره، أن رسول الله ﷺ قال: خير الناس قرنى، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم»، قال عمران: فلا أدرى: أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة[4]، الحديث. وقد ثبت فى «صحيح مسلم» عن جابر، أن النبى ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة»[5]. وقال تعالى: ﴿ **لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ**

---

(١) قال الألبانى: بل هو حديث باطل كما بينته فى «الأحاديث الضعيفة والموضوعة» (رقم ٥٧) وقال الشيخ أحمد شاكر ذكره الذهبى فى الميزان فى ترجمة جعفر بن عبد الواحد هو ممن يضع الحديث ويروى أحاديث لا أصل لها ووصف الذهبى هذا الخبر بأنه من بلايا جعفر.

(٢) قال الألبانى: هذا حديث غريب عندى، وعزوه لمسلم أغرب فإنى لم أقف عليه فيه، بعد الاستعانة عليه بكل الوسائل الممكنة، ولم يتيسر لى مراجعته فى مصادر أخرى من كتب الحديث، فإنى على وشك السفر إلى المدينة إن شاء الله تعالى. ثم تيقنت عدم وجوده فيه بعد أن فرغت منه بضع سنين من اختصار «صحيح مسلم» وأنا الآن فى صدد اختصار «صحيح البخارى» على منهج علمى دقيق.

(٣) هو عبد الله بن محمد أبو عبد الله العكبرى المعروف بابن بطة، عالم بالحديث، فقيه من كبار الحنابلة من أهل عكبرا، رحل إلى مكة والثغور والبصرة وغيرها فى طلب الحديث، ثم لزم بيته أربعين سنة. من كتبه «الإبانة فى أصول الديانة»، مات سنة ٣٨٧هـ.

(٤) الحديث رواه البخارى ٥-١٩٠ فى الشهادات وفى فضل أصحاب النبى ﷺ، وفى الإيمان والنذور، ومسلم رقم ٢٥٣٥ فى فضائل الصحابة، والترمذى رقم ٢٢٢٢ فى الفتن باب: ما جاء فى القرن الثالث، ورقم ٢٣٠٣ فى الشهادات وأبو داود رقم ٤٦٥٧ فى السنة، والنسائى ٧-١٧، ١٨ فى الإيمان.

(٥) الحديث رواه مسلم رقم ٢٤٩٦ فى فضائل الصحابة، وأبو داود رقم ٤٦٥٢ فى السنة، باب فى الخلفاء، والترمذى رقم ٢٨٥٩ فى المناقب باب ما جاء فى فضل من بايع تحت الشجرة.

﴿وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة: ١١٧] ولقد صدق عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى وصفهم، حيث قال: إن الله نظر فى قلوب العباد، فوجد قلب محمد خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، وابتعثه برسالته، ثم نظر فى قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن، وما رأوه سيئًا فهو عند الله سيء(١). وفى رواية: وقد رأى أصحاب محمد جميعًا أن يستخلفوا أبا بكر. وتقدم قول ابن مسعود: من كان منكم مستنًا فليستن بمن قد مات إلخ عند قول الشيخ: ونتبع السنة والجماعة.

فمن أضل ممن يكون فى قلبه غل(٢) على خيار المؤمنين، وسادات أولياء الله تعالى بعد النبيين؟ بل قد فضلهم اليهود والنصارى بخصلة قيل لليهود: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب موسى؛ وقيل للنصارى: من خير أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب عيسى، وقيل للرافضة: من شَرّ أهل ملتكم؟ قالوا: أصحاب محمد!! لم يستثنوا منهم إلا القليل، وفيمن سبُّوهم من هو خير ممن استثنوهم، بأضعاف مضاعفة.

وقوله: ولا نفرط فى حب أحد منهم – أى لا نتجاوز الحد فى حب أحد منهم، كما تفعل الشيعة، فنكون من المعتدين.. قال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ﴾ [النساء: ١٧١].

وقوله: ولا نتبرأ من أحد منهم – كما فعلت الرافضة! فعندهم لا ولاء إلا ببراء، أى لا يتولى أهل البيت حتى يتبرأ من أبى بكر وعمر رضى الله عنهما!! وأهل السنة يوالونهم كلهم، وينزلونهم منازلهم التى يستحقونها، بالعدل والإنصاف، لا بالهوى والتعصب. فإن ذلك كله من البغى الذى هو مجاوزة

(١) يقول الشيخ الألبانى: حسن موقوفًا. أخرجه الطيالسى وأحمد وغيرهما بسند حسن وصححه الحاكم ووافقه الذهبى.

(٢) فى ب: حقد.

الحد، كما قال تعالى: ﴿ **فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ﴾ [الجاثية: ١٧]. وهذا معنى قول من قال من السلف: الشهادة بدعة، والبراءة بدعة. يروى ذلك عن جماعة من السلف، من الصحابة والتابعين، منهم: أبو سعيد الخدرى، والحسن البصرى، وإبراهيم النخعى، والضحاك وغيرهم. ومعنى الشهادة، أن يشهد على معيَّن من المسلمين أنه من أهل النار، أو أنه كافر، بدون العلم بما ختم الله له به.

وقوله: وحبهم دين وإيمان وإحسان، لأنه امتثال لأمر الله فيما تقدم من النصوص، وروى الترمذى عن عبد الله بن مغفَّل، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الله الله فى أصحابى، لا تتخذوهم غرضًا بعدى، فمن أحبهم فبحبى أحبهم، ومن أبغضهم فببغضى أبغضهم، ومن آذاهم فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله تعالى، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه»[1]. وتسمية حب الصحابة إيمانًا مشكل على الشيخ رحمه الله، لأن الحب عمل القلب، وليس هو التصديق، فيكون العمل داخلاً فى مسمى الإيمان. وقد تقدم فى كلامه: إن الإيمان هو الإقرار باللسان والتصديق بالجنان، ولم يجعل العمل داخلاً فى مسمى الإيمان، وهذا هو المعروف من مذهب أهل السنة إلا أن تكون هذه التسمية مجازًا.

وقوله: وبغضهم كفر ونفاق وطغيان، تقدم الكلام فى تكفير أهل البدع، وهذا الكفر نظير الكفر المذكور فى قوله: ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ [المائدة: ٤٤]. وقد تقدم الكلام فى ذلك.

* * *

ثبوت الخلافة بأبى بكر بالنص

قوله: «ونثبت الخلافة بعد رسول الله ﷺ أولاً لأبى بكر الصديق رضى الله عنه، تفضيلاً له وتقديمًا على جميع الأمة».

ش: اختلف أهل السنة فى خلافة الصديق رضى الله عنه: هل كانت

---

(١) قال الشيخ الألبانى: ضعيف، وقال الترمذى: «غريب». وقد أخرجه الألبانى فى الأحاديث الضعيفة. ورواه الترمذى (٤-٣٦٠).

بالنص، أو بالاختيار؟ فذهب الحسن البصرى[1] وجماعة من أهل الحديث إلى أنها ثبتت بالنص الخفى والإشارة، ومنهم من قال بالنص الجلى. وذهب جماعة من أهل الحديث والمعتزلة والأشعرية إلى أنها ثبتت بالاختيار.

والدليل على إثباتها بالنص أخبارٌ: من ذلك ما أسنده البخارى عن جبير ابن مُطعم[2]، قال: أتت امرأة النبى ﷺ، فأمرها أن ترجع إليه، قالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ كأنها تريد الموت، قال: «إن لم تجدينى فأتى أبا بكر»[3]. وذكر له سياق آخر، وأحاديث أُخر. وذلك نص على إمامته. وحديث حذيفة بن اليمان[4]، قال: قال رسول الله ﷺ: «اقتدوا بالذين من بعدى: أبى بكر وعمر»[5]. رواه أهل السنن. وفى «الصحيحين» عن عائشة رضى الله عنها. وعن أبيها، قالت: «دخل علىَّ رسول الله ﷺ فى اليوم الذى بدىء فيه، فقال: ادعى لى أباك وأخاك، حتى أكتب لأبى بكر كتابًا، ثم قال: يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر». وفى رواية: «فلا يطمع فى هذا الأمر طامع». وفى رواية: قال «ادعى لى عبد الرحمن بن أبى بكر، لأكتب لأبى بكر كتابًا لا يختلف عليه، ثم قال: معاذَ الله أن يختلف المؤمنون فى أبى بكر»[6]، وأحاديث تقديمه فى الصلاة مشهورة

---

(١) هو الحسن بن يسار البصرى، أبو سعيد تابعى، كان إمام أهل البصرة، وحبر الأمة فى زمنه، وهو أحد العلماء الفقهاء الفصحاء الشجعان النساك، ولد بالمدينة ٢١هـ وشب فى كنف على بن أبى طالب، وسكن البصرة، وكان يدخل على الولاة فيأمرهم وينهاهم لا يخاف فى الحق لومة، ومات سنة ١١٨هـ.

(٢) هو جبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف، القرشى، أبو عدى، صحابى، كان من علماء قريش وسادتهم، توفى بالمدينة، وعده الجاحظ من كبار النسابين. وفى الإصابة: كان أنسب قرشى لقريش والعرب قاطبة، مات سنة ٥٩هـ، له ٦٠ حديثا.

(٣) الحديث رواه مسلم فى كتاب فضائل الصحابة رقم ٢٣٨٦ عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه.

(٤) هو حذيفة بن حسل بن جابر العبسى، أبو عبد الله، واليمان لقب حسل، صحابى من الولاة الشجعان الفاتحين، كان صاحب سر النبى ﷺ، فى المنافقين لم يعلمهم أحد غيره، هاجم نهاوند سنة ٢٢هـ، فصالحه صاحبها على مال يؤديه فى كل سنة مات سنة ٣٦هـ.

(٥) الحديث رواه الترمذى رقم ٢٦٦٣، ٣٦٦٤ فى المناقب، باب مناقب أبى بكر رضى الله عنه، وقال الترمذى: هذا حديث حسن وهو كما قال.

(٦) الحديث رواه أحمد بن حنبل فى المسند، ج٥، صفحة ١٠٦، ٤٧.

معروفة وهو يقول: «مروا أبا بكر فليصل بالناس»(١). وقد روجع فى ذلك مرة بعد مرة، فصلى بهم مدة مرض النبى ﷺ. وفى «الصحيحين» عن أبى هريرة؛ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينا أنا نائم رأيتنى على قليب، عليها دلو، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبى قحافة، فنزع منها ذنوبًا أو ذنوبين، وفى نزعه ضعف، والله يغفر له، ثم استحالت غَرْبًا، فأخذها ابن الخطاب، فلم أرَ عبقريًا من الناس يَفرى فَريه، حتى ضرب الناسُ بعَطن»(٢). وفى «الصحيح» أنه ﷺ قال على منبره: «لو كنت متخذًا من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، لا يبقينّ فى المسجد خوخة إلا سدت، إلا خوخة أبى بكر»(٣). وفى «سنن أبى داود» وغيره، من حديث الأشعث عن الحسن عن أبى بكرة، أن النبى ﷺ قال ذات يوم: «من رأى منكم رؤيا؟ فقال رجل: أنا رأيت ميزانًا أنزل من السماء، فوزنتَ أنت وأبو بكر، فرجحت أنت بأبى بكر، ثم وُزن عمر وأبو بكر، فرجح أبو بكر، ووزن عمر وعثمان، فرجح عمر، ثم رفع، فرأيت الكراهة فى وجه النبى ﷺ، فقال: «خلافة نبوَّة، ثم يؤتى الله الملك من يشاء»(٤). فبين رسول الله ﷺ، أن ولاية هؤلاء خلافة نبوة، ثم بعد ذلك ملك، وليس فيه ذكر على رضى الله عنه، لأنه لم يجتمع الناس فى زمانه، بل كانوا مختلفين، لم ينتظم فيه خلافة

---

(١) الحديث أخرجه البخارى (٦-٢٩٩) فى الأنبياء، وفى الجماعة باب أهل العلم والفضل أحق بالإمامة، ومسلم رقم ٤٢٠ فى الصلاة باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر من مرض وسفر وغيرهما، والترمذى رقم ٣٦٧٢ فى المناقب، والنسائى ٢-٩٨-١٠٠ فى الإمامة.

(٢) الحديث رواه البخارى ٧-٣٦ فى فضائل أصحاب النبى ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وفى التعبير باب نزع الماء من البئر حتى يروى الناس، وباب نزع الذنوب والدلوين من البئر بضعف، ومسلم رقم ٢٣٩٣ فى فضائل الصحابة، والترمذى رقم ٢٢٩٠ فى الرؤيا باب ما جاء فى رؤيا النبى ﷺ فى الميزان والدلو.

(٣) الحديث رواه البخارى ٧-٥ فى فضائل أصحاب النبى قول النبى ﷺ، لو كنت متخذا خليلاً. وفى المساجد باب الخوخة والممر فى المسجد، وأخرجه الترمذى ٣٦٦٠ فى المناقب، باب مناقب أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - وهو حديث حسن بشواهده.

(٤) قال الشيخ الألبانى: صحيح رواه أبو داود (٤٦٣٤-٤٦٣٥) من طريقين عن أبى بكرة، واللفظ الذى فى الكتاب هو عنده من طريق الأشعث التى ذكرها المولف، لكن ليس فيها قوله فى آخره: خلافة.... وهذه الزيادة عنده من الطريق الأخرى، وفيها على بن يزيد، وهو ابن جدعان، وفيه ضعف.

النبوة ولا الملك. وروى أبو داود أيضًا عن جابر رضى الله عنه، أنه كان يحدث، أن رسول الله ﷺ قال: «رأى الليلة رجل صالح أن أبا بكر نيط برسول الله ﷺ، ونيط عمر بأبى بكر، ونيط عثمان بعمر»، قال جابر: فلما قمنا من عند رسول الله ﷺ، قلنا: أما الرجل الصالح فرسول الله ﷺ، وأما المنوط بعضُهم ببعض فهم وُلاة هذا الأمر الذى بعث الله به نبيه[1]. وروى أبو داود أيضًا عن سمرة بن جندب[2]: أن رجلاً قال: يا رسول الله، رأيتُ كأنَّ دلوًا دُلِّيَ من السماء، فجاء أبو بكر فأخذ بعراقيها، فشرب شربًا ضعيفًا، ثم جاء عمر فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلَّع، ثم جاء عثمان فأخذ بعراقيها فشرب حتى تضلع، ثم جاء على فأخذ بعراقيها، فانتشطت منه، فانتضح عليه منها شىء[3]. وعن سعيد بن جهمان، عن سفينة قال: قال رسول الله ﷺ: «خلافة النبوة ثلاثون سنة ثم يؤتى الله ملكه من يشاء»[4] أو «الملك».

واحتج من قال: لم يستخلف بالخبر المأثور، عن عبد الله بن عمر، عن عمر رضى الله عنهما، أنه قال: «إن استخلف فقد استخلف من هو خير منى، يعنى أبا بكر، وإن لا استخلف، فلم يستخلف من هو خير منى، يعنى رسول الله ﷺ، قال عبد الله: فعرفت أنه حين ذكر رسول الله ﷺ غير مستخلف[5].

وبما روى عن عائشة رضى الله عنها أنها سئلت من كان رسول الله ﷺ

---

(١) الحديث رواه أبو داود فى السنة رقم ٨، وأحمد بن حنبل فى مسنده ج٣ ص٣٥٥.

(٢) هو سمرة بن جندب بن هلال الغزارى، صحابى، من الشجعان القادة، نشأ فى المدينة ونزل البصرة فكان زياد يستخلفه عليها إذا سار إلى الكوفة، كتب رسالة إلى بنيه قال ابن سيرين: فيها علم كثير، مات سنة ٦٠هـ.

(٣) قال الشيخ الألبانى: ضعيف، فيه عبد الرحمن الجرمى، فيه جهالة، ومن طريقه أيضًا أخرجه أحمد (٥-٢١). والعراقى: جمع عرقوة وهى أعداد يخالف بينها ثم تشد فى عرى الدلو ويعلق بها الحبل.

(٤) الحديث رواه أبو داود فى السنة رقم ٤٦٣٥ بلفظ خلافة نبوة ثم يؤتى الله الملك من يشاء. ورواه أحمد بن حنبل فى مسنده، ج٥، ص٤٤.

(٥) قال الشيخ أحمد شاكر رواه بنحوه الإمام أحمد فى المسند ٣٢٢، وأبو داود ٢٩٣٩ ورواه مسلم مطولاً ٢: ٨٠-٨١ من وجهين.

مستخلف لو استخلف[1] والظاهر - والله أعلم - أن المراد أنه لم يستخلف بعهد مكتوب، ولو كتب عهداً لكتبه لأبي بكر، بل قد أراد كتابته ثم تركه، وقال: «يأبى الله والمسلمون إلا أبا بكر»[2]. فكان هذا أبلغ من مجرد العهد، فإن النبي ﷺ دل المسلمين على استخلاف أبي بكر، وأرشدهم إليه بأمور متعددة، من أقواله وأفعاله، وأخبر بخلافته إخبار راضٍ بذلك، حامد له، وعزم على أن يكتب بذلك عهداً، ثم علم أن المسلمين يجتمعون عليه، فترك الكتاب اكتفاءً بذلك، ثم عزم على ذلك في مرضه يوم الخميس، ثم لما حصل لبعضهم شك: هل ذلك القول من جهة المرض؟ أو هو قول يجب اتباعه؟ ترك الكتابة، اكتفاءً بما علم أن الله يختاره والمؤمنون من خلافة أبي بكر. فلو كان التعيين مما يشتبه على الأمة لبينه بياناً قاطعاً للعذر، لكن لما دلهم دلالات متعددة على أن أبا بكر المتعين، وفهموا ذلك حصل المقصود ولهذا قال عمر رضي الله عنه، في خطبته التي خطبها بمحضر من المهاجرين والأنصار: أنت خيرنا وسيدنا وأحبنا إلى رسول الله ﷺ، ولم ينكر ذلك منهم أحد، ولا قال أحد من الصحابة إن غير أبي بكر من المهاجرين أحق بالخلافة منه، ولم ينازع أحد في خلافته إلا بعض الأنصار، طمعاً في أن يكون من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير، وهذا مما ثبت بالنصوص المتواترة عن النبي ﷺ بطلانه. ثم الأنصار كلهم بايعوا أبا بكر، إلا سعد بن عبادة، لكونه هو الذي كان يطلب الولاية. ولم يقل أحد من الصحابة قط إن النبي ﷺ نص على غير أبي بكر، لا علي، ولا العبَّاس. ولا غيرهما، كما قال أهل البدع: وروى ابن بطة بإسناده: أن عمر بن عبد العزيز بعث محمد بن الزبير الحنظلي[3] إلى الحسن، فقال: هل كان النبي ﷺ استخلف أبا بكر؟ فقال: أوَ في شكٍ صاحبك؟ قال نعم، قال والله الذي لا إله إلا هو استخلفه، لهو كان أتقى لله من أن يتوثب[4] عليها.

---

(١) ما بين القوسين سقط من (ب).

(٢) سبق تخريج هذا الحديث.

(٣) هو محمد بن الزبير الحنظلي البصري، روى عن أبيه والحسن البصري ومكحول الشامي وعلي بن عبد الله بن عباس وعمر بن عبد العزيز وغيرهم. وروى عنه جرير بن حازم وابن إسحاق وأبو بكر النهشلي. قال البخاري في كتاب الضعفاء (ص٣١): «منكر الحديث».

(٤) في ب: يتوق.

وفى الجملة: فجميع من نقل عنه أنه طلب تولية غير أبى بكر، لم يذكر حجةً دينية شرعية، ولا ذكر أن غير أبى بكر أفضل منه، أو أحقُّ بها، وإنما نشأ من حب قبيلته وقومه فقط، وهم كانوا يعلمون فضل أبى بكر رضى الله عنه وحبَّ رسول الله ﷺ له. ففى «الصحيحين»، عن عمرو بن العاص: أن رسول الله ﷺ بعثه على جيش ذات السلاسل، فأتيته، فقلت: أى الناس أحبُّ إليك؟ قال: «عائشة»، قلت: من الرجال؟ قال: «أبوها»، قلت: ثم من؟ قال: «عمر، وعدَّ رجالاً»[1]. وفيهما أيضًا، عن أبى الدرداء[2]، قال: كنت جالسًا عند النبى ﷺ، إذ أقبل أبو بكر آخذًا بطرف ثوبه، حتى أبدى عن ركبته، فقال النبى ﷺ: «أمَّا صاحبكم فقد غامر، فسلَّم، قال: يا رسول الله، إنه كان بينى وبين ابن الخطاب شئ فأسرعت إليه، ثم ندمت، فسألته أن يغفر لى فأبى على، فأقبلت إليك، فقال: «يغفر الله لك يا أبا بكر، ثلاثًا»، ثم إن عمر ندم، فأتى منزل أبى بكر، فسأل: أثَّم أبو بكر؟ فقالوا: لا، فأتى النبى ﷺ، فسلم عليه، فجعل وجه النبى ﷺ يتمعَّر، حتى أشفق أبو بكر، فجثا على ركبتيه، فقال يا رسول الله، والله أنا كنتُ أظلم، مرتين، فقال النبى ﷺ: إن الله بعثنى إليكم، فقلتم: كذبت وقال أبو بكر: صَدَقَ، وواسانى بنفسه وماله، فهل أنتم تاركوا لى صاحبى؟ مرتين، فما أوذى بعدَها»[3]. ومعنى: غامر: غاضَب وخاصَم. ويضيق هذا المختصر عن ذكر فضائله.

وفى «الصحيحين» أيضًا، عن عائشة رضى الله عنها، أن رسول الله ﷺ

---

(١) الحديث رواه الترمذى ٣٨٧٩ فى المناقب، باب مناقب عائشة - رضى الله عنها - وهو حديث صحيح.

(٢) هو عويمر بن مالك بن قيس بن أمية الأنصارى الخزرجى، أبو الدرداء، صحابى من الحكماء الفرسان القضاة، كان قبل البعثة تاجرا فى المدينة ثم انقطع للعبادة ولما ظهر الإسلام اشتهر بالشجاعة والنسك ولاه معاوية قضاء دمشق، وهو أول قاض بها، أحد الذين جمعوا القرآن، مات بالشام سنة ٣٢هـ، وروى عنه أهل الحديث ١٧٩ حديثًا.

(٣) الحديث رواه البخارى (٢-١٧-١٨) فى فضائل أصحاب النبى ﷺ فى تفسير سورة الأعراف باب «قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا» ولقد أوهم الشارح فى نسبته للصحيحين فإن مسلماً لم يروه فى صحيحه.

مات وأبو بكر بالسنح[1] – فذكر الحديث – إلى أن قالت: واجتمعت الأنصار إلى سعد بن عبادة، فى سقيفة بنى ساعدة، فقالوا: منا أمير، ومنكم أمير! فذهب إليهم أبو بكر الصدِّيق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيد بن الجرَّاح[2]، فذهب عمر يتكلم، فأسكته أبو بكر، وكان عمر يقول والله ما أردتُ بذلك إلا أنى قد هيَّأتُ فى نفسى كلامًا قد أعجبنى، خشيت أن لا يبلغه أبو بكر! ثم تكلم أبو بكر، فتكلم أبلغَ الناس، فقال فى كلامه: نحن الأمراء، وأنتم الوزراء، فقال حباب بن المنذر[3]: لا والله لا نفعل، منا أمير ومنكم أمير. فقال أبو بكر: لا ولكنَّا الأمراء وأنتم الوزراء. نحن أوسط العرب، وأعزهُم أحسابًا، فبايعوا عمر ابن الخطاب، أو أبا عبيدة بن الجراح، فقال عمر: بل نبايعك فأنت سيدنا، وخيرنا، وأحبُّنا إلى رسول الله ﷺ، فأخذ عمر بيده، فبايعه، وبايعه الناس، فقال قائل: قتلتم سعدًا، فقال عمر: قتله الله[4]. والسُّنح: العالية، وهى حديقة بالمدينة معروفة بها.

خلافة عمر الفاروق

قوله: « ثم لعمر بن الخطاب رضى الله عنه ».

ش: أى وثبتت الخلافة بعد أبى بكر – رضى الله عنه لعمر رضى الله عنه وذلك بتفويض أبى بكر الخلافة إليه، واتفاق الأمة بعده عليه وفضائله رضى الله عنه أشهر من أن تنكر وأكثر من أن تذكر. فقد روى عن محمد بن الحنفية[5]

---

(١) السنح: بضم السين المهملة وسكون النون، ويجوز ضمها، وآخره حاء مهملة طرف من أطراف المدينة بعواليها، كان بينها وبين منزل النبى ﷺ ميل، وكان بها منزل أبى بكر.

(٢) هو عامر بن عبد الله بن الجراح بن هلال، الأمير القائد فاتح الديار الشامية، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وكان لقبه أمين الأمة، ولد بمكة سنة ٤٠ ق.هـ، وهو من السابقين إلى الإسلام، وشهد المشاهد كلها، له ١٤ حديثا، مات سنة ١٨هـ.

(٣) هو الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصارى الخزرجى، ثم السلمى، صحابى من الشجعان الشعراء يقال له « ذو الرأى » قال الثعالبى: هو صاحب المشورة يوم بدر، أخذ النبى – ﷺ برأيه، مات فى خلافة عمر سنة ٢٠هـ.

(٤) الحديث فى البخارى ٧–٢٢، ٢٥ من الفتح، وكان فى المطبوعة محرفًا، وقد أوهم الشارح أيضا فى نسبته للصحيحين فإنه من إفراد البخارى.

(٥) هو محمد بن على بن أبى طالب، الهاشمى، القرشى، أبو القاسم المعروف بابن الحنفية أحد الأبطال الأشداء فى صدر الإسلام، كان واسع العلم، ورعا وكان المختار الثقفى يدعو الناس إلى إمامته ويزعم أنه المهدى، وكانت الكيسانية تزعم أنه لم يمت وأنه مقيم برضوى، توفى سنة ٨١هـ رحمه الله.

أنه قال: قلت لأبى: يا أبت، من خير الناس بعد رسول الله ﷺ؟ فقال: يا بنى، أوما تعرف؟ فقلت: لا، قال: أبو بكر، قلت: ثم من؟ قال: عمر، وخشيت أن يقول: ثم عثمان! فقلت: ثم أنت؟ فقال: ما أنا إلا رجل من المسلمين. وتقدم قوله ﷺ: «اقتدوا بالذين من بعدى: أبى بكر وعمر»[1]. وفى «صحيح مسلم»، عن ابن عباس رضى الله عنه، قال: وضع عمرُ على سريره، فتكنّفه يدْعون ويثْنون ويصلون عليه، قبل أن يُرفع، وأنا فيهم، فلم يرعْنى إلا برجل قد أخذ بمنكبى من ورائى، فالتفت إليه، فإذا هو على، فترحم على عمر، وقال: ما خلّفت أحداً أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك، وايم الله إن كنت لأظنُّ أن يجعلك الله مع صاحبيك» وذلك أنى كنت كثيراً ما أسمع رسول الله ﷺ يقول: جئت أنا وأبو بكر وعمر، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر، فإن كنت لأرجو أو لأظنُّ أن يجعلك الله معهما[2]. وتقدم حديث أبو هريرة رضى الله عنه، فى رؤيا رسول الله ﷺ، ونزعه من القليب، ثم نزع أبى بكر، ثم استحالت الدلو غرباً، فأخذها ابن الخطاب، فلم أر عبقرياً من الناس ينزع نزعَ عمر، حتى ضرب الناس بعطن[3]. وفى «الصحيحين»، من حديث سعد بن أبى وقاص: قال: استأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ، وعنده نساء من قريش، يكلمنه، عالية أصواتهن، الحديث، وفيه - فقال رسول الله ﷺ: «إيه يا ابن الخطاب! والذى نفسى بيده، ما لقيك الشيطان سالكاً فجّاً إلا سلك فجّاً غيرَ فجك»[4]. وفى «الصحيحين» أيضاً، عن النبى ﷺ، أنه كان

---

(١) سبق تخريج هذا الحديث.

(٢) الحديث رواه البخارى (٧-٣٢) فى فضائل أصحاب النبى ﷺ باب قول النبى ﷺ: «لو كنت متخذا خليلا»، وباب مناقب عمر - رضى الله عنه، ورواه مسلم رقم ٢٣٨٩ فى فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر، رضى الله عنه.

(٣) رواه البخارى (٧-٣٦) فى فضائل أصحاب النبى ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، وباب قول النبى ﷺ لو كنت متخذا خليلا وفى الأنبياء باب علامات النبوة فى الإسلام، وفى التعبير باب نزع الماء من البئر حتى يروى الناس وباب نزع الذنوب والذنوبين من البئر بضعف. ورواه مسلم رقم ٢٣٩٣ فى فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر ابن الخطاب رضى الله عنه، والترمذى رقم ٢٢٩٠ فى الرؤيا باب ما جاء النبى ﷺ فى الميزان والدلو.

(٤) الحديث رواه البخارى ٧-٣٧ فى فضائل أصحاب النبى - ﷺ - باب مناقب عمر ابن الخطاب - رضى الله عنه - وفى بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده، وفى الأدب باب التبسم والضحك. ورواه مسلم رقم ٢٣٩٦ فى فضائل الصحابة باب من فضائل عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

يقول: «لقد كان فى الأمم قبلكم محدَّثون، فإن يكن فى أمتى منهم أحدا، فإن عمر بن الخطاب منهم»(١). قال ابن وهب: تفسير «محدثون» - ملهمون.

خلافة عثمان رضى الله عنه

قوله: «ثم لعثمان رضى الله عنه».

ش: أى ونثبت الخلافة بعد عمر لعثمان رضى الله عنهما، وقد ساق البخارى رحمه الله قصة عمر رضى الله عنه، وأمرَ الشورى والمبايعة لعثمان، فى «صحيحه»، فأحببتُ أن أسردها، كما رواها بسنده: عن عمر بن ميمون، قال: رأيت عمر بن الخطاب رضى الله عنه قبل أن يصاب بأيام بالمدينة، وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حُنيف، فقال: كيف فعلتما؟ أتخافان أن تكونا قد حملتما الأرض ما لا تطيق؟ قالا: حملناها أمرًا هى له مطيقة، ما فيها كبير فضل، قال: انظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق؟ قال: لا، فقال عمر: لئن سلمنى الله لأدَعَنَّ أرامل أهل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدى أبدًا، قال: فما أتت عليه إلا أربعة حتى أُصيب، قال: إنى لقائم ما بينى وبينه إلا عبدُ الله بن عباس غداة أُصيب، وكان إذا مرَّ بين الصفين قال: استووا، حتى إذا لم ير فيهنَّ خللاً تقدم فكبر، وربما قرأ سورة يوسف، أو النحل، فسمعته يقول: قتلنى، أو أكلنى الكلب، حين طعنه، فطار العلج بسكين ذات طرفين، لا يمر على أحد يمينًا وشمالاً إلا طعنه، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً، مات منهم سبعةٌ، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين، طرح عليه بُرْنسًا، فلما ظن العلجُ أنه مأخوذ، نحر نفسه، وتناول عمر يد عبد الرحمن بن عوف، فقدَّمه فمن يلى عمر فقد رأى الذى أرى، وأما نواحى المسجد، فهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوت عمر، وهم يقولون: سبحان الله سبحان الله، فصلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة، فلما انصرفوا، قال: يا ابن عباس انظر من قتلنى؟ فجال ساعة، ثم جاء فقال: غلام

---

(١) الحديث رواه البخارى (٧-٤٠-٤١) فى فضائل أصحاب النبى - ﷺ وباب مناقب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وفى الأنبياء باب ما ذكر عن بنى إسرائيل. ورواه مسلم ٢٣٩٨ فى فضائل الصحابة باب فضائل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - من حديث عائشة، ورواه الترمذى رقم ٣٦٩٤ فى المناقب، باب مناقب عمر بن الخطاب - رضى الله عنه.

المغيرة، قال: الصَّنَعُ؟ قال: نعم، قال: قاتله الله! لقد أمرت به معروفًا! الحمد لله الذى لم يجعل منيتى على يد رجل يدعى الإسلام، قد كنت أنت وأبوك تحبان أن تكثر العلوج بالمدينة وكان العباس أكثرهم رقيقًا، فقال: إن شئت فعلت؟ أى: إن شئت قتلنا؟ قال: كذبت! بعدما تكلموا بلسانكم، وصلوا قبلتكم، وحجُّوا حجكم؟ فاحتُمل إلى بيته، فانطلقنا معه، وكأن الناس لم تصبهم مصيبةٌ قبل يومئذ، فقائل يقول: لا بأس عليه، وقائل يقول: أخاف عليه، فأتى بنبيذ فشربه، فخرج من جوفه، ثم أتى بلبن فشربه، فخرج من جوفه، فعرفوا أنه ميت، فدخلنا عليه، وجاء الناس يُثنون عليه، وجاء رجل شاب، فقال أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى، الله لك، من صحبة رسول الله ﷺ، وقدم فى الإسلام ما قد علمت، ثم وليت فعدلت، ثم شهادة قال: وددت أن ذلك كَفَافٌ، لا علىَّ ولا لى، فلما أدبر إذا إزاره يمسُّ الأرض، قال: رُدُّوا علىَّ الغلام، قال: يا ابن أخى، ارفع ثوبك، فإنه أنقى لثوبك، وأتقى لربك، يا عبد الله بن عمر، انظر ما علىَّ من الدين؟ فحسبوه، فوجدوه ستة وثمانين ألفًا أو نحوه قال: إن وفى له مال آل عمر. فأدِّه من أموالهم، وإلا فسلْ فى بنى عدى بن كعب، فإن لم تف أموالهم، فسلْ فى قريش، ولا تعدْهُم إلى غيرهم، فأدِّ عنى هذا المال، انطلق إلى عائشة أم المؤمنين، فقل، يقرأ عليك عمر السلام، ولا تقل: أمير المؤمنين، فإنى لست اليوم للمؤمنين أميرًا، وقل: يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه، فسلم واستأذن، ثم دخل عليها، فوجدها قاعدة تبكى، فقال: يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه، فقالت: كنت أريده لنفسى، ولأوثرنَّ به اليوم على نفسى، فلما أقبل، قيل: هذا عبد الله بن عمر قد جاء، قال: ارفعونى، فأسنده رجل إليه، قال: ما لديك؟ قال: الذى تحبُّ يا أمير المؤمنين، أذنت، قال: الحمد لله، ما كان شىء أهم إلىَّ من ذلك، فإذا أنا قضيت فاحملونى، ثم سلِّم فقل: يستأذن عمر بن الخطاب، فإنى أذنت لى فادخلونى، وإن ردتنى فردونى إلى مقابر المسلمين، وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساءُ يسترنها، فلما رأيناها قمنا، فولَجَت عليه، فبكت عنده ساعة، واستأذن الرجال،

فولجت داخلاً لهم، فسمعنا بكاءها من الداخل، فقالوا: أوصِ يا أمير المؤمنين، استخلف؟ قال: ما أجد أحق بهذا الامر من هؤلاء النفر أى الرهط، الذى توفى رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، فسمى علياً، وعثمان، والزبير، وطلحة، وسعداً، وعبد الرحمن، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شىء، كهيئة التعزية له، فإن أصابت الإمارة سعداً فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيُّكم ما أمّر. فإنى لم أعزله من عجز ولا خيانة، وقال: أوصى الخليفة من بعدى بالمهاجرين الأولين، أن يعرف لهم حقهم، ويحفظ لهم حرمتهم، وأوصيه بالأنصار خيراً، الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم، أن يَقْبَل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم، وأوصيه بأهل الامصار خيراً، فإنهم ردء الإسلام، وجباة الأموال، وغيظ العدو، وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم، عن رضاهم، وأوصيه بالاعراب خيراً، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام، أن يأخذ من حواشى أموالهم، وأن تردَّ على فقرائهم، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله، أن يوفى لهم بعدهم، وأن يقاتلَ من ورائهم، ولا يكلَّفوا إلا طاقتهم.

فلما قبض خرجنا به، فانطلقنا نمشى، فسلم عبد الله بن عمر، قال: يستأذن عمر بن الخطاب؟ قالت: أدخلوه، فأُدخل، فوضع هنالك مع صاحبيه، فلما فَرغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط، فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، قال الزبير: قد جعلتُ أمرى إلى على، فقال طلحة: قد جعلت أمرى إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلت أمرى إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه؟ والله عليه والإسلام؟ لينظرنَّ أفضلهم فى نفسه، فأُسْكتَ الشيخان، فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إلىَّ؟ والله علىَّ أن لا آلو عن أفضلكم؟ قالا: نعم، فأخذ بيد أحدهما، فقال: لك قرابةٌ من رسول الله ﷺ والقَدَم فى الإسلام ما قد علمت، فالله عليك، لئن أمَّرتك لتعدلن؟ ولئن أمرت عثمان لتسمعنّ ولتطيعنّ؟ ثم خلا بالآخر، فقال له: مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق، قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه، فبايع له علىٌّ، وولج أهل الدار.

وعن حميد بن عبد الرحمن[1]: أن المِسْوَر بن مَخرمة[2] أخبره أن الرهط الذين ولاهم عمر اجتمعوا فتشاوروا، قال لهم عبد الرحمن: لست بالذى أنافسكم عن هذا الأمر، ولكنكم إن شئتم اخترت لكم منكم؟ فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن، فلما ولَّوْا عبد الرحمن أمرهم، فمال الناس على عبد الرحمن، حتى ما أرى أحداً من الناس يتبع أولئك الرهط ولا يطأ عقبه، ومال الناس على عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالى، حتى إذا كانت تلك الليلة التى أصبحنا فيها فبايعنا عثمان، قال المسور بن مخرمة: طرقنى عبد الرحمن بعد هجْع من الليل، فضرب الباب حتى استيقظت، فقال: أراك نائماً؟ فوالله ما اكتحلت هذه الثلاث بكبير نوم، انطلق فادع لى الزبير وسعداً فدعوتهما له فشاورهما ثم دعانى فقال ادع عليًا فدعوته فناجاه حتى إبهار الليل، ثم قام على من عنده وهو على طمع، وقد كان عبد الرحمن يخشى من علىّ شيئًا، ثم قال: ادع لى عثمان، فدعوته، فناجاه حتى فرق بينهما المؤذن بالصبح، فلما صلى الناس الصبح، واجتمع أُولئك الرهط عند المنبر، فأرسل إلى من مكان حاضرًا من المهاجرين والأنصار، وأرسل إلى أُمراء الأجناد، وكانوا وافوا تلك الحجة مع عمر، فلما اجتمعوا تشهد عبد الرحمن، ثم قال: أما بعد، يا علىّ، إنى قد نظرت فى أمر الناس، فلم أرهم يعدلون بعثمان فلا تجعلنَّ على نفسك سبيلاً، فقال لعثمان: أبايعك على سنة الله ورسوله ﷺ والخليفتين من بعده، فبايعه عبد الرحمن، وبايعه الناس والمهاجرون والأنصار وأُمراء الأجناد والمسلمون.

ومن فضائل عثمان رضى الله عنه الخاصة: كونه خَتَنَ رسول الله ﷺ على ابنتيه. وفى «صحيح مسلم»، عن عائشة، قالت: كان رسول الله ﷺ مضطجعًا فى بيته، كاشفًا عن فخذيه أو ساقيه، فاستأْذن أبو بكر، فأذن له وهو على تلك

---

(١) هو حميد بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى، أبو إبراهيم، ويقال أبو عبد الرحمن ويقال أبو عثمان المدنى، روى عن أبيه وأمه أم كلثوم، وعمر وعثمان وسعيد بن زيد وأبو هريرة وابن عباس وابن عمر وابن عمرو والنعمان بن بشير ومعاوية وغيرهم.

(٢) هو المسور بن مخرمة بن نوفل بن أهيب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب، الزهرى، أبو عبد الرحمن أمه الشفاء بنت عوف أخت عبد الرحمن بن عوف، روى عن النبى ﷺ وعن أبيه وخالفه ابن عوف وأبى بكر وعمر بن الخطاب وغيرهم.

الحال فتحدث، ثم استأذن عمر، فأذن له وهو كذلك، فتحدَّث، ثم استأذن عثمان، فجلس رسول الله ﷺ وسوَّى ثيابه، فدخل فتحدَّث، فلما خرج قالت عائشة: دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله ثم دخل عمر فلم تهتش له ولم تباله، ثم دخل عثمان فجلست وسوَّيت ثيابك؟ فقال: «ألا أستحى من رجل تستحى منه الملائكة»[1]. وفى «الصحيح»: لما كان يوم بيعة الرضوان، وأن عثمان رضى الله عنه كان قد بعثه النبى ﷺ إلى مكة، وكانت بيعة الرضوان، بعد ما ذهب عثمان إلى مكة، فقال رسول الله ﷺ بيده اليمنى: «هذه يد عثمان، فضرب بها على يده، فقال: هذه لعثمان»[2].

خلافة على بن أبى طالب رضى الله عنه

قوله: «ثم لعلى بن أبى طالب رضى الله عنه».

ش: أى: ونثبت الخلافة بعد عثمان لعلى رضى الله عنهما، لما قتل عثمان وبايع الناس عليّاً صار إماماً حقّاً واجب الطاعة، وهو الخليفة فى زمانه خلافة نبوة، كما دل عليه حديث سفينة المقدَّم ذكره، أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خلافة النبوة ثلاثون سنة، ثم يؤتى الله ملكه من يشاء»[3].

وكانت خلافة أبى بكر الصديق سنتين وثلاثة أشهر، وخلافة عمر عشر سنين ونصفاً، وخلافة عثمان اثنتى عشرة سنة، وخلافة على أربع سنين وتسعة أشهر، وخلافة الحسن ستة أشهر. وأول ملوك المسلمين معاوية رضى الله عنه، وهو خير ملوك المسلمين، لكنه إنما صار إماماً حقّاً لما فوَّض إليه الحسن بن على رضى الله عنهم الخلافة، فإن الحسن رضى الله عنه بايعه أهل العراق بعد موت أبيه، ثم بعد ستة أشهر فوَّض الأمر إلى معاوية، فظهر صدق قول النبى ﷺ: «إن

---

(١) الحديث رواه مسلم فى فضائل الصحابة باب من فضائل عثمان رضى الله عنه.

(٢) الحديث رواه البخارى (٧-٤٨-٤٩) فى فضائل أصحاب النبى ﷺ باب مناقب عثمان بن عفان رضى الله عنه، وفى الجهاد باب إذا بعث الإمام رسولاً فى حاجة أو أمر، هل يسهم له؟ وفى المغازى باب قول الله تعالى: إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان. والترمذى رقم ٣٧٠٩ فى المناقب باب مناقب عثمان بن عفان رضى الله عنه.

(٣) الحديث رواه الإمام أحمد فى مسنده، ج٥، ص٢٢٠، ٢٢٤.

ابنى هذا سيد، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين»[1]. والقصة معروفة فى موضعها.

فالخلافة ثبتت لأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه بعد عثمان رضى الله عنه، بمبايعة الصحابة، سوى معاوية مع أهل الشام. والحقُّ مع على رضى الله عنه، فإن عثمان رضى الله عنه لما قُتِل كثر الكذب والافتراء على عثمان وعلى من كان بالمدينة من أكابر الصحابة كعلى وطلحة والزبير، وعظمت الشبهة عند من لم يعرف الحال، وقويت الشهوة فى نفوس ذوى الأهواء والأغراض، ممن بعدت داره من أهل الشام، ويحمى الله عثمان، أن يظنَّ بالأكابر ظنون سوء؛ ويبلغه عنهم أخبار، منها ما هو كذب، ومنها ما هو محرّف، ومنها ما لم يعرف وجهه، وانضم إلى ذلك أهواء أقوام يحبون العلوَّ فى الأرض. وكان فى عسكر على رضى الله عنه – من أُولئك الطغاة الخوارج، الذين قتلوا عثمان – من لم يعرف بعينه، ومن تنتصر له قبيلته، ومن لم تقم عليه حجة بما فعله، ومن فى قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره كله، ورأى طلحة والزبير أنه إن لم ينتصر للشهيد المظلوم، ويُقمع أهل الفساد والعدوان، وإلا استوجبوا غضب الله وعقابه. فجرت فتنة الجمل على غير اختيار من على، ولا من طلحة والزبير، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين ثم جرت فتنة صفين، لرأى؛ وهو أن أهل الشام لم يعدل عليهم، أو لا يتمكن من العدل عليهم – وهم كافُّون، حتى يجتمع أمر الأُمة، وأنهم يخافون طغيان من فى العسكر، كما طغوا على الشهيد المظلوم، وعلىٌّ رضى الله عنه هو الخليفة الراشد المهدى الذى تجب طاعته، ويجب أن يكون الناس مجتمعين عليه، فاعتقد أن الطاعة والجماعة الواجبتين عليهم تحصل بقتالهم، بطلب الواجب عليهم، بما اعتقد أنه يحصل به أداء الواجب، ولم يعتقد أن التأليف لهم كتأليف المؤلَّفة قلوبهم على عهد النبى ﷺ والخليفتين من

---

(١) الحديث رواه البخارى (٧–٧٤) فى فضائل أصحاب النبى ﷺ، باب مناقب الحسن والحسين، والترمذى رقم ٢٧٧٥ فى المناقب باب مناقب الحسن والحسين رضى الله عنهما، والنسائى (٢–١٠٧) فى الجمعة، وأبو داود رقم ٤٦٦٢ فى السنة باب ما يدل على ترك الكلام فى الفتنة.

بعده، مما يسوغ، فحمله ما رآه - من أن الدين إقامة الحد عليهم ومنعهم من الإثارة، دون تاليفهم - على القتال، وقعد عن القتال أكثر الأكابر، لما سمعوه من النصوص في الأمر بالقعود في الفتنة، ولما رأوه من الفتنة التي تربوا مفسدتها على مصلحتها. ونقول في الجميع بالحسنى: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠]. والفتن التي كانت في أيامه قد صان الله عنها أيدينا، فنسأل الله أن يصون عنها ألسنتنا، بمنِّه وكرمه.

ومن فضائل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما في «الصحيحين»، عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ لعليٍّ: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنهَ لا نبي بعدي»(١). وقال ﷺ يوم خيبر: لأعطين الراية غداً رجلاً يحبُّ الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله، قال: فتطاولنا لها، فقال: «ادعوا لي علياً»، فأُتي به أرمد، فبَصق في عينيه، ودفع الراية إليه، ففتح الله عليه»(٢). ولما نزلت هذه الآية: ﴿ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٦١]. دعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فقال: «اللهم هؤلاء أهلي».

الخلفاء الراشدون

قوله: «وهم الخلفاء الراشدون، والأئمة المهديون».

ش: تقدم الحديث الثابت في «السنن»، وصححه الترمذي عن العرباض بن سارية(٣)، قال: وعظنا رسول الله ﷺ موعظةً بلغيةً، ذرفت منها العيون،

---

(١) الحديث رواه البخاري في المغازي باب غزوة تبوك، وفي فضائل أصحاب النبي ﷺ، وباب مناقب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - ورواه مسلم رقم ٢٤٠٤ في فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والترمذي رقم ٣٧٣١ في المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه.

(٢) الحديث رواه مسلم رقم ٢٤٠٤ في فضائل الصحابة باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٣) هو عرباض بن سارية السلمي، كنيته أبو نجيح، كان من أهل الصفة ونزل حمص، وروى عن النبي ﷺ، وعن أبي عبيدة بن الجراح وعنه، إبنته أم حبيبة وعبد الرحمن بن عمرو السلمي وآخرين، مات سنة ٧٥هـ رضي الله عنه.

ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودِّع، فماذا تعهد إلينا، فقال: «أوصيكم بالسمع والطاعة، فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافًا كثيرًا فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى تمسكوا بها، وعَضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»[1]. وترتيب الخلفاء الراشدين رضى الله عنهم أجمعين فى الفضل، كترتيبهم فى الخلافة. ولأبى بكر وعمر رضى الله عنهما من المزية: أن النبى ﷺ أمرنا بإتباع سنة الخلفاء الراشدين، ولم يأمرنا فى الاقتداء فى الأفعال إلا بأبى بكر وعمر، فقال: «واقتدوا بالذين من بعدى: أبى بكر وعمر»[2]، وفرق بين اتباع سنتهم والاقتداء بهم، فحال أبى بكر وعمر فوق حال عثمان وعلى رضى الله عنهم أجمعين. وقد روى عن أبى حنيفة تقديم على على عثمان، ولكن ظاهر مذهبه تقديم عثمان على علىٍّ. وعلى هذا عامة أهل السنة. وقد تقدم قول عبد الرحمن بن عوف لعلىٍّ رضى الله عنهما: إنى قد نظرت فى أمر الناس فلم أرهم يعدلون بعثمان. وقال أيوب السختيانى[3] من لم يقدّم عثمان على على فقد أزرى بالمهاجرين والأنصار. وفى «الصحيحين» عن ابن عمر، قال: كنا نقول ورسول الله ﷺ حىٌّ: أفضل أُمة النبى ﷺ بعده - أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان[4].

---

(١) الحديث رواه مسلم فى الجمعة ٤٣، وأبو داود فى السنة ٥، وابن ماجه فى المقدمة ٦، والدارمى فى المقدمة ١٦، ٢٣، وأحمد بن حنبل فى مسنده ج٣ ص٣١٠، وص٣٧٦، ج٤، ١٣٦، ١٣٧.

(٢) سبق تخريج هذا الحديث.

(٣) هو أيوب بن أبى تميمة كيسان السختيانى البصرى، أبو بكر، سيد فقهاء عصره تابعى من النساك الزهاد، من حفاظ الحديث، كان ثبتًا ثقة، روى عنه نحو ٨٠٠ حديث (تهذيب التهذيب ١: ٢٩٧).

(٤) هذا الحديث رواه البخارى ٧-١٤، ٤٧ بلفظين آخرين. وهو من أفراده لم يروه مسلم فى صحيحه كما نص على ذلك الحافظ ٧-١٢٣، وأما اللفظ الذى هنا فهو لفظ أبى داود رقم ٤٦٢٨، من رواية سالم عن ابن عمر ورواه أيضًا بنحوه من غير هذا الوجه أحمد فى المسند رقم ٤٦٢٦ وأبو داود رقم ٤٦٢٧، والترمذى ٤-٤٤٤-٢٢٣ فقد تساهل الشارح كثيرا (أحمد شاكر).

قوله: «وأن العشرة الذين سماهم رسول الله ﷺ وبشرهم بالجنة، نشهد لهم بالجنة على ما شهد لهم رسول الله ﷺ، وقوله الحق، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وأبو عبيدة بن الجراح، وهو أمين هذه الأمة، رضى الله عنهم «أجمعين».

ش: تقدم ذكر بعض فضائل الخلفاء الأربعة. ومن فضائل الستة الباقين من العشرة رضى الله عنهم أجمعين: ما رواه مسلم: عن عائشة رضى الله عنها: أرق رسول الله ﷺ ذات ليلة، فقال: ليت رجلاً صالحًا من أصحابى يحرسنى الليلة، قالت: وسمعنا صوت السلاح، فقال النبى ﷺ: «من هذا؟» فقال سعد بن أبى وقاص: يا رسول الله، جئت أحرسك.. وفى لفظ آخر: وقع فى نفسى خوف على رسول الله ﷺ فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ ثم نام[1]. وفى «الصحيحين»: أن رسول الله ﷺ جمع لسعد بن أبى وقاص أبويه يوم أحد، فقال: ارم، فداك أبى وأُمى[2]. وفى «صحيح مسلم»، عن قيس بن أبى حازم[3]، قال: رأيت يد طلحة التى وقى بها النبى ﷺ يومَ أُحد قد شُلَّت[4]. وفيه أيضًا عن أبى عثمان النهدى، قال: لم يبق مع رسول الله ﷺ فى بعض تلك

---

(١) الحديث رواه البخارى ٦–٦٠ فى الجهاد باب الحراسة فى سبيل الله، وفى التمنى باب قول النبى ﷺ ليت كذا ليت كذا، ومسلم رقم ٢٤١٠ فى فضائل الصحابة باب مناقب سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه، والترمذى رقم ٣٧٥٧ فى المناقب باب مناقب سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه.

(٢) الحديث رواه البخارى ٧–٢٨٦ فى المغازى باب (إذ همت طائفتان أن تفشلا) وفى الجهاد باب المجن ومن يترس غيره، وفى الأدب قول الرجل فداك أبى وأمى، ومسلم رقم ٢٤١١ فى فضائل الصحابة باب من فضائل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه والترمذى رقم ٣٧٥٦ فى المناقب وزاد فى آخره: وقال له: «ارم أيها الغلام الحزور» أى الغلام المشتد.

(٣) قيس بن أبى حازم واسمه حصين بن عوف، ويقال عوف بن عبد الحارث، أدرك الجاهلية ورحل إلى النبى – ﷺ – ليبايعه فقبض وهو فى الطريق، روى عن أبيه وأبى بكر وعمر وعثمان وروى عنه إسماعيل بن خالد وآخرون مات سنة ٨٤هـ.

(٤) الحديث أخرجه البخارى ٣–٦٦ فى فضائل أصحاب النبى ﷺ، باب ذكر طلحة بن عبيد الله وفى المغازى باب «إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون».

الأيام التى قاتل فيها النبى ﷺ غير طلحة وسعد . وفى «الصحيحين»، واللفظ لمسلم، عن جابر بن عبد الله قال : ندب رسول الله ﷺ الناس يوم الخندق فانتدب الزبير . ثم ندبهم، فانتدب الزبير، فقال النبى ﷺ : «لكل نبىّ حوارى، وحواريى الزبير»(١) . وفيهما أيضًا عن الزبير رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال : «من يأتى بنى قريظة فيأتينى بخبرهم» فانطلقت، فلما رجعت جمع لى رسول الله ﷺ أبويه، فقال : «فداك أبى وأمى»(٢) . وفى «صحيح مسلم» ، عن أنس بن مالك، قال : قال رسول الله ﷺ : «إن لكل أمة أمينًا، وإن أمين هذه الأمة : أبو عبيدة بن الجراح»(٣) . وفى «الصحيحين» عن حذيفة بن اليمان، قال : جاء أهل نجران إلى النبى ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله، ابعث إلينا رجلاً أمينًا، فقال : «لأبعثنّ إليكم رجلاً أمينًا حق أمين» . قال : فاستشرف لها الناس، قال : فبعث أبا عبيدة بن الجراح»(٤) . وعن سعيد بن زيد رضى الله عنه، قال : أشهد على رسول الله ﷺ أنى سمعته يقول : «عشرة فى الجنة : النبى فى الجنة، وأبو بكر فى الجنة وطلحة فى الجنة وعمر فى الجنة وعثمان فى الجنة وسعد بن مالك فى الجنة، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة»، ولو شئت لسمَّيت العاشر، قال : فقالوا : من هو؟

---

(١) الحديث رواه الترمذى رقم ٣٧٤٥ فى المناقب وقال هذا حديث حسن صحيح، ورواه البخارى ٧-٦٤ فى فضائل أصحاب النبى ﷺ ، باب مناقب الزبير بن العوام رضى الله عنه، وفى الجهاد باب فضائل الطليعة، وباب السير وحده فى المغازى باب غزوة الخندق، وفى خبر الواحد باب بعث النبى ﷺ الزبير وطلحة وحدهما ورواه مسلم رقم ٢٤١٥ فى فضائل الصحابة . باب فضائل طلحة والزبير.

(٢) الحديث رواه البخارى ٥٧ / ٦ فى فضائل أصحاب النبى ﷺ ، باب مناقب الزبير بن العوام ومسلم رقم ٢٤١٦ فى فضائل الصحابة باب من فضائل طلحة والزبير، ورواه الترمذى مختصرا رقم ٣٧٤٤ فى المناقب، باب مناقب الزبير بن العوام رضى الله عنه وانظر ما قاله الحافظ فى «الفتح» ٧-٦٥ حول رواية مسلم لهذا الحديث .

(٣) الحديث رواه البخارى ٧-٧٣ فى فضائل أصحاب النبى - ﷺ - باب مناقب أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه، وفى المغازى باب قصة أهل نجران، وفى إجازة خبر الواحد، ورواه مسلم رقم ٢٤١٩ فى فضائل الصحابة باب من فضائل أبى عبيدة بن الجراح رضى الله عنه .

(٤) الحديث رواه البخارى ٧-٧٣، ٧٤ فى فضائل أصحاب النبى - ﷺ باب مناقب أبى عبيدة بن الجراح وفى المغازى باب قصة أهل نجران، ورواه مسلم رقم ٢٤٢٠ فى فضائل الصحابة باب ومن فضائل أبى عبيدة بن الجراح، والترمذى رقم ٣٧٥٩ فى المناقب باب مناقب أبى عبيدة ابن الجراح - رضى الله عنه .

قال: سعيد بن زيد، وقال: لمشهد رجل منهم مع رسول الله ﷺ، يغْبُّر منه وجهه، خيرٌ من عمل أحدكم، ولو عُمِّرَ عُمْرَ نوح[(١)]. رواه أبو داود، وابن ماجه، والترمذى وصححه. ورواه الترمذى عن عبد الرحمن بن عوف. وعن عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه، أن النبى ﷺ قال: «أبو بكر فى الجنة، وعمر فى الجنة، وعلىٌّ فى الجنة، وعثمان فى الجنة، وطلحة فى الجنة، والزبير بن العوام فى الجنة، وعبد الرحمن بن عوف فى الجنة، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل فى الجنة، وأبو عبيدة بن الجراح فى الجنة»[(٢)]. رواه الإمام أحمد فى «مسنده». ورواه أبو بكر بن أبى خيثمة[(٣)]، وقدم فيه عثمان على علىّ، رضى الله عنهما. وعن أبى هريرة رضى الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ على حراءٍ هو وأبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ وطلحة والزبير، فتحركت الصخرة، فقال رسول الله ﷺ: «اهدأْ، فما عليك إلا نبى أو صدِّيق أو شهيد»[(٤)]. رواه مسلم والترمذى وغيرهما. ورُوى من طرق.

وقد اتفق أهل السنة على تعظيم هولاء العشرة وتقديمهم، لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم. ومن أجهلُ ممن يكره التكلم بلفظ العشرة، أو فعلَ شىء يكون عشرة!! لكونهم يبغضون خيار الصحابة، وهم العشرة المشهود لهم بالجنة، وهم يستثنون منهم عليّاً رضى الله عنه! فمن العجب أنهم يوالون لفظ التسعة وهم يبغضون التسعة من العشرة! ويبغضون سائر المهاجرين والأنصار، من السابقين الأولين، الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة، وكانوا ألفًا وأربعمائة، وقد رضى الله عنهم. كما قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ**

---

(١) ما ذكره الشارح يكفى فى تخريج هذا الحديث.

(٢) الحديث رقم ٣٧٤٨ فى المناقب باب مناقب عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المبشرين بالجنة وهو حديث صحيح، وفى رواية عن عبد الرحمن بن حميد عن أبيه عن النبى - ﷺ نحوه، ولم يذكر عبد الرحمن بن عوف، أخرجه الترمذى.

(٣) الحديث رواه الإمام مسلم فى فضائل الصحابة ٤٩، ورواه الترمذى فى مناقب ١٨ ورواه أحمد بن حنبل فى مسنده ج، ص٤١٩.

(٤) الحديث رواه أبو داود رقم ٤٦٤٨ ورقم ٤٦٤٩ ورقم ٤٦٥٠ فى السنة، باب فى الخلفاء، والترمذى رقم ٣٧٤٩ ورقم ٣٧٥٨ فى المناقب وباب مناقب سعيد بن زيد وهو حديث صحيح، وقد روى من غير وجه عن سعيد بن زيد عن النبى - ﷺ.

﴿ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الفتح: ١٨]. وثبت في «صحيح مسلم»، عن جابر رضى الله عنه، عن النبى ﷺ، أنه قال: «لا يدخل النار أحَدٌ بايَعَ تحت الشجرة»(١). وفى «صحيح مسلم» أيضاً عن جابر: أن غلام حاطب بن أبى بلتعة قال يا رسول الله: ليدخلنَّ حاطبٌ النار، فقال رسول الله ﷺ: «كذبت.. لا يدخلها، فإنه شهد بدراً والحديبية»(٢). والرافضة يتبرءون من جمهور هؤلاء، بل يتبرؤون من سائر أصحاب رسول الله ﷺ، إلا من نفر قليل، نحو بضعة عشر نفراً، ومعلوم أنه لو فُرض فى العالم عشرة من أكفر الناس، لم يُهجرهذا الاسم لذلك، كما أنه سبحانه لما قال: ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ [النمل: ٤٨] – لم يجب هجر اسم التسعة مطلقاً. بل اسم العشرة قد مدح الله مسماه فى مواضع من القرآن: ﴿ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ﴾ [البقرة: ١٩٦]، ﴿ وَوَاعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ ﴾ [الأعراف: ١٤٢]. ﴿ وَالْفَجْرِ * وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ [الفجر: ١-٢]. وكان ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان، وقال فى ليلة القدر: «التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان»(٣). وقال: «ما من أيام العملُ الصالح فيهنَّ أحب إلى الله من أيام العشر»(٤). يعنى عشر ذى الحجة.

والرافضة توالى بدل العشرة المبشرين بالجنة، اثنى عشر إماماً، أولهم على ابن أبى طالب رضى الله عنه، ويدَّعون أنه وصى النبى ﷺ، دعوى مجردة عن

---

(١) الحديث رواه مسلم رقم ٢٤٩٦ فى فضائل الصحابة، باب من فضائل أصحاب الشجرة أهل بيعة الرضوان، وأبو داود رقم ٤٦٥٣ فى السنة، باب فى الخلفاء، والترمذى رقم ٣٨٥٩ فى المناقب باب ما جاء فى فضائل من بايع تحت الشجرة.

(٢) الحديث رواه مسلم رقم ٣١٩٥ فى فضائل الصحابة باب من فضائل أهل بدر رضى الله عنهم، والترمذى رقم ٣٨٦٣ فى المناقب، باب فيمن سب أصحاب النبى – ﷺ – ولم يعزه فى المطبوع لمسلم، وهو قصور.

(٣) الحديث رواه أبو داود رقم ١٣٨١ فى الصلاة باب ما جاء فى ليلة القدر.

(٤) هذا جزء من حديث وتكملته فقالوا: يا رسول الله ولا الجهاد؟ قال: ولا الجهاد إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشىء. أخرجه أبو داود رقم ٢٤٣٨ فى الصوم، باب صوم العشر، والترمذى رقم ٧٥٧ فى الصوم باب ما جاء فى العمل فى أيام التشريق.

الدليل . ثم الحسن رضى الله عنه، ثم الحسين رضى الله عنه، ثم على بن الحسين زين العابدين، ثم محمد بن على الباقر، ثم جعفر بن محمد الصادق، ثم موسى ابن جعفر الكاظم، ثم على بن موسى الرضى، ثم محمد بن على الجواد، ثم على ابن محمد الهادى، ثم الحسن بن على العسكرى، ثم محمد بن الحسن، ويغالون فى محبتهم، ويتجاوزون الحد!! ولم يأت ذكر الأئمة الاثنى عشر، إلا على صفة تردُّ قولهم وتبطله، وهو ما خرجاه فى «الصحيحين»، عن جابر بن سمرة، قال: دخلت مع أبى على النبى ﷺ، فسمعته يقول: «لا يزال أمر الناس ماضيًا ما وليهم إثنا عشر رجلاً»، ثم تكلم النبى ﷺ بكلمة خفيت علىَّ، فسألت أبى: ماذا قال النبى ﷺ؟ قال: «كلهم من قريش»[1]. وفى لفظ: «لا يزال الإسلام عزيزًا إلى اثنى عشر خليفة»[2]. وفى لفظ: «لا يزال هذا الأمر عزيزًا إلى اثنى عشر خليفة». وكان الأمر كما قال النبى ﷺ. والإثنا عشر: الخلفاء الراشدون الأربعة، ومعاوية، وابنه يزيد، وعبد الملك بن مروان، وأولاده الأربعة، وبينهم عمر بن عبد العزيز، ثم أخذ الأمر فى الانحلال. وعند الرافضة أن أمر الأمة لم يزل فى أيام هؤلاء فاسدًا منغَّصًا، يتولى عليهم الظالمون المعتدون، بل المنافقون الكافرون، وأهل الحق أذل من اليهود!! وقولهم ظاهر البطلان، بل لم يزل الإسلام عزيزًا فى ازدياد فى أيام هؤلاء الإثنى عشر.

من يحسن القول يبرأ من النفاق

قوله «ومن أحسن القول فى أصحاب رسول الله ﷺ، وأزواجه الطاهرات من كل دنس، وذرياته المقدسين من كل رجس، فقد برئ من النفاق».

ش: تقدم بعض ما ورد فى الكتاب والسنة من فضائل الصحابة رضى الله

---

(١) الحديث رواه البخارى ورواه الترمذى فى الفتن ٤٩ بلفظ: إن الخلفاء من قريش إلى أن تقوم الساعة، ورواه مسلم فى كتاب الإمارة رقم ١١٢١ بلفظ: إن هذا الأمر لا ينقضى حتى يمضى فيهم إثنا عشر خليفة قال ثم تكلم بكلام خفى على، قال: فقلت لأبى ما قال...؟ قال: كلهم من قريش.

(٢) الحديث رواه مسلم فى الإمارة ٥، ٧، ١٠، وأبو داود فى المهدى، وأحمد بن حنبل ج١ ص٣٩٨، ٤٠٦، ج٥ ص٨٦، ٤٩٠.

عنهم، وفى «صحيح مسلم»، عن زيد بن أرقم[١]، قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيبًا، بماء يدعى: خُمًّا، بين مكة والمدينة، فقال: «أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتى رسول ربى، فأُجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به فحث على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: وأَهل بيتى، أَذكركم الله فى أَهل بيتى، ثلاثًا»[٢]. وخرَّج البخارى عن أبى بكر الصديق رضى الله عنه، قال: ارقبوا محمدًا فى أهل بيته[٣].

وإنما قال الشيخ رحمه الله: فقد برىء من النفاق – لأن أصل[٤] الرفض إنما أَحدثه منافق زنديق، قصده إبطال دين الإسلام، والقدح فى الرسول ﷺ. كما ذكر ذلك العلماء. فإن عبد الله بن سبأ[٥] لما أظهر الإسلام، أراد أن يفسد دين الإسلام بمكره وخبثه، كما فعل بولس[٦] بدين النصرانية، فأَظهر التنسك، ثم أظهر الأمر بالمعروف والنهى عن النكر، حتى سعى فى فتنة عثمان وقتله، ثم لما قدم على الكوفة وأَظهر الغلوَّ فى عليٍّ والنصر له، ليتمكن بذلك من أغراضه، وبلغ ذلك عليّاً، فطلب قتله، فهرب منه إِلى قرقيس[٧]. وخبره معروف فى

---

(١) هو زيد بن أرقم الخزرجى الأنصارى، صحابى، غزا مع النبى ﷺ سبع عشرة غزوة، وشهد صفين مع على، ومات بالكوفة عام ٦٨هـ، له فى كتب الحديث ٧٠ حديثا.

(٢) الحديث رواه مسلم رقم ٢٤٠٨ فى فضائل الصحابة، باب من فضائل على بن أبى طالب رضى الله عنه.

(٣) الحديث رواه البخارى فى فضائل أصحاب النبى – ﷺ – باب: مناقب قرابة رسول الله – ﷺ – وباب مناقب الحسن والحسين رضى الله عنهما.

(٤) سقطت من (ب) كلمة «أصل».

(٥) هو عبد الله بن سبأ، رأس الطائفة السبئية، وكانت تقول بألوهية على، أصله من اليمن، قيل: كان يهوديا وأظهر الإسلام، رحل إلى الحجاز فالبصرة فالكوفة ودخل دمشق فى أيام عثمان بن عفان فأخرجه أهلها فانصرف إلى مصر، قال بألوهية على بن أبى طالب رضى الله عنه، حرقه على بالنار عام ٤٠هـ.

(٦) هو بولس الرسول وكان يهوديًا ودخل المسيحية لإفسادها من الداخل. وترجع إليه المسيحية بما قالته بثلاثة أقانيم الأب، والإبن، وروح القدس.

(٧) هى بلد على نهر الخابور وعندها مصب الخابور فى الفرات فهى بين الخابور والفرات، ولما فتح عياض بن غنم الجزيرة فى سنة ١٩هـ وجه حبيب بن مسلمة الفهرى إلى قرقيسيا ففتحها على مثل صلح أهل الرقة. (معجم البلدان: ج٤، ص٣٢٨).

التاريخ. وتقدم أن من فضله على أبى بكر وعمر جلده جلد المفترى. وبقيت فى نفوس المبطلين خمائر بدعة الخوارج، من الحرورية والشيعة، ولهذا كان الرفض باب الزندقة، كما حكاه القاضى أبو بكر بن الطيب(١) عن الباطنية وكيفية إفسادهم لدين الإسلام، قال: فقالوا للداعى؛ يجب عليك إذا وجدت من تدعوه مسلمًا أن تجعل التشيع عنده دينك وشعارك، واجعل المدخل من جهة ظلم السلف لعلىّ وقتلهم الحسين، والتبرّى من تيم وعدى، وبنى أمية وبنى العباس، وأن عليًا يعلم الغيب! يفوض إليه خلق العالم! وما أشبه ذلك من أعاجيب الشيعة وجهلهم(٢)، فإذا أنست من بعض الشيعة عند الدعوة إجابة ورشدًا، أوقفته على مثالب على وولده، رضى الله عنهم. انتهى. ولا شك أنه يتطرق(٣) من سب الصحابة إلى سب أهل البيت ثم إلى سب الرسول، إلى أهل بيته وأصحابه مثل هؤلاء الفاعلين الضالين.

ذكر علماء السلف بالجميل

قوله: «وعلماء السلف من السابقين، ومن بعدهم من التابعين – أهل الخير والأثر، وأهل الفقه والنظر – لا يذكرون إلا بالجميل، ومن ذكرهم بسوء فهو على غير السبيل».

ش: قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾ [النساء: ١١٥] فيجب على كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله موالاة المؤمنين، كما(٤) نطق به القرآن، خصوصًا الذين هم ورثة الأنبياء، الذين جعلهم الله بمنزلة النجوم، يهتدى(٥) بهم فى ظلمات البر والبحر. وقد أجمع المسلمون على هدايتهم

---

(١) هو محمد بن الطيب بن محمد أبو بكر: قاض من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرياسة فى مذهب الأشاعرة، ولد فى البصرة وسكن بغداد، من كتبه «إعجاز القرآن» و«مناقب الأئمة»، توفى سنة ٤٠٣هـ.

(٢) سقطت من ب: كلمة «وجهلهم».

(٣) فى ب: «ينصرف».

(٤) فى الأصل: مما.

(٥) فى ب: «يهدى».

ودرايتهم، إذ كل أمة قبل(١) مبعث محمد ﷺ علماؤها شرارها، إلا المسلمين: فإن علماءهم خيارهم، فإنهم خلفاء الرسول من أمته، والمحيون لما مات من سنته، فبهم قام الكتاب وبه قاموا، وبهم نطق الكتاب وبه نطقوا، وكلهم متفقون اتفاقًا يقينًا على وجوب اتباع الرسول ﷺ. ولكن إذا وجد لواحد منهم قول قد جاء حديث صحيح بخلافه – فلا بُد له في تركه من عذر. وجماع الأعذار ثلاثة أصناف:

أحدها: عدم اعتقاده أن النبي ﷺ قاله.

والثاني: عدم اعتقاده أنه أراد تلك المسألة بذلك القول.

والثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ. فلهم الفضل علينا والمنة بالسبق، وتبليغ ما أرسل به الرسول ﷺ إلينا وإيضاح ما كان منه يخفى علينا، فرضي الله عنهم وأرضاهم: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ**﴾ [الحشر: ١٠].

نبي واحد أفضل من جميع الأولياء

قوله: «ولا نفضل أحدًا من الأولياء على أحد من الأنبياء عليهم السلام، ونقول: نبي واحد أفضل من جميع الأولياء».

ش: يشير الشيخ رحمه الله إلى الرد على الإتحادية وجهلة(٢) المتصوفة، وإلا فأهل الاستقامة يوصون بمتابعة العلم ومتابعة الشرع. فقد أوجب الله على الخلق كلهم متابعة الرسل، قال تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ**﴾ [النساء: ٦٤] إلى أن قال: ﴿**وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا**﴾ [النساء: ٦٥]. وقال تعالى: ﴿**قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ**﴾. قال أبو عثمان النيسابوري: من أمّر السنة على نفسه قولاً وفعلاً، نطق بالحكمة، ومن أمّر الهوى على نفسه،

---

(١) في ب: «بعد».
(٢) في ب: «وجملة».

نطق بالبدعة. وقال بعضهم: ما ترك بعضهم شيئًا من السنة إلا لكبر فى نفسه. والأمر كما قال، فإنه إذا لم يكن متبعًا للأمر الذى جاء به الرسول، كان يعمل بإرادة نفسه، فيكون متبعًا لهواه، بغير هدى من الله، وهذا غش النفس، وهو من الكبر، فإنه شبيه بقول الذين قالوا: ﴿ **لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ [الأنعام: ١٢٤]. وكثير من هؤلاء يظن أنه يصل برياسته واجتهاده فى العبادة، وتصفية نفسه، إلى ما وصل إليه الأنبياء من غير إتباع لطريقتهم! ومنهم من يظن أنه قد صار أفضل من الأنبياء!! ومنهم من يقول إن الأنبياء والرسل إنما يأخذون العلم بالله من مشكاة خاتم الأولياء!! ويدَّعى لنفسه أنه خاتم الأولياء! ويكون ذلك العلم هو حقيقة قول فرعون، وهو أن هذا الوجود المشهود واجب بنفسه، ليس له صانع مباين له، لكن هذا يقول: هو الله! وفرعون أظهر الإنكار بالكلية، لكن كان فرعون فى الباطن أعرف بالله منهم، فإنه كان مثبتًا للصانع، وهؤلاء ظنوا أن الوجود المخلوق هو الوجود الخالق، كابن عربى[1] وأمثاله!! وهو لما رأى أن الشرع الظاهر لا سبيل إلى تغييره – قال: النبوة ختمت، لكن الولاية لم تُختم! وادَّعى أن من الولاية ما هو أعظم من النبوة وما يكون للأنبياء والمرسلين، وأن الأنبياء مستفيدون منها! كما قال:

مقـــــام النبـــوة فى بـــرزخ فويق الرسول ودون الولى!

وهذا قلب للشريعة، فإن الولاية ثابتة للمؤمنين المتقين، كما قال تعالى: ﴿ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ** ﴾ [يونس: ٦٢–٦٣]. والنبوة أخص من الولاية، والرسالة أخصُّ من النبوة، كما تقدم التنبيه على ذلك. وقال ابن عربى أيضًا فى «فصوصه»[2]: ولما مثَّل النبى ﷺ النبوة بالحائط من اللبن فرآها قد كملت إلا موضع لبنة، فكان هو ﷺ موضع

---

(١) هو محمد بن على بن محمد ابن العربى أبو بكر الحاتمى الطائى الأندلسى المعروف بمحيى الدين بن عربى، الملقب بالشيخ الأكبر، فيلسوف ولد فى مرسيه بالأندلس ٥٦٠هـ وانتقل إلى إشبيلية وقام برحلة فزار الشام وبلاد الروم والعراق والحجاز، من كتبه: فصوص الحكم والفتوحات المكية وغير ذلك، توفى سنة ٦٣٨هـ.

(٢) فصوص الحكم: كتاب ابن العربى قام بتحقيقه الدكتور أبو العلا عفيفى.

اللبنة، وأما خاتم الأولياء فلا بد له من هذه الرؤية، فيرى ما مثله النبى ﷺ ، ويرى نفسه فى الحائط فى موضع لبنتين!! ويرى نفسه تنطبع فى موضع اللبنتين، فتكمل الحائط والسبب الموجب لكونه يراها لبنتين: أن الحائط لبنةٌ من فضة ولبنة من ذهب، واللبنة الفضة هى ظاهره وما يتبعه فيه من الأحكام كما هو أخذ عن الله فى الشرع ما هو فى الصورة الظاهرة متبع فيه لأنه يرى الأمر على ما هو عليه، فلا بد أن يراه هكذا، وهو موضع اللبنة الذهبية فى الباطن!! فإنه يأخذ من المعدن الذى يأخذ منه الملك الذى يوحى إليه إلى الرسول ﷺ ، قال: فإن فهمت ما أشرنا إليه فقد حصل لك العلم النافع!! فمن أكفر ممن ضرب لنفسه المثل بلبنة ذهب، وللرسل المثل بلبنة فضة، فيجعل نفسه أعلى وأفضل من الرسل؟! تلك أمانيهم ﴿ **إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ** ﴾ [غافر: ٥٦]، وكيف يخفى كفر من هذا كلامه؟ وله من الكلام أمثال هذا، وفيه ما يخفى منه الكفر، ومنه ما يظهر فلهذا يحتاج إلى نقد جيد، ليظهر زيفه، فإن من الزغل ما يظهر لكل ناقد، ومنه ما لا يظهر إلا للناقد الحاذق البصير. وكفر ابن عربى وأمثاله فوق كفر القائلين: ﴿ **لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ** ﴾ [الأنعام: ١٢٤] . ولكن ابن عربى وأمثاله منافقون زنادقة، اتحادية فى الدرك الأسفل من النار، والمنافقون يعاملون معاملة المسلمين لإظهارهم الإسلام، كما كان يظهره المنافقون فى حياة النبى ﷺ ويبطون الكفر، وهو يعاملهم معاملة المسلمين لما يظهر منهم. فلو أنه ظهر من[1] أحد منهم ما يبطنه من الكفر، لأجرى عليه حكم المرتد. ولكن فى قبول توبته خلاف. والصحيح عدم قبولها، وهى رواية معلى[2] عن أبى حنيفة رضى الله عنه. والله المستعان.

الإيمان بكرامات الأولياء

قوله: « ونؤمن بما جاء من كراماتهم، وصح عن الثقات من رواياتهم ».

ش: فالمعجزة فى اللغة تعم كل خارق للعادة، وكذلك الكرامة فى عرف

---

(١) سقط من ب: « من أحد ».

(٢) المعلى بن منصور الرازى من رجال الحديث حدث عن أبى سوف ومحمد بن الحسن صاحبى أبى حنيفة من كتبه النوادر توفى سنة ٣٣٣هـ.

أئمة أهل العلم المتقدمين. ولكن كثيراً من المتأخرين يفرقون فى اللفظ بينهما، فيجعلون المعجزة للنبى، والكرامة للولى. وجماعها الأمر الخارق للعادة. فصفات[1] الكمال ترجع إلى ثلاثة: العلم، والقدرة، والغنى. وهذه الثلاثة لا تصلح على الكمال إلا لله وحده، فإنه الذى أحاط بكل شىء علماً، وهو على كل شىء قدير، وهو غنى عن العالمين. ولهذا أمر النبى ﷺ أن يتبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله: ﴿ **قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عندي خَزَائِنُ اللَّه وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إنِي مَلَكٌ إنْ أَتَّبِعُ إلاَّ مَا يُوحَىٰ إلَيَّ** ﴾ [الأنعام: ٥٠]. وكذلك قال نوح عليه السلام، فهذا أول أولى العزم، وأول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض، وهذا خاتم الرسل. وخاتم أولى العزم، وكلاهما تبرأ من ذلك، وهذا لأنهم يطالبونهم تارة بعلم الغيب، كقوله تعالى: ﴿ **يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا** ﴾ [النازعات: ٤٢]، وتارة بالتأثير، كقوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا** ﴾ [الإسراء: ٩٠].. الآيات، وتارة يعيبون عليهم الحاجة البشرية، كقوله تعالى: ﴿ **وَقَالُوا مَا لِهَـٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ** ﴾ [الفرقان: ٧].. الآية. فأمر الرسول أن يخبرهم بأنه لا يملك ذلك، وإنما ينال من تلك الثلاثة بقدر ما يعطيه الله، فيعلم ما علمه الله إياه، ويستغنى عما أغناه عنه، ويقدر على ما أقدره عليه، من الأمور المخالفة للعادة المطردة، أو لعادة أغلب الناس. فجميع المعجزات والكرامات ما تخرج عن هذه الأنواع.

ثم الخارق: إن حصل به فائدة مطلوبة فى الدين، كان من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً، إما واجب أو مستحب، وإن حصل به أمر مباح، كان من نعم الله الدنيوية التى تقتضى شكراً وإن كان على وجه يتضمن ما هو منهى عنه نهى تحريم أو نهى تنزيه، كان سبباً للعذاب أو البغض، كالذى أُتى الآيات فانسلخ منها بلعام بن باعورا، لاجتهاد أو تقليد، أو نقص عقل أو علم، أو غلبة حال، أو عجز أو ضرورة. فالخارق ثلاثة أنواع: محمود فى الدين، ومذموم، ومباح. فإن كان المباح فيه منفعة كان نعم، وإلا فهو كسائر المباحات التى

---

(١) سقط من ب «فصفات».

لا منفعة فيها. قال أبو على الجوزجانى: كن طالبًا للاستقامة، لا طالبًا للكرامة، فإن نفسك متحركة فى طلب الكرامة، وربك يطلب منك الاستقامة.

قال الشيخ السهروردى(1) فى «عوارفه»: وهذا أصل(2) كبير فى الباب، فإن كثيرًا من المجتهدين المتعبدين سمعوا السلف الصالحين المتقدمين، وما منحوا به من الكرامات وخوارق العادات، فنفوسهم لا تزال تتطلع إلى شىء من ذلك؛ ويحبون أن يرزقوا شيئًا منه، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب، متهمًا لنفسه فى صحة عمله، حيث لم يحصل له خارق، ولو عملوا بسر ذلك لهان عليهم الأمر، فيعلم أن الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين من ذلك بابًا والحكمة فيه أن يزداد بما يرى من خوارق العادات وآثار القدرة – يقينًا فيقوى عزمه على الزهد فى الدنيا، والخروج عن دواعى الهوى. فسبيل الصادق مطالبة النفس بالاستقامة، فهى كل الكرامة.

ولا ريب أن للقلوب من التأثير أعظم مما للأبدان، لكن إن كانت صالحة كان تأثيرها صالحًا، وإن كانت فاسدةً كان تأثيرها فاسدًا، فالأحوال يكون تأثيرها محبوبًا لله تعالى تارةً ومكروهًا لله أخرى.

وقد تكلم الفقهاء فى وجوب القود على من يقتل غيره فى الباطن. وهؤلاء يشهدون بواطنهم وقلوبهم الأمر الكونى، ويعدُّون مجرد خرق العادة لأحدهم أنه كرامةٌ من الله له، ولا يعلمون أنه فى الحقيقة إنما الكرامة لزوم الإستقامة، وأن الله تعالى لم يكرم عبدًا بكرامة أعظم من موافقته فيما يحبه ويرضاه، وهو طاعته وطاعة رسوله، وموالاة أوليائه، ومعاداة أعدائه. وهؤلاء هم أولياء الله الذين قال الله فيهم: ﴿ **أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** ﴾ [يونس: ٦٢].

---

(1) هو يحيى بن حبس بن أميرك، أبو الفتوح شهاب الدين السهروردى، فيلسوف اختلف المؤرخون فى اسمه، ولد فى سهرورد من قرى زنجان فى العراق العجمى، ونشأ بمراغة، وسافر إلى حلب فنسب إلى انحلال العقيدة، وكان علمه أكثر من عقله، فأفتى العلماء بإباحة دمه، مات ٥٨٧هـ.

(2) فى ب: «ولهذا ضل».

وأما ما يبتلى الله به عبده، من السر بخرق العادة أو بغيرها أو بالضراء - فليس ذلك لأجل كرامة العبد على ربه ولا هوانه عليه، بل قد سعد بها قوم إذا أطاعوه، وشقى بها قوم إذا عصوه، كما قال تعالى: ﴿ **أَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلاَّ** ﴾ [الفجر: ١٥-١٧].

ولهذا كان الناس فى هذه الأمور ثلاثة أقسام: قسم ترتفع درجتهم بخرق العادة، وقسم يتعرضون بها لعذاب الله، وقسم يكون فى حقهم بمنزلة المباحات، كما تقدم.

وتنوع الكشف والتأثير باعتبار تنوع كلمات الله وكلمات الله نوعان: كونية، ودينية: فكلماته الكونية هى التى استعاذ بها النبى ﷺ فى قوله: «أعوذ بكلمات الله التامات التى لا يجاوزهن بر ولا فاجر»[1]. قال تعالى: ﴿ **إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ** ﴾ [يس: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿ **وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ** ﴾ [الانعام: ١١٥]. والكون كله داخل تحت هذه الكلمات، وسائر الخوارق.

والنوع الثانى: الكلمات الدينية، وهى القرآن وشرع الله الذى بعث به رسوله، وهى أمره ونهيه وخبره، وحظ العبد منها العلم بها، والعمل، والأمر بما أمر الله به، كما أن حظ العباد عمومًا وخصوصًا العلم بالكونيات والتأثير فيها، أى بموجبها. فالأولى تدبيرية كونية والثانية شرعية دينية. فكشف الأولى العلم بالحوادث الكونية، وكشف الثانية العلم بالمأمورات الشرعية. وقدرة الأولى التأثير فى الكونيات، إما فى نفسه كمشيه على الماء، وطيرانه فى الهواء، وجلوسه فى النار، وإما فى غيره، بإصحاح وإهلاك، وإغناء وإفقار. وقدرة، الثانية: التأثير فى

---

(١) الحديث رواه البخارى فى الأنبياء ١٠، ورواه مسلم فى الدعاء ٥٤، ٥٥ وأبو داود فى الطب ١٩، والترمذى فى الدعوات ٤٠، ٤١ وابن ماجه فى الطب ٣٥، ٣٦ وأحمد بن حنبل ج٢، ص١٨١، ٢٩٠.

الشرعيات، إما فى نفسه بطاعة الله ورسوله والتمسك بكتاب الله وسنة رسوله باطنًا وظاهرًا، وإما فى غيره بأن يأمر بطاعة الله ورسوله فيطاع فى ذلك طاعة شرعية.

فإذا تقرر ذلك، فاعلم أن عدم الخوارق علمًا وقدرة لا تضر المسلم فى دينه؛ فمن لم ينكشف له شيء من المغيِّبات، ولم يسخَّر له شيء من الكونيات: لا ينقص ذلك فى مرتبته عند الله، بل قد يكون عدم ذلك أنفع له، فإنه إن اقترن به الدين وإلا هلك صاحبه فى الدنيا والآخرة، فإن الخارق قد يكون مع الدين، وقد يكون مع عدمه، أو فساده، أو نقصه. فالخوارق النافعة تابعة للدين، خادمة له؛ كما أن الرياسة النافعة هى التابعة[1] للدين، وكذلك المال النافع، كما كان السلطان والمال النافع بيد النبى ﷺ وأبى بكر وعمر. فمن جعلها هى المقصودة؛ وجعل الدين تابعًا لها، ووسيلة إليها، لا لأجل الدين فى الأصل - فهو شبيه بمن يأكل الدنيا بالدين، وليست حاله كحال من تديَّن خوف العذاب أو رجاء الجنة؛ فإن ذلك هو مأثور به، وهو على سبيل نجاة، وشريعة صحيحة. والعجب أن كثيرًا ممن يزعم أن همه قد ارتفع عن أن يكون خوفًا من النار أو طلبًا للجنة - يجعل همه بدينه أدنى خارق من خوارق الدنيا!! ثم إن الدين إذا صح علمًا وعملاً فلا بد أن يوجب خرق العادة، إذا احتاج إلى ذلك صاحبه. قال تعالى: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ**﴾ [الطلاق: ٢-٣]. وقال تعالى: ﴿**إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا**﴾ [الأنفال: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا * وَإِذًا لآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا * وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا**﴾ [النساء: ٦٦-٦٨]. وقال تعالى: ﴿**أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ**﴾ [يونس: ٦٢-٦٤] وقال رسول الله ﷺ:

---

(١) فى ب: النافعة.

«اتقوا فراسة المؤمن، فإنه ينظر بنور الله»(١). ثم قرأ قوله: ﴿ **إنَّ في ذَلكَ لآيات لِّلْمُتَوَسِّمِينَ** ﴾ [الحجر: ٧٥] رواه الترمذى من رواية أبى سعيد الخدرى. وقال تعالى، فيما يرويه عنه رسول الله ﷺ: «من عادى لى وليًا فقد بارزنى بالمحاربة، وما تقرَّب إلىَّ عبدى بمثل أداء ما افترضت عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل، حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، ولئن سألنى لأعطينَّه، ولئن استعاذنى لأعيذنه، وما تردَّدت فى شىء أنا فاعله تردُّدى فى قبض نفس عبدى المؤمن، يكره الموت، وأكره مساءته، ولا بدَّ له منه»(٢).. فظهر أن الاستقامة حظ الرب، وطلب الكرامة حظ النفس، وبالله التوفيق.

وقول المعتزلة فى إنكار الكرامة: ظاهر البطلان، فإنه بمنزلة إنكار المحسوسات. وقولهم: لو صحت لاشبهت المعجزة، فيؤدى إلى التباس النبى ﷺ بالولى، وذلك لا يجوز! وهذه الدعوى إنما تصح إذا كان الولى يأتى بالخارق ويدعى النبوة، وهذا لا يقع، ولو ادعى النبوة لم يكن وليًا، بل كان متنبئًا كذابًا، وقد تقدم الكلام فى الفرق بين النبى والمتنبىء، عند قول الشيخ: وأن محمدًا عبده المجتبى ونبيه المصطفى.

أنواع الفراسة

ومما ينبغى التنبيه عليه ههنا: أن الفراسة ثلاثة أنواع: إيمانية وسببها نور يقذفه الله في قلب عبده، وحقيقتها أنها خاطر يهجم(٣) وعلى القلب، يثبت عليه كوثوب الأسد على الفريسة، ومنها اشتقاقها(٤) وهذه الفراسة على حسب قوة الإيمان. فمن كان أقوى إيمانًا فهو أحدُّ فراسة. قال أبو سليمان الدارنى(٥)

---

(١) قال الألبانى: ضعيف فيه عند الترمذى، وغيره عطية العوفى وهو ضعيف مدلس وهو مخرج فى «الأحاديث الضعيفة» (١٨٢١).

(٢) الحديث رواه البخارى فى الرقاق ٣٨، ورواه أحمد بن حنبل فى المسند ٦/٢٥٦.

(٣) فى الأصل: يهجر، ويبدو أن الصحيح: يهجم.

(٤) فى الأصل: اشتغالها، ولا معنى لها، ولعل ما أثبتنا هو الصواب.

(٥) هو سليمان بن حبيب المحاربى الدارنى، أبو بكر قاض من ثقات التابعين، من أهل الشام، كان ينعت بقاضى الخلفاء، استمر فى قضاء بدمشق ثلاثين عاما، نسبته إلى داريا من غوطة دمشق، مات سنة ١٢٠هـ.

رحمه الله: الفراسة مكاشفة النفس ومعاينة الغيب، وهى من مقامات الإيمان. انتهى.

وفراسة رياضية، وهى التى تحصل بالجوع والسهر والتخلى، فإن النفس إذا تجردت عن العوائق صار لها من الفراسة والكشف بحسب تجردها، وهذه فراسة مشتركة بين المؤمن والكافر، ولا تدل على إيمان، ولا على ولاية ولا تكشف عن حق نافع، ولا عن طريق مستقيم، بل كشفها من جنس فراسة الولاة وأصحاب عبادة الرؤساء والأظناء[1] ونحوهم.

وفراسة خلقية، وهى التى صنف فيها الأطباء وغيرهم، واستدلوا بالخَلْق على الخُلق، لما بينهما من الارتباط، الذى اقتضته حكمة الله كالاستدلال بصغر الرأس الخارج عن العادة على صغر العقل، وبكبره على كبره، وسعة الصدر على سعة الخُلق، وبضيقه على ضيقه، وبجحود العينين وكلال نظرهما على بلادة صاحبهما وضعف حرارة قلبه، ونحو ذلك.

أشراط الساعة

قوله: «ونؤمن بأشراط الساعة: من خروج الدجال، ونزول عيسى ابن مريم عليه السلام من السماء، ونؤمن بطلوع الشمس من مغربها، وخروج دابة الأرض من موضعها».

ش: عن عوف بن مالك الأشجعى[2]، قال: أتيت النبى ﷺ فى غزوة تبوك، وهو فى قبة من أدَم، فقال: «اعدد ستاً بين يدى الساعة: موتى، ثم فتح بيت المقدس، ثم موتانٌ يأخذ فيكم كقعاص الغنم، ثم استفاضة المال حتى يعطى الرجل مائة دينار فيظل ساخطًا، ثم فتنة لا يبقى بيت من العرب إلا دخلته، ثم هدنة تكون بينكم وبين بنى الأصفر، فيغدرون، فيأتونكم تحت ثمانين غاية تحت كل غاية إثنا عشر ألفًا»[3]. وروى «راية»، بالراء والغين، وهما

---

(١) فى الأصل: والأطباء.

(٢) هو عوف بن مالك الأشجعى الغطفانى، صحابى من الشجعان الرؤساء، أول مشاهده خيبر، وكانت معه راية أشجع يوم الفتح، نزل حمص وسكن دمشق، له ٦٧ حديثًا.

(٣) رواه البخارى فى الصلح رقم ٧ وفى الجزية رقم ١٥ ورواه ابن ماجة فى الفتن رقم ٢٥، ٣٥. ورواه أحمد بن حنبل: ج٢، ص١٧٤، ج٦، ٢٥، ٢٧.

بمعنى . رواه البخارى وأبو داود وابن ماجه والطبرانى . وعن حذَيْفَة بن أسيد[١]، قال : اطلع النبى ﷺ علينا ونحن نتذاكر الساعة، فقال : « ما تذاكرون؟ » قالوا : نذكر الساعة، فقال : « إنها لن تقوم حتى تَرَوْنَ قبلها عشر آيات »، فذكر « الدخان، والدجال، والدابة، وطلوع الشمس من مغربها، ونزول عيسى بن مريم، ويأجوج ومأجوج، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب، وآخر ذلك نار تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم »[٢]. رواه مسلم، وفى « الصحيحين » واللفظ للبخارى ، عن ابن عمر رضى الله عنهما، قال : ذكر الدجال عند النبى ﷺ ، فقال : « إن الله لا يخفى عليكم، إن الله ليس بأعور، وأشار بيده إلى عينه، وإن المسيح الدجال أعور عينه اليمنى، كأن عينه عنبةٌ طافية »[٣]. وعن أَنس بن مالك رضى الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من نبى إلا وأنذر قومه الأعور الدجال، ألا إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور، ومكتوب بين عينه ك ف ر »[٤]، فسره فى رواية : « أى كافر » . وروى البخارى وغيره، عن أبى هريرة رضى الله عنه، قال : قال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ليوشكنَّ أن ينزل فيكم ابنُ مريم حكمًا عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة خيرا من الدنيا وما فيها »[٥]. ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **وَإن مِّن أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا** ﴾ [النساء : ١٥٩] .

---

(١) هو حذيفة بن أسيد، ويقال ابن أمية بن أسيد الغفارى، شهد الحديبية، وقيل إنه بايع تحت الشجرة، وروى عن النبى – ﷺ وعن أبى بكر وغيرهم مات سنة ٤٢هـ.

(٢) رواه مسلم رقم ٢٩٠١ فى الفتن، باب ما يكون من فتوحات المسلمين قبل الدجال وأبو داود رقم ٤٣١١ فى الملاحم، باب أمارات الساعة، والترمذى رقم ٢١٨٤ فى الفتن باب ما جاء فى الخسف .

(٣) الحديث رواه البخارى ١٣–٨٣ فى الفتن باب ذكر الدجال، ورواه مسلم رقم ١٦٩ فى الإيمان، باب ذكر المسيح بن مريم والمسيح الدجال، وفى فتن باب ذكر الدجال، وأبو داود رقم ٤٧٥٧ فى السنة باب الدجال، والترمذى رقم ٢٢٣٦ فى الفتن باب ما جاء فى علامة الدجال .

(٤) الحديث رواه البخارى ١٣–٨٣ فى الفتن باب ذكر الدجال، ورواه مسلم رقم ٢٩٢٣ فى الفتن باب ذكر الدجال وصفة ما معه، وأبو داود رقم ٤٣١٦ ورقم ٤٣١٧ ورقم ٤٣١٨ فى الملاحم باب خروج الدجال، والترمذى رقم ٢٣٤٦ فى الفتن باب رقم ٤ .

(٥) الحديث رواه البخارى ٤–٣٤٣ فى البيوع باب قتل الخنزير، وفى المظالم باب كسر=

وأحاديث الدجال، وعيسى بن مريم عليه السلام، ينزل من السماء ويقتله، ويخرج يأجوج ومأجوج فى أيامه بعد قتله الدجال، فيهلكهم الله أجمعين فى ليلة واحدة ببركة دعائه عليهم: يضيق هذا المختصر عن بسطها.

وأما خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب – فقال تعالى: ﴿ **وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ** ﴾ [النمل: ٨٢]. وقال تعالى: ﴿ **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٥٨]. وروى البخارى عند تفسير الآية، عن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رآها الناس آمن[١] من عليها، فذلك حين لا ينفع نفسًا إيمانها لم تكن آمنت من قبل»[٢]. وروى مسلم، عن عبد الله بن عمرو، قال: حفظت من رسول الله ﷺ حديثًا لم أنسه بعد، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الآيات خروجًا طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضُحى، وأيهما ما كانت قبل صاحبتها فالأخرى على إثرها قريبًا»[٣] أى أول الآيات التى ليست مألوفة، وإن كان الدجال ونزول عيسى عليه السلام من السماء قبل ذلك، وكذلك خروج يأجوج ومأجوج، كل ذلك أمور مألوفة لأنهم بشر، مشاهدة مثلهم مألوفة، وأما خروج

= الصليب وقتل الخنزير، وفى الأنبياء نزول عيسى بن مريم، ومسلم رقم ١٥٥ فى الإيمان باب نزول عيسى بن مريم، وأبو داود رقم ٤٣٢٤ فى الملاحم باب خروج الدجال، والترمذى رقم ٢٢٣٤ فى الفتن باب ما جاء فى نزول عيسى بن مريم عليه السلام.

(١) فى ب: بزيادة «من».

(٢) الحديث رواه البخارى ١١–٣٠٢، ٣٠٤ فى الرقاق، ورواه مسلم رقم ١٥٧ فى الإيمان باب بيان الزمن الذى لا يقبل فيه الإيمان، ورواه أبو داود رقم ٤٣١٢ فى الملاحم باب إمارات الساعة.

(٣) الحديث رواه مسلم رقم ٢٩٤١ فى الفتن، باب خروج الدجال ومكثه فى الأرض وأبو داود رقم ٤٣١٠ فى الملاحم باب أمارات الساعة.

الدابة بشكل غريب غير مألوف، ثم مخاطبتها الناس ووسمها إياهم بالإيمان أو الكفر فأمر خارجٌ عن مجارى العادات. وذلك أول الآيات الأرضية، كما أن طلوع الشمس من مغربها، على خلاف عادتها المألوفة - أول الآيات السماوية. وقد أفرد الناس فى أحاديث أشراط الساعة مصنفات مشهورة، يضيق على بسطها هذا المختصر.

كذب الكاهن والعراف

قوله: «ولا نصدق كاهنًا ولا عرافًا، ولا من يدعى شيئًا يخالف الكتاب والسنة وإجماع الأمة».

ش: روى مسلم والإمام أحمد عن صفية بنت أبى عبيد، عن بعض أزواج النبى ﷺ، عن النبى ﷺ، قال: «من أتى عرَّافًا فسأله عن شيء، لم يقبل له صلاة أربعين ليلة»[1]. وروى الإمام أحمد فى «مسنده»، عن أبى هريرة، أن النبى ﷺ قال: «من أتى عرافًا أو كاهنًا، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد»[2]. والمنجم يدخل فى اسم «العراف» عند بعض العلماء، وعند بعضهم هو فى معناه. فإذا كانت هذه حال السائل، فكيف بالمسؤول؟ وفى «الصحيحين» و«مسند الإمام أحمد»، عن عائشة، قالت: سئل رسول الله ﷺ عن الكهان؟ فقال: «ليسوا بشىء»، فقالوا: يا رسول الله، إنهم يحدثون أحيانًا بالشيء يكون حقًا؟ فقال رسول الله ﷺ: «تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرُّها فى أُذُن وليِّه، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة»[3]. وفى «الصحيح» عنه ﷺ أنه قال: «ثمن الكلب خبيث، ومهر البغى خبيث، وحُلوان الكاهن خبيث»[4]. وحلوانه: الذى تسميه العامة حلاوته. ويدخل فى هذا المعنى ما

---

(١) الحديث رواه مسلم فى السلام ١٢٥، وأحمد بن حنبل فى مسنده ٢-٤٢٩، ج٤، ص٦٨؛ ج٥، ص٣٨٠.

(٢) انظر السابق.

(٣) الحديث رواه البخارى فى الطب ٤٦ والأدب ١١٧، والتوحيد ٥٧، وأحمد بن حنبل: ج٦، ص٨٧.

(٤) الحديث رواه أبو داود رقم ٣٤٢١ فى البيوع باب كسب الحجاج، والترمذى رقم ١٢٧٥ فى البيوع باب ما جاء فى ثمن الكلب، والنسائى (٧-١٩٠) فى الصيد، باب النهى عن ثمن الكلب.

تعاطاه المنجم وصاحب الأزلام التى يستقسم بها، مثل الخشبة المكتوب عليها «ا ب ج د» والضارب بالحصى، والذى يخطُّ فى الرحل. وما تعاطاه هؤلاء حرام. وقد حكى الإجماع على تحريمه غير واحد من العلماء، كالبغوى[1] والقاضى عياض وغيرهما.

وفى «الصحيحين» عن زيد بن خالد[2]، قال: خطبنا رسول الله ﷺ بالحديبية، على إثر سماء كانت من الليل، فقال: «أتدرون ماذا قال ربكم الليلة؟» قلنا؛ الله ورسوله أعلم، قال: «قال: أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر، فأما من قال: مطرْنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمنٌ بى. كافرٌ بالكوكب، وأما من قال: مطرنا بنوءِ كذا وكذا، فذلك كافر بى، مؤمن بالكوكب»[3].

وفى «صحيح مسلم ومسند الإمام أحمد»، عن أبى مالك الأشعرى أن النبى ﷺ قال: أربع فى أُمتى من أَمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر فى الأحساب، والطعن فى الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»[4]. والنصوص عن النبى ﷺ وأصحابه وسائر الأئمة، بالنهى عن ذلك – أكثر من أن يتسع هذا الموضع لذكرها. وصناعة التنجيم، التى مضمونها الأحكام والتأثير، وهو الاستدلال على الحوادث الأرضية. بالأحوال الفلكية أو التمزيج بين القرى

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن عبد العزيز أبو القاسم البغوى، حافظ للحديث من العلماء أصله من بغشور بين هراة ومرو، مولده عام ٢١٢هـ، ووفاته ببغداد عام ٣١٧هـ. كان محدث العراق فى عصره، له معالم التنزيل فى التفسير ومعجم الصحابة.

(٢) زيد بن خالد الجهنى المدنى: صحابى، شهد الحديبية، وكان معه لواء جهينة يوم الفتح، له ٨١ حديثا، توفى فى المدينة عن ٨٥ سنة عام ٧٨هـ.

(٣) الحديث رواه البخارى فى الآذان ١٥٦، والاستسقاء ٢٨، والمغازى ٣٥، ورواه مسلم فى الإيمان ١٢٥، ورواه أبو داود فى الطب ٢٢، والترمذى فى التفسير سورة ٥٦ :٤ والنسائى فى الاستسقاء ١٦، والدارمى فى الرقاق ٤٩ ولفظه عنه: لو حبس الله المطر عن أمتى عشر سنين ثم أنزله لأصبحت طائفة من أمتى بها كافرين يقولون هو بنوء مجدح إلخ.

(٤) الحديث رواه البخارى فى مناقب الأنصار ٢٧ بلفظ: خلال من خلال الجاهلية: الطعن فى الأنساب والنياحة، ونسى الثالثة قال سفيان: ويقول: إنها الاستسقاء بالأنواء. ورواه مسلم فى الإيمان ١٢١ وفى ا لجنائز ٢٩ وهو ما ذكره الشارح، وفى مسلم بزيادة والنائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب، ورواه أحمد بن حنبل فى المسند ج٢، ص٣٧٧.

الفلكية والفوايل الأرضية[1] صناعة محرمة بالكتاب والسنة، بل هي محرمة على لسان جميع المرسلين، قال تعالى: ﴿ **وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ** ﴾ [طه: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ** ﴾ [النساء: ٥١]. قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه وغيره: الجبت السحر. وفى «صحيح البخارى»، عن عائشة رضى الله عنها قالت[2]: كان لأبى بكر غلام يأكل من خراجه، فجاء يومًا بشىء، فأكل منه أبو بكر، فقال له الغلام: تدرى مَ هذا؟ قال: وما هو؟ قال: كنت تكهنت لإنسان فى الجاهلية، وما أحسن الكهانة إلا أنى خدعته، فلقينى، فأعطانى بذلك، فهذا الذى أكلت منه، فأدخل أبو بكر يده فقاء كل شىء فى بطنه[3].

والواجب على ولى الأمر وكل قادر أن يسعى فى إزالة هؤلاء المنجمين والكهان والعرافين وأصحاب الضرب بالرمل والحصى والقرع والقالات ومنعهم من الجلوس فى الحوانيت والطرقات، أو يدخلوا على الناس فى منازلهم لذلك. ويكفى من يعلم تحريم ذلك ولا يسعى فى إزالته، مع قدرته على ذلك – لقوله تعالى: ﴿ **كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ [المائدة: ٧٩]. وهؤلاء الملاعين يقولون الإثم ويأكلون السحت، بإجماع المسلمين. وثبت فى «السنن» عن النبى ﷺ برواية الصديق رضى الله عنه، أنه قال: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوْشَكَ أن يعمَّهم الله بعقاب منه»[4]. وهؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال الخارجة عن الكتاب والسنة، أنواع: نوع منهم: أهل تلبيس وكذب وخداع، الذين يظهر أحدهم طاعة الجن له، أو يدعى الحال من أهل المحال، من المشايخ النصابين، والفقراء الكاذبين، والطرقية المكارين، فهؤلاء يستحقون العقوبة البليغة التى تردعهم وأمثالهم عن الكذب والتلبيس. وقد

(١) ما بين القوسين سقط من «ب».
(٢) ما بين القوسين سقط من «ب».
(٣) الحديث رواه البخارى فى مناقب الأنصار ٢٦.
(٤) رواه ابن ماجه فى الفتن ٢٠، وأبو داود فى الملاحم ١٧، والترمذى فى الفتن وتفسير سورة «٥» آية ١٧، وأحمد بن حنبل فى مسنده ج١ ص٢، ج٦ ص٤.

يكون في هؤلاء من يستحق القتل، كمن يدعي النبوة بمثل هذه الخزعبلات، أو يطلب تغيير شيء من الشريعة، ونحو ذلك. ونوع يتكلم في هذه الأمور على سبيل الجد والحقيقة، بأنواع السحر وجمهور العلماء يوجبون قتل الساحر، كما هو مذهب أبي حنيفة ومالك وأحمد في المنصوص عنه، وهذا هو المأثور عن الصحابة، كعمر وابنه وعثمان وغيرهم. ثم اختلف هؤلاءُ: هل يستتاب أم لا؟ وهل يكفر بالسحر؟ أم يُقتل لسعيه في الأرض بالفساد؟ وقالت طائفة: إن قَتَلَ بالسحر يُقتل، وإلا عوقب بدون القتل، إذا لم يكن في قوله وعمله كفر، وهذا هو المنقول عن الشافعي، وهو قول في مذهب أحمد.

حقيقة السحر

وقد تنازع العلماء في حقيقة السحر وأنواعه: والأكثرون يقولون إنه قد يؤثر في موت المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر إليه، وزعم بعضهم أنه مجرد تخييل. واتفقوا كلهم على أن ما كان من جنس دعوة الكواكب السبعة، أو غيرها، أو خطابها، أو السجود لها، والتقرب إليها بما يناسبها من اللباس والخواتم والبخور ونحو ذلك – فإنه كفر، وهو من أعظم أبواب الشرك، فيجب غلقه، بل سَدُّه. وهو من جنس فعل قوم إبراهيم عليه السلام، ولهذا قال ما حكى الله عنه بقوله: ﴿ **فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ** ﴾ [الصافات: ٨٨–٨٩]. وقال تعالى: ﴿ **فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَىٰ كَوْكَبًا** ﴾ [الأنعام: ٧٦].. الآيات، إلى قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ** ﴾ [الأنعام: ٨٢] واتفقوا كلهم أيضًا على أن كل رقية وتعزيم أو قسم، فيه شرك بالله فإنه لا يجوز التكلم به، وإن أطاعته به الجن أو غيرهم، وكذلك كل كلام فيه كفر لا يجوز التكلم به، وكذلك الكلام الذي لا يعرف معناه لا يتكلم به، لإمكان أن يكون فيه شرك لا يعرف. ولهذا قال النبي ﷺ: «لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا»[1]. ولا يجوز الاستعاذة بالجن، فقد ذم الله الكافرين على ذلك، فقال تعالى: ﴿ **وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ**

---

(١) الحديث رواه مسلم في السلام ٦٤، وأبو داود في الطب ١٨، ولفظه عند مسلم قال: كنا نرقي في الجاهلية. فقلنا: يا رسول الله كيف ترى في ذلك..؟ فقال: أعرضوا على رقاكم. لا بأس بالرقى ما لم يكن فيه شرك.

مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ [الجن: ٦]. قالوا: كان الإنسى إذا نزل بالوادى يقول: أعوذ بعظيم هذا الوادى من سفهائه، فيبيت فى أمن وجوار حتى يصبح، (فزادهم رهقًا)، يعنى الإنس للجن، باستعاذتهم بهم رهقًا، أى إثمًا وطغيانًا وجراءة[1] وشرًا، وذلك أنهم قالوا: قد سُدْنا الجن والإنس! فالجنُّ تَعَاظم فى أنفسها وتزداد كفرًا إذا عاملتها الإنس بهذه المعاملة. وقد قال تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ** ﴾ [سبأ: ٤٠–٤١]. فهؤلاء الذين يزعمون أنهم يدعون الملائكة ويخاطبونهم بهذه العزائم، وأنها تنزَّل عليهم: ضالون، وإنما تنزَّل عليهم الشياطين. وقد قال تعالى: ﴿ **وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ** ﴾ [الأنعام: ١٢٨]. فاستمتاع الإنسى بالجنى: فى قضاء حوائجه، وامتثال أوامره، وإخباره بشىء من المغيبات، ونحو ذلك، واستمتاع الجن بالإنس: تعظيمه إياه، واستعانته به، واستغاثته وخضوعه له.

أدعياء الولاية

ونوع منهم بالأحوال الشيطانية، والكشوف ومخاطبته رجال الغيب، وأن لهم خوارق تقتضى أنهم أولياء الله، وكان من هؤلاء مَنْ يعين المشركين، لكون المسلمين قد عصوا!! وهؤلاء فى الحقيقة إخوان المشركين. والناس من أهل العلم فيهم على ثلاثة أحزاب: حزب يكذبون بوجود رجال الغيب، ولكن قد عاينهم الناس، وثبت عمن عاينهم أو حدثه الثقات بما رأوه، وهؤلاء إذا رأوهم وتيقنوا وجودهم خضعوا لهم. وحزب عرفوهم، ورجعوا إلى القدر، واعتقدوا أن ثَمَّ فى الباطن طريقًا إلى الله غير طريقة الأنبياء! وحزب ما أمكنهم أن يجعلوا وليًا

(١) فى ب: «وخسرانا».

خارجا عن دائرة الرسول، فقالوا: يكون الرسول هو ممدًا للطائفتين. فهؤلاء معظمون للرسول جاهلون بدينه وشرعه، والحق: أن هؤلاء من أتباع الشياطين، وأن رجال الغيب هم الجن، ويسمون رجالاً، كما قال تعالى: ﴿ **وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا** ﴾ [الجن: ٦]. وإلا فالإنس يؤنسون، أى يشهدون[١] ويرون، وإنما يحتجب الجنى أحيانًا، لا يكون دائمًا محتجبًا عن أبصار الإنس، ومن ظن أنهم من «الإنس» فمن غلطه وجهله. وسبب الضلال فيهم، وافتراق هذه الأحزاب الثلاثة - عدم الفرقان بين أولياء الشيطان وأولياء الرحمن. ويقول بعض الناس: الفقراء يسلَّم إليهم حالهم، وهذا كلام باطل، بل الواجب عرض أفعالهم وأحوالهم على الشريعة المحمدية. فما وافقها قُبل وما خالفها رُدَّ كما قال النبى ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ». وفى رواية: «من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»[٢]. فلا طريقة إلا طريقة الرسول ﷺ، ولا حقيقة إلا حقيقته، ولا شريعة إلا شريعته، ولا عقيدة إلا عقيدته، ولا يصل أحد من الخلق بعده إلى الله وإلى رضوانه وجنته وكرامته إلا بمتابعته باطنًا وظاهرًا. ومن لم يكن له مصدقًا فيما أخبر ملتزمًا لطاعته فيما أمر، فى الأمور الباطنة التى فى القلوب، والأعمال الظاهرة التى على الأبدان - لم يكن مؤمنًا، فضلاً عن أن يكون وليًا لله تعالى، ولو طار فى الهواء، ومشى على الماء، وأنفق من الغيب وأخرج الذهب من الخشب، ولو حصل له من الخوارق ماذا عسى أن يحصل؟ فإنه لا يكون، مع تركه الفعل المأمور وعزل المحظور - إلا من أهل الأحوال الشيطانية، المبعدة لصاحبها عن الله تعالى، المقربة إلى سخطه وعذابه. ولكن مَنْ ليس يكلَّف من الأطفال والمجانين قد رُفع عنهم القلم، فلا يُعاقبون، وليس لهم من الإيمان بالله والإقرار باطنًا وظاهرًا ما يكونون به من أولياء الله المقربين، وحزبه المفلحين، وجنده الغالبين. لكن يدخلون فى

---

(١) فى ب: «يظهرون».

(٢) الحديث رواه البخارى فى الاعتصام ٢٠، وفى البيوع ٦٠ وفى الصلح ٥، ورواه مسلم فى الأقضية ١٧-١٨، وأبو داود فى السنة ٥، وابن ماجه فى المقدمة ٢، وأحمد بن حنبل فى مسنده: ج٢، ص١٤٦.

الإسلام تبعًا لآبائهم، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١].

فمن اعتقد في بعض البُله أو المولعين(١)، مع تركه لمتابعة الرسول في أقواله وأفعاله وأحواله - أنه من أولياء الله، ويفضله على متبعي طريقة الرسول ﷺ، فهو ضال مبتدع، مخطىء في اعتقاده، فإن ذاك الأبله، إما أن يكون شيطانًا زنديقًا، أو زُوكاريًا(٢) متحيلاً، أو مجنونًا معذورًا! فكيف يفضَّل على مَنْ هو من أولياء الله المتبعين لرسوله؟! أو يساوى به؟! ولا يقال: يمكن أن يكون هذا متبعًا في الباطن وإن كان تاركًا للاتباع في الظاهر؟(٣) فإن هذا خطأٌ أيضًا، بل الواجب متابعة الرسول ﷺ ظاهرًا وباطنًا. قال يونس(٤) بن عبد الأعلى الصَّدفي: قلت للشافعي: إن صاحبنا الليْث كان يقول: إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء فلا تغتروا(٥) به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة؟ فقال الشافعي: قصر الليث رحمه الله، بل إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء، ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب.

وأما ما يقوله بعض الناس عن رسول الله ﷺ أنه قال: «اطلعت على أهل الجنة فرأيت أكثر أهلها البُله»(٦) فهذا لا يصح عن رسول الله ﷺ، ولا ينبغي نسبته إليه، فإن الجنة إنما خلقت لأُولي الألباب، الذين أرشدتهم عقولهم

---

(١) في الأصل: «المؤلفين».

(٢) قال الشيخ أحمد شاكر: هذه لفظة مولدة. وفي «شرح القاموس» ٤-٢٤٠ الزواكرة: من يتلبس فيظهر النسك والعبادة، ويبطن الفسق والفساد نقله المقري في «نفح الطيب».

(٣) ما بين القوسين سقط من «ب».

(٤) في الأصل: «ويس»، وفي المطبوع: «موسى»، والصواب ما أثبتناه لما في تفسير ابن كثير ج١ ص٧٨.

(٥) في الأصل: «تعتبروا» وما أثبتناه أصح وأقوم وموافق لما في ابن كثير.

(٦) قال الألباني: ضعيف، رواه أبو بكر الكلاباذي في «مفتاح المعاني» (ق١٧٥-١)، وابن عساكر (١٢-٣٤٥-٢) وقال: «قال ابن شاهين تفرد به مصعب بن ماهان»: وهو صدوق كثير الخطأ، كما في «التقريب» قلت؛ لكن في الطريق إليه أحمد بن عيسى الخشاب، قال ابن عدي: له مناكير، ثم ساق له هذا الحديث وقال: فهذا باطل بهذا السند. ثم رواه ابن عدي: =

وألبابهم إلى الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر. وقد ذكر الله أهل الجنة بأوصافهم فى كتابه، فلم يذكر فى أوصافهم البُله، الذى هو ضعف العقل، وإنما قال النبى ﷺ: «اطلعت فى الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء»[1]. ولم يقل البلـه!

الملامية والفرق الصوفية

والطائفة الملامية، وهم الذين يفعلُون ما يلامُون عليه ويقولون نحن متبعون فى الباطن، ويقصدون إخفاء المرائين! ردوا باطلهم بباطل آخر؟ والصراط المستقيم بيِّن ذلك. وكذلك الذين يصعقون عند سماع الأنغام الحسنة، مبتدعُون ضالون! وليس للإنسان أن يستدعى ما يكون سبب زوال عقله، ولم يكن فى الصحابة والتابعين من يفعل ذلك، ولو عند سماع القرآن، بل كانوا كما وصفهم الله تعالى: ﴿الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. وكما قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُّتَشَابِهًا مَّثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ

=(ق١٦٦-٢) وغيره من حديث أنس بن مالك مرفوعًا: «أكثر أهل الجنة البله» وقال: «منكر بهذا الإسناد، لم يروه غير سلامة بن روح». قلت: وهو ضعيف لسوء حفظه. وتابعه سفيان بن عيينة عند أبى موسى المدينى فى اللطائف (ق٧٥-١) ولكنه قال «حديث غريب جداً من حديث ابن عيينة عن الزهرى، وإنما يعرف هذا من رواية سلامة بن روح».

وروى مرسلا من وجهين: الأول عن محمد بن المنكدر، فقال المسافى بن عمران فى الزهد (ق١٢٤٩): حدثنا محمد بن أبى حميد المدنى عن محمد بن المنكدر مرفوعا به: والمدنى هذا ضعيف كما فى «التقريب». والآخر عن عمر بن عبد العزيز مرسلاً مرفوعا به وزاد: «وأعلى عليين لأولى الألباب». رواه عبد الوهاب الكلابى فى حديثه (ق١٧٦-٢) بسنده عن عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز عن أبيه. وعبد العزيز صدوق يخطىء كما فى التقريب». وفيه من لم أجد من ترجمته. وفى هذه الرواية رد على من قال إن هذه الزيادة لم يوجد لها أصل وأنها مدرجة من كلام أحمد بن أبى الحوارى، فإن أحمد هذا ليس له ذكر فى هذه الرواية، وإنما أطلت الكلام على هذا الحديث لأنى رأيت الشيخ أحمد شاكر رحمه الله علق عليه بقوله: «ومجموع ما قيل فيه: أنه لا أصل له».

(١) الحديث رواه أحمد بن حنبل فى مسنده، والبخارى ومسلم من حديث ابن عباس رضى الله عنه، ورواه البخارى والترمذى من حديث عمران بن حصين، وراجع كشف الخفاء، ج٢، ص١٢٩.

جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣].

وأما الذين ذكرهم العلماء بخير من عقلاء المجانين، فأولئك كان فيهم خير، ثم زالت عقولهم. ومن علامة هؤلاء، أنه إذا حصل في جنونهم نوع من الصحو، تكلموا بما كان في قلوبهم من الإيمان، ويهتدون بذلك في حال زوال عقلهم. بخلاف من كان قبل جنونه كافراً أو فاسقاً، لم يكن حدوث جنونه مزيلاً لما ثبت من كفره أو فسقه. وكذلك من جن من المؤمنين المتقين، يكون محشوراً مع المؤمنين المتقين. وزوال العقل بجنون أو غيره. سواء سمي صاحبه مولعاً[1] أو متولهاً لا يوجب مزيد حال بل حال صاحبه من الإيمان والتقوى يبقى على ما كان عليه من خير وشر، لا أنه يزيده أو ينقصه، ولكن جنونه يحرمه الزيادة من الخير، كما أنه يمنع عقوبته على الشر، ولا يمحو عنه ما كان عليه قبله.

وما يحصل لبعضهم عند سماع الأنغام المطربة، من الهذيان، والتكلم ببعض اللغات المخالفة للسانه المعروف منه! فذلك شيطان يتكلم على لسانه، كما يتكلم على لسان المصروع، وذلك كله من الأحوال الشيطانية! وكيف يكون زوال العقل سبباً أو شرطاً أو تقرباً إلى ولاية الله، كما يظنه كثير من أهل الضلال؟! حتى قال قائلهم:

هم معشر حلوا النظام وخرقوا الـ
سياج فلا فرضٌ لديهم ولا نفلُ
مجانين، إلا أن سر جنونهم
عزيزٌ على أبوابه يسجد العقلُ

وهذا كلام ضال، بل كافر، يظن أن في الجنون سراً يسجد العقل على بابه!! لما رآه من بعض المجانين من نوع مكاشفة، أو تصرف عجيب خارق للعادة، ويكون ذلك سبب ما اقترن به من الشياطين، كما يكون للسحرة والكهان! فيظن

(١) في ب: مولهاً أو ولهاً.

هذا الضال أن كل من خَبل أو خرق عادة[1] كان وليًا لله!! ومن اعتقد هذا فهو كافر، فقد قال تعالى: ﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ * تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٢]. فكل من تنزل عليه الشياطين لابد أن يكون عنده كذب وفجور.

وأما الذين يتعبدون بالرياضات والخلوات، ويتركون الجُمَع والجماعات، فهم الذين ضل سعيهم فى الحياة الدنيا، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا، قد طبع الله على قلوبهم. كما قد ثبت فى «الصحيح» عن النبى ﷺ أنه قال «من ترك ثلاث جمع تهاونًا من غير عذر، طبع الله على قلبه»[2]. وكل من عدل عن اتباع سنة الرسول، إن كان عالمًا بها فهو مغضوب عليه، وإلا فهو ضال. ولهذا شرع الله لنا أن نسأله فى كل صلاة أن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أُولئك رفيقًا، غير المغضوب عليهم ولا الضالين.

وأما من يتعلق بقصة موسى مع الخضر عليه السلام، فى تجويز الاستغناء عن الوحى بالعلم اللدُنى، الذى يدعيه بعض من عدم التوفيق، فهو ملحد زنديق. فإن موسى عليه السلام لم يكن مبعوثًا إلى الخضر، ولم يكن الخضر مأمورًا بمتابعته. ولهذا قال له: أنت موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم. ومحمد ﷺ مبعوث إلى جميع الثقلين، ولو كان موسى وعيسى حيين لكانا من أتباعه، وإذا نزل عيسى عليه السلام إلى الأرض، إنما يحكم بشريعة محمد، فمن ادعى أنه مع محمد ﷺ كالخضر مع موسى، أو جوَّز ذلك لأحد من الأمة: فليجدِّد إسلامه، وليشهد شهادة الحق، فإنه مفارق لدين الإسلام بالكلية، فضلاً عن أن يكون من

---

(١) فى الأصل: كاشف أو خرق العادة.

(٢) قال الشيخ الألبانى: صحيح، لكنه لم يروه أحد من أهل «الصحيح» والمراد به البخارى أو مسلم، خلافًا لما أفاده الشارح وإنما رواه داود والنسائى وأحمد وغيرهم وصححه الحاكم على شرط مسلم، فوهم. ومسنده حسن، وله شواهد فى «الترغيب» وغيره. ورواية أبو داود له فى الصلاة ٢٠٤، والترمذى فى الجمعة ٧، والنسائى فى الجمعة ٢، وابن ماجة فى الإقامة ٩٣، والدارمى فى الصلاة ٢٠٥، ومالك فى الموطأ فى الجمعة ٢٠.

أولياء الله، وإنما هو من أولياء الشيطان. وهذا الموضع مفرق بين زنادقة القوم وأهل الاستقامة، وحرك تر[1]. وكذا من يقول بأن الكعبة تطوف برجال منهم حيث كانوا! فهلا خرجت الكعبة إلى الحديبية فطافت برسول الله ﷺ حين أحصر عنها، وهو يَوَدُّ منها نظرة؟! وهؤلاء لهم شبه بالذين وصفهم الله تعالى حيث يقول: ﴿ **بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً** ﴾ [المدثر: ٥٢].

وجوب التزام الجماعة

قوله: «ونرى الجماعة حقًا وصوابًا، والفرقة زيفًا وعذابًا».

ش: قال الله تعالى: ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا** ﴾ [آل عمران: ١٠٣] وقال تعالى: ﴿ **وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ [آل عمران: ١٠٥]. وقال تعالى: ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ [الأنعام: ١٥٩]. وقال تعالى: ﴿ **وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ * إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ** ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]. فجعل أهل الرحمة مستثنين من الاختلاف. وقال تعالى: ﴿ **ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ** ﴾ [البقرة: ١٧٦].

وقد تقدم قوله ﷺ: «إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة، يعنى كلها فى النار إلا واحدة، وهى الجماعة[2] فى رواية: قالوا: من هى يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابى». فبين أن عامة المختلفين هالكون إلا أهل السنة والجماعة وأن الاختلاف واقع لا محالة. وروى الإمام أحمد عن معاذ بن جبل[3] أن النبى ﷺ

---

(١) فى «أ» بزياد وحرك تر.

(٢) الحديث رواه أبو داود فى السنة١، والترمذى الإيمان ١٨، وابن ماجة فى الفتن ١، وأحمد بن حنبل فى مسنده ج٣، ص١٤٥.

(٣) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس، الأنصارى، الخزرجى، أبو عبد الرحمن صحابى جليل، كان أعلم الأمة بالحلال والحرام، وهو أحد الستة الذين جمعوا القرآن على عهد النبى - ﷺ - وشهد العقبة مع الأنصار، وشهد بدرًا وأحدًا والخندق، وكان قاضيًا لأهل اليمن، له ١٥٧ حديثًا، توفى عقيمًا بناحية الأردن سنة ١٨هـ رضى الله عنه.

قال: «إن الشيطان ذئب الإنسان، كذئب الغنم. يأخذ الشاة القاصية والناحية، فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة، والعامة، والمسجد»[1]. وفى «الصحيحين» عن النبى ﷺ: أنه قال لما نزل قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ** ﴾ [الأنعام: ٦٥] قال: أعوذ بوجهك» ﴿ **أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ** ﴾ قال: «هاتان أهون»[2] فدل على أنه لا بد أن يلبسهم شيعًا ويذيق بعضهم بأس بعض، مع براءة الرسول من هذه الحال، وهم فيها فى جاهلية. ولهذا قال الزهرى[3]: ووقعت الفتنة وأصحاب رسول الله ﷺ متوافرون، فأجمعوا على أن كل دم أو مال أو قرح أصيب بتأويل القرآن – فهو هدر، انزلوهم منزلة الجاهلية. وقد روى مالك بإسناده الثابت عن عائشة رضى الله عنها، أنها كانت تقول: ترك الناس العمل بهذه الآية، يعنى قوله تعالى: ﴿ **وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ [الحجرات: ٩]. فإن المسلمين لما اقتتلوا كان الواجب الإصلاح بينهم كما أمر الله تعالى، فلما لم يعمل بذلك صارت فتنة وجاهلية، وهكذا تسلسل النزاع.

والأمور التى تتنازع فيه الأمة، فى الأصول والفروع إذا لم ترد إلى الله والرسول، لم يتبين فيها الحق، بل يصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم، فإن رحمهم الله أقرَّ بعضهم بعضًا، ولم يبغ بعضهم على بعض، كما كان الصحابة فى خلافة عمر وعثمان يتنازعون فى بعض مسائل الاجتهاد، فيقر

---

(١) الحديث رواه أحمد بن حنبل فى مسنده جـ٥ ص٢٣٢، ٢٤٣.

(٢) الحديث رواه البخارى فى التفسير ٦ وفى الاعتصام ١١. ورواه الترمذى فى التفسير سورة ٦، وأحمد بن حنبل فى مسنده جـ٣ ص٣٠٩.

(٣) هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب الزهرى، من بنى زهرة ابن كلاب من قريش أول من دون الحديث، وأحد كبار الحفاظ والفقهاء، تابعى من أهل المدينة، كان يحفظ ألفين ومئتى حديث نزل الشام واستقر بها وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله: عليكم بابن شهاب فإنكم لا تجدون أحداً أعلم بالسنة الماضية منه، توفى سنة ١٢٤هـ.

بعضهم بعضًا ولا يعتدى ولا يعتدى عليه، وإن لم يرحموا وقع بينهم الاختلاف المذموم، فبغى بعضهم على بعض، إما بالقول، مثل تكفيره وتفسيقه وإما بالفعل، مثل حبسه وضربه وقتله. والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن، كانوا من هؤلاء، ابتدعوا بدعةً، وكفروا من خالفهم فيها، واستحلوا منعَ حقه وعقوبته.

فالناس إذا خفى عليهم بعض ما بعث الله به الرسول: إما عادلون وإما ظالمون، فالعادل فيهم: الذى يعمل بما وصل إليه من آثار الأنبياء، ولا يظلم غيره، والظالم: الذى يعتدى على غيره. وأكثرهم إنما يظلمون مع علمهم بأنهم يظلمون، كما قال تعالى: ﴿ **وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ﴾ [آل عمران: ١٩]. وإلا فلو سلكوا ما علموه من العدل، أقرَّ بعضهم بعضًا كالمقلدين لائمة العلم، الذين يعرفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله فى تلك المسائل، فجعلوا أئمتهم نوابًا عن الرسول، وقالوا: هذا غاية ما قدرنا عليه، فالعادل منهم لا يظلم الآخر، ولا يعتدى عليه بقول ولا فعل، مثل أن يدَّعى أن قول مقلِّده هو الصحيح بلا حجة يبديها ويذم من خالفه، مع أنه معذور.

أنواع الاختلاف

ثم إن أنواع الافتراق والاختلاف فى الأصل قسمان: اختلاف تنوُّع، واختلاف تضاد:

واختلاف التنوع على وجوه: منه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقًا مشروعًا، كما فى القراءات التى اختلف فيها الصحابة رضى الله عنه، حتى زجرهم النبى ﷺ، وقال: «كلاكما محسن»[1]، ومثله اختلاف الأنواع فى صفة الأذان، والإقامة، والاستفتاح، ومحل سجود السهو، والتشهد، وصلاة الخوف، وتكبيرات العيد، ونحو ذلك، مما قد شُرِع جميعه، وإن كان بعض أنواعه أرجحَ أو أفضلَ. ثم تجد لكثير من الأمة فى ذلك من الاختلاف ما أوجب اقتتال

(١) الحديث رواه البخارى فى الخصومات ١، وفى الأنبياء ٥٤، ورواه أحمد بن حنبل فى مسنده، ج١ ص٤٠٥، ج٥ ص١٢٤.

طوائف منهم على شفع الإقامة وإيتارها ونحو ذلك! وهذا عين المحرم. وكذا تجد كثيراً منهم فى قلبه من الهوى لأحد هذه الأنواع، والإعراض عن الآخر والنهى عنه ما دخل به فيما نهى عنه النبى ﷺ. ومنه ما يكون كل من القولين هو فى المعنى القول الآخر، لكن العبارتين مختلفتان، كما قد يختلف كثير من الناس فى ألفاظ الحدود، وصيغ[1] الأدلة، والتعبير عن المسميات، ونحو ذلك. ثم الجهل أو الظلم يحمل على حمد إحدى المقالتين وذمّ الأُخرى والاعتداء على قائلها. ونحو ذلك.

وأما اختلاف التضاد، فهو القولان المتنافيات، إما فى الأصول، وإما فى الفروع، عند الجمهور الذين يقولون: المصيب واحد. والخطب فى هذا أشد، لأن القولين يتنافيان، لكن نجد كثيراً من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذى مع منازعه فيه حق ما، أو معه دليل يقتضى حقًا ما، فيرد الحق مع الباطل، حتى يبقى هذا مبطلاً فى البعض، كما كان الأول مبطلاً فى الأصل، وهذا يجرى كثيراً لأهل السنة.

وأما أهل البدعة، فالأمر فيهم ظاهر. ومن جعل الله له هداية ونوراً رأى من هذا ما تبين له منفعة ما جاء فى الكتاب والسنة من النهى عن هذا وأشباهه، وإن كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا، لكن نورٌ على نور.

والاختلاف الأول، الذى هو اختلاف التنوع، الذمُّ فيه واقع على من بغى على الآخر فيه. وقد دل القرآن على حمد كل واحد من الطائفتين فى مثل ذلك، إذا لم يحصل بغى، كما فى قوله تعالى: ﴿ **مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ** ﴾ [الحشر: ٥]. وقد كانوا اختلفوا فى قطع الأشجار، فقطع قوم، وترك آخرون. وكما فى قوله تعالى: ﴿ **وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ**

---

(١) فى ب: وصوغ.

وَكُلاً آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ [الأنبياء: ٧٨-٧٩]. فخص سليمان بالفهم وأثنى عليهما بالحكم والعلم. وكما في إقرار النبي ﷺ يوم بني قريظة لمن صلى العصر في وقتها، ولمن أخرها إلى أن وصل إلى بني قريظة، وكما في قوله: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران. وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر»(١).

والاختلاف الثاني، هو ما حُمد فيه إحدى الطائفتين، وذُمّت الأخرى، كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِم مِّنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]. وقوله تعالى: ﴿ هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ [الحج: ١٩].. الآيات.

وأكثر الاختلاف الذي يؤول إلى الأهواء بين الأمة - من القسم الأول. وكذلك إلى سفك الدماء واستباحة الأموال والعداوة والبغضاء. لأن إحدى الطائفتين لا تعترف للأخرى بما معها من الحق، ولا تنصفها بل تزيد على ما مع نفسها من الحق زيادات من الباطل، والأخرى كذلك. ولذلك جعل الله مصدره البغي في قوله: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٣]. لأن البغي مجاوزة الحد، وذكر هذا في غير موضع من القرآن ليكون عبرة لهذه الأمة. وقريب من هذا الباب ما خرجاه في «الصحيحين» عن أبي الزناد عن الأعرج، عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما إستطعتم»(٢). فأمرهم بالإمساك عما لم يؤمروا به، معللاً بأن سبب هلاك الأولين إنما كا كثرة السؤال ثم الاختلاف على الرسول بالمعصية.

ثم الاختلاف في الكتاب، من الذين يقرون به - على نوعين: أحدهما

---

(١) الحديث رواه البخاري في الاعتصام ١٣، ورواه النسائي في القضاء، وأحمد بن حنبل في مسند ج٢ ص ١٨٧، ج٤ ص٢٠٥.

(٢) الحديث رواه ابن ماجة في المقدمة ١، ورواه مسلم في الحج ٤١٢، ورواه النسائي في الحج ١.

اختلاف فى تنزيله، والثانى: اختلاف فى تأويله. وكلاهما فيه إيمان ببعض دون بعض.

فالأول: كاختلافهم فى تكلم الله بالقرآن وتنزيله، فطائفة قالت: هذا الكلام حصل بقدرته، ومشيئته لكونه مخلوقًا فى غيره لم يقم به. وطائفة قالت: بل هو صفة له قائم بذاته ليس بمخلوق، لكنه لا يتكلم بمشيئته وقدرته. وكل من الطائفتين جمعت فى كلامها بين حق وباطل، فآمنت ببعض الحق، وكذبت بما تقوله الأخرى من الحق وقد تقدمت الإشارة إلى ذلك.

وأما الاختلاف فى تأويله، الذى يتضمن الإيمان ببعضه دون بعض، فكثير، كما فى حديث عمرو بن شعيب[١]، عن أبيه، عن جده، قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه ذات يوم وهم يختصمون فى القدر، هذا ينزع بآية وهذا ينزع بآية فكأنما فقىء فى وجهه حب الرمان، فقال: «أبهذا أمرتم؟ أم بهذا وكلتم؟ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض؟ انظروا ما أُمرتم به فاتبعوه، وما نُهيتم عنه فانتهوا»[٢]. وفى رواية: «يا قوم بهذا ضلت الأمم قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم وضربهم الكتاب بعضه ببعض، وإن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض، ولكن نزل القرآن يصدق بعضه بعضًا، ما عرفتهم منه فاعملوا به، وما تشابه فآمنوا به» وفى رواية: «فإن الامم قبلكم لم يلعنوا حتى اختلفوا وإن المراء فى القرآن كفر»[٣] وهو حديث مشهور، مخرج فى «المسانيد والسنن». وقد روى أصل الحديث مسلم فى «صحيحه»، من حديث عبد الله بن رباح الأنصارى، أن عبد الله بن عمرو قال: هجّرْت إلى النبى ﷺ يومًا، فسمع أصوات رجلين اختلفا فى آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يُعرف فى وجهه الغضب. فقال: «إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى الكتاب»[٤].

---

(١) هو عمرو بن شعيب بن محمد السهمى القرشى أبو إبراهيم، من بنى عمرو بن العاص من رجال الحديث، كان يسكن مكة، وتوفى بالطائف سنة ١١٨.

(٢) الحديث رواه ابن ماجه فى المقدمة ١٠ رقم ٨٥ وأخرجه الترمذى رقم ٢١٣٤ فى القدر باب ما جاء فى التشديد فى الخوض فى القدر، وإسناده ضعيف ولكن بقويه ابن ماجه وإسناده حسن فالحدث حسن.

(٣) الحديث رواه أحمد بن حنبل فى المسند ج٢، ص١١٦.

(٤) الحديث رواه مسلم فى الحج ٤١٢، والترمذى فى العلم ١٧، والنسائى فى الحج ١، وابن ماجه فى المقدمة ١، وأحمد بن حنبل فى مسنده ج١ ص٤٠١، ج٢ ص٢٤٧.

وجميع أهل البدع مختلفون فى تأويله، مؤمنون ببعضه دون بعض، يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات، وما يخالفه: إما أن يتأوله تأويلا يحرّفون فيه الكلم عن مواضعه، وإما أن يقولون: هذا متشابه لا يعلم أحد معناه، فيجحدوا ما أنزله من معانيه! وهو فى معنى الكفر بذلك، لأن الإيمان باللفظ بلا معنى هو من جنس إيمان أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿ **مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا** ﴾ [الجمعة: ٥]. وقال تعالى: ﴿ **مِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ** ﴾ [البقرة: ٧٨]، أى: إلا تلاوة من غير فهم معناه. وليس هذا كالمؤمن الذى فهم ما فهم من القرآن فعمل به، واشتبه عليه بعضه فوكل علمه إلى الله، كما أمره النبى ﷺ بقوله: «فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه»(١)، فامتثل ما أمر به ﷺ.

دين الله واحد

قوله: «ودين الله فى الأرض والسماء واحد، وهو دين الإسلام، قال الله تعالى: ﴿ **إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ [آل عمران: ١٩]. وقال تعالى: ﴿ **وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا** ﴾ [المائدة: ٣]. وهو بين الغلو والتقصير، وبين التشبيه والتعطيل، وبين الجبر والقدر، وبين الأمن والإياس».

ش: ثبت فى «الصحيح» عن أبى هريرة رضى الله عنه، عن النبى ﷺ أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد»(٢). وقوله: ﴿ **وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ** ﴾ [آل عمران: ٨٥]. عام فى كل زمان، ولكن الشرائع تتنوع، كما قال تعالى: ﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا** ﴾ [المائدة: ٤٨] فدين(٣) الإسلام هو ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على ألسنة رسله، وأصل هذا الدين وفروعه روايته عن الرسل، وهو ظاهر غاية الظهور، يمكن كل مميز من صغير

---

(١) الحديث رواه أحمد بن حنبل فى المسند ج٢ ص١٨١، ١٨٥.

(٢) قال الشيخ الألبانى عن هذا الحديث: صحيح وهو رواية عن أحمد ٢-١٨١ فى الحديث ٤٦٢.

(٣) فى ب: فالدين هو.

وكبير، وفصيح وأعجم، وذكي وبليد أن يدخل فيه بأقصر زمان، وإنه يقع الخروج منه بأسرع من ذلك، من إنكار كلمة، أو تكذيب، أو معارضة، أو كذب على الله، أو ارتياب في قول الله تعالى، أو رد لما أُنزل، أو شكٍّ فيما نفى الله عنه الشك، أو غير ذلك مما في معناه فقد دل الكتاب والسنة على ظهور دين الإسلام، وسهولة تعلمه، وأنه يتعلمه الوافد ثم يولي في وقته. واختلاف تعليم النبي ﷺ في بعض الألفاظ بحسب من يتعلم، فإن كان بعيد الوطن، كضمام ابن ثعلبة[1] النجدي، ووفد عبد القيس، علّمهم ما لم يسعهم جهله، مع علمه أن دينه سينشر في الآفاق، ويرسل إليهم من يفقههم في سائر ما يحتاجون إليه، ومن كان قريب الوطن يمكنه الإتيان كل وقت، بحيث يتعلم على التدريج، أو كان قد علم فيه أنه قدعرف ما لا بد منه أجابه بحسب حاله وحاجته، على ما تدل قرينة حال السائل، كقوله «قل آمنت بالله ثم استقم»[2]. وأما من شرع دينًا لم يأذن به الله، فمعلوم أن أُصوله المستلزمة له لا يجوز أن تكون منقولة عن النبي ﷺ ولا عن غيره[3] من المرسلين، إذ هو باطل، وملزوم الباطل باطل، كما أن لازم الحق حق.

وقوله: بين الغلو والتقصير، قال تعالى: ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ** ﴾ [المائدة: ٧٧]. وقال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ** ﴾ [المائدة: ٨٧ -٨٨]. وفي «الصحيحين» عن عائشة رضي الله عنها: أن ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ سألوا أزواج رسول الله ﷺ عن عمله في السر؟فقال بعضهم: لا آكل اللحم،

---

(١) هو ضمام بن ثعلبة أحد بني سعدبن بكر السعدي، قدم على النبي - ﷺ، بعثه بنو سعد بن وافدًا، قيل في سنة خمس، روى حديثه ابن عباس وأبو هريرة وأنس بن مالك وطلحة بن عبيد الله وكلها طرق صحاح.

(٢) الحديث رواه مسلم في الإيمان ٦٢، ورواه الإمام احمد بن حنبل في المسند ج٣ ص٤١٢، ج٤ ص٢٨٥.

(٣) في ب: ولا عند أحد.

وقال بعضهم: لا أتزوج النساء، وقال بعضهم: لا أنام على فراش، فبلغ ذلك النبى ﷺ، فقال: «ما بال أقوام يقول أحدهم كذا وكذا؟! لكنى أصوم وأفطر، وأنام وأقوم، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»[1].
وفى غير «الصحيحين»: «سألوا عن عبادته فى السر، فكأنهم تقالُّوها»[2].
وذكر فى سبب نزول الاية الكريمة: عن ابن جريج، عن عكرمة أن عثمان بن مظعون[3]، وعلى بن أبى طالب، وابن مسعود، والمقداد بن الأسود، وسالمًا مولى أبى حذيفة رضى الله عنهم فى أصحابه – تبتَّلوا، فجلسوا فى البيوت، واعتزلوا النساء، ولبسوا المسوح، وحرَّموا طيبات الطعام واللِّباس، إلا ما يأكل ويلبس أهل السياحة من بنى إسرائيل، وهموا بالاختصاء، وأجمعوا لقيام الليل وصيام النهار، فنزلت: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾ [المائدة: ٨٧]. يقول: لا تسيرو بغير سنة المسلمين، يريد ما حرموا من النساء والطعام واللباس، وما أجمعوا له من قيام الليل وصيام النهار، وما هموا به من الاختصاء، فلما نزلت فيهم، بعث النبى ﷺ إليهم، فقال: «إن لأنفسكم عليكم حقًا، وإن لأعينكم حقًا، صوموا وأفطروا، وصلوا وناموا، فليس منا من ترك سنتنا»، فقالوا: اللهم سلَّمنا واتبعنا ما أنزلت.

وقوله: وبين التشبيه والتعطيل – تقدم أن الله سبحانه وتعالى يجب أن يوصف بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله، من غير تشبيه، فلا يقال: سمع كسمعنا، ولا بصر كبصرنا، ونحوه، ومن غير تعطيل، فلا ينفى عنه ما وصف به نفسه، أو وصفه به أعرف الناس به: رسول الله ﷺ، فإن ذلك تعطيل وقد تقدم الكلام فى هذا المعنى. ونظير هذا القول قوله: ومن لم يتوَق النفى والتشبه، زل

---

(١) الحديث رواه البخارى فى النكاح ١، ومسلم فى النكاح ٥، والنسائى فى النكاح ٤، والدارمى فى النكاح ٣، وأحمد بن حنبل ٢–١٥٨، ٣–٢٤١.
(٢) الحديث رواه أحمد بن حنبل فى مسنده ج٣ ص٢٥٦.
(٣) هو عثمان بن مظعون بن حبيب بن وهب الجمحى، أبو السائب، صحابى، كان من حكماء العرب فى الجاهلية، يحرم الخمر، وهاجر إلى أرض الحبشة مرتين، وأراد التبتل فمنعه رسول الله، شهد بدرًا ولما مات جاءه النبى فقبله ميتًا. وهو أول من مات بالمدينة سنة ٢هـ.

ولم يصب المنزله. وهذا المعنى مستفاد من قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]. فقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ رد على المشبهة، وقوله: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ رد على المعطلة.

وقوله: وبين الجبر والقدر – تقدم الكلام أيضًا على هذا المعنى، وأن العبد غير مجبور على أفعاله وأقواله، وأنها ليست بمنزلة حركات المرتعش وحركات الأشجار بالرياح وغيرها، وليست مخلوقة للعباد، بل هى فعل العبد وكسبه وخلقُ الله تعالى.

وقوله: وبين الأمن والإياس – تقدم الكلام أيضًا على هذا المعنى وأنه يجب أن يكون العبد خائفًا من عذاب ربه، راجيًا رحمته، وأن الخوف والرجاء بمنزلة الجناحين للعبد، فى سيره إلى الله تعالى والدار الآخرة.

البراءة من الفرق الضالة

قوله: «فهذا ديننا واعتقادنا ظاهرًا وباطنًا، ونحن برآء إلى الله تعالى من كل من خالف الذى ذكرناه وبيناه، ونسأل الله تعالى أن يثبتنا على الإيمان، ويختم لنا به، ويعصمنا من الأهواء المختلفة، والآراء المتفرقة، والمذاهب الردية، مثل المشبهة، والمعتزلة، والجهمية، والجبرية، والقدرية، وغيرهم، من الذين خالفوا السنة والجماعة، وحالفوا الضلالة، ونحن منهم برآء، وهم عندنا ضلال وأردياء. وبالله العصمة والتوفيق».

ش: الإشارة بقوله: «فهذا» إلى[1] كل ما تقدم من أول الكتاب إلى هنا.

والمشبهة: هم الذين شبهوا الله سبحانه بالخلق فى صفاته، وقولهم عكس قول النصارى، شبهوا المخلوق – وهو عيسى عليه السلام – بالخالق وجعلوه إلهًا، وهؤلاء شبهوا الخالق بالمخلوق، كداود الجواربى وأشباهه.

---

(١) سقط من «أ» كلمة (إلى).

المعتزلـــة

والمعتزلة: هم عمرو بن عبيد[1] وواصل بن عطاء الغَزَّال[2] وأصحابهما، سموا بذلك لما اعتزلوا الجماعة بعد موت الحسن البصرى[3] رحمه الله، فى أوائل المائة الثانية، وكانوا يجلسون معتزلين، فيقول قتادة وغيره: أولئك المعتزلة، وقيل: إن واصل بن عطاء هو الذى وضع أصول مذهب المعتزلة، وتابعه عمرو بن عبيد تلميذ الحسن البصرى، فلما كان زمن هارون الرشيد صنف لهم أبو الهذيل[4] كتابين، وبين مذهبهم، وبنى مذهبهم على الأُصول الخمسة، التى سموها: العدل، والتوحيد، وإنفاذ الوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ولبَّسوا فيها الحق بالباطل، إذْ شأن البدع هذا، اشتمالها على حق وباطل. وهم مشبهة الأفعال، لأنهم قاسوا أفعال الله تعالى على أفعال عباده، وجعلوا ما يحسن من العباد يحسن منه، وما يقبح من العباد يقبح منه! وقالوا: يجب عليه أن يفعل كذا، ولا يجوز له أن يفعل كذا، بمقتضى ذلك القياس الفاسد!! فإن السيد من بنى آدم لو رأى عبيده تزنى بإمائه ولا يمنعهم من ذلك لعُد إما مستحسنًا للقبح، وإما عاجزًا، فكيف يصح قياس أفعاله سبحانه وتعالى على أفعال عباده؟! والكلام على هذا المعنى مبسوط فى موضعه. فأما العدل، فستروا تحته نفى القدر، وقالوا: إن الله لا يخلق الشر ولايقضى به، إذ لو خلقه ثم

---

(١) عمرو بن عبيد بن باب التيمى بالولاء أبو عثمان البصرى، شيخ المعتزلة فى عصره ومفتيها، وأحد الزهاد المشهورين، كان جده من سبى فارس، وأبوه نساجا ثم شرطيا للحجاج فى البصرة، من مؤلفاته: التفسير والرد على القدرية يراه بعض العلماء مبتدعا، قال يحيى بن معين: كان من القدرية الذين يقولون إنما الناس مثل الزرع، توفى سنة ١٤٤هـ.

(٢) واصل بن عطاء الغزال أبو حذيفة، من موالى بنى ضبة، أو بنى مخزوم، رأس المعتزلة، ومن أئمة البلغاء والمتكلمين سُمى أصحابه بالمعتزلة لاعتزالهم حلقة درس الحسن البصرى، ومنهم طائفة تنسب إليه تسمى الواصلية، وهو الذى نشر مذهب الاعتزال ولد بالمدينة سنة ٨٠هـ، من كتبه «أصناف المرجئة» و«المنزلة بين المنزلتين» و«معانى القرآن»، مات سنة ١٣١هـ.

(٣) الحسن البصرى راجع ترجمته صفحة ٢٠٥ من هذا الكتاب.

(٤) هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول العبدى مولى عبد القيس أبو الهذيل العلاف من أئمة المعتزلة ولد فى البصرة واشتهر بعلم الكلام. له مقالات فى الاعتزال، ومجالس ومناظرات، وكان حسن الجدل قوى الحجة كف بصره، وتوفى بسمراء ٢٣٥هـ.

يعذبهم عليه يكون ذلك جوراً!! والله تعالى عادل لا يجور. ويلزم على هذا الأصل الفاسد أن الله تعالى يكون في ملكه ما لا يريده، فيريد الشيء ولا يكون، ولازمه وصفه بالعجز! تعالى الله عن ذلك. وأما التوحيد فستروا تحته القول بخلق القرآن، إذ لو كان غير مخلوق لزم تعدُّد القدماء!! ويلازمهم على هذا القول الفاسد أن علمه وقدرته وسائر صفاته مخلوقة، أو التناقض!! وأما الوعيد، فقالوا: إذا أوعد بعض عبيده وعيداً فلا يجوز ألا يعذبهم ويخلف وعيده، لأنه لا يخلف الميعاد، فلا يعفو عمن يشاء، ولا يغفر لمن يريد، عندهم!! وأما المنزلة بين المنزلتين، فعندهم: أن من ارتكب كبيرة يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر!! وأما الأمر بالمعروف فهو أنهم قالوا: علينا أن نأمر غيرنا بما أمرنا به، وأن نلزمه بما يلزمنا، وذلك هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وضمنوه أنه يجوز الخروج على الأئمة بالقتال إذا جاروا!!..

وقد تقدم جواب هذه الشبه الخمس في مواضعها. وعندهم أن التوحيدوالعدل من الأصول العقلية التي لا يعلم صحة السمع إلا بعدها، وإذا استدلوا على ذلك بأدلة سمعية، فإنما يذكرونها للاعتضاد بها، لا للاعتماد عليها، فهم يقولون لا نثبت هذه بالسمع، بل العلم بها متقدم على العلم بصحة النقل فمنهم من لا يذكرها في الأصول، إذ لا فائدة فيها عندهم، ومنهم من يذكرها ليبين موافقة السمع للعقل، ولإيناث الناس بها لا للاعتماد عليها، والقرآن والحديث فيه عندهم بمنزلة الشهود الزائدين على النصاب! والمدد اللاحق بعسكر مستغن عنهم! بمنزلة من يتبع هواه واتفق أن الشرع ما يهواه!! كما قال عمر بن عبد العزيز: لا تكن ممن يتبع الحق إذا وافق هواه، يخالفه إذا خالف هواه، فإذا أنت لا تثاب على ما وافقته من الحق، وتعاقب على ما تركته منه، لأنك إنما اتبعت هواك في الموضعين. وكما أن «الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرىء ما نوى»، والعمل يتبع قصد صاحبه وإرادته، فالاعتقاد القوي يتبع أيضًا علم ذلك وتصديقه، فإذا كان تابعًا للإيمان كان من الإيمان، كما أن العمل الصالح إذا كان عن نية صالحة كان صالحًا، وإلا فلا، فقول أهل الإيمان التابع لغير الإيمان، كعمل

أهل الصلاح التابع لغير قصد أهل الصلاح. وفى المعتزلة زنادقة كثيرة، وفيهم من ضل سعيهم فى الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً.

الجهميــة

والجهمية، هم المنتسبون إلى جهم بن صفوان السمرقندى، وهو الذى أظهر نفى الصفات والتعطيل، وهو أخذ ذلك عن الجعد بن درهم(١)، الذى ضحى به خالد بن عبد الله القَسْرى(٢) بواسط(٣) فإنه خطب الناس فى يوم عيد الأضحى، وقال: أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإنى مضح بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلاً ولم يكلم موسى تكليمًا، تعالى الله عما يقول الجعد علواً كبيرًا! ثم نزل فذبحه، وكان ذلك بعد استفتاء علماء زمانه، وهم السلف الصالح رحمهم الله تعالى وكان جهم بعده بخراسان(٤)، فأظهر مقالته هناك، وتبعه عليها ناس، بعدأن ترك الصلاة أربعين يوماً شكًا فى ربه! وكان ذلك لمناظرته قومًا من المشركين، يقال لهم السمنية، من فلاسفة الهند، الذين ينكرون من العلم ما سوى الحسبات، قالوا له: هذا ربك الذى تعبده، هل يرى أو يُشَم أو يُذاق أو يُلْمس؟ فقال: لا، فقالوا: هو معدوم فبقى أربعين يوماً لا يعبد شيئًا، ثم لما خلا قلبه من معبود يؤلهه، نقش الشيطان اعتقاداً نحته

---

(١) هو الجعد بن درهم من الموالى، مبتدع له أخبار فى الزندقة، سكن الجزيرة الفراتية، وأخذ عنه مروان بن محمد وكان مودبه صغيرا. قال الذهبى: مبتدع ضال زعم أن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى تكليمًا فقتل على ذلك بالعراق يوم النحر عام ١١٨هـ.

(٢) هو خالد بن عبد الله بن يزيد بن أسد القسرى من بجيلة أبو الهيثم، أمير العراق وأحد خطباء العرب وأجوادهم يمانى الأصل من أهل دمشق، ولى مكة سنة ٨٩هـ، للوليد بن عبد الملك ثم ولاه هشام العراقين الكوفة والبصرة سنة ١٠٥هـ، قتل أيام الوليد بن يزيد، وكان خالد يرمى بالزندقة عام ١٢٦هـ.

(٣) سميت واسط لأنها متوسط بين البصرة والكوفة قال الأسودوأخبرنى أبو الندى قال: إن للعرب سبعة أواسط، واسط نجد، وواسط الحجاز، وواسط الجزيرة، وواسط اليمامة، وواسط العراق، قال: وقد نسيت اثنين.

(٤) خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلى العراق وآخر حدودها مما يلى الهند وتشتمل على نيسابور وهراة ومرو وممن ينسب إلى خراسان عطاء الخراسانى وهو عطاء بن أبى مسلم واسم أبى مسلم ميسرة.

فكره. فقال: إنه الوجود المطلق!! ونفى جميع الصفات، واتصل بالجعد. وقد قيل: إن جعداً كان قد اتصل بالصابئة[١] الفلاسفة من أهل حرَّان، وأنه أيضاً أَخذ شيئًا عن بعض اليهود المحرفين لدينهم، المتصلين بلبيد بن الأعصم الساحر الذى سحر النبى ﷺ. فقتل جهم بخراسان، قتله سلْم بن أَحْوز[٢]، ولكن كانت قد فشت مقالته فى الناس، وتقلدها بعده المعتزلة. ولكن كان جهم أدخل فى التعطيل منهم، لأنه ينكر الأسماء حقيقة، وهم لا ينكرون الأسماء بل الصفات. وقد تنازع العلماء فى الجهمية: هل هم من الثنتين وسبعين فرقة أم لا؟ ولهم فى ذلك قولان: وممن قال إنهم ليسوا من الثنتين وسبعين فرقة – عبد الله بن المبارك؟[٣]، ويوسف بن أسباط[٤]. وإنما اشتهرت مقالة الجهمية من حين محنة الإمام أحمد بن حنبل وغيره من علماء السنة، فإنه من إمارة المأمون قوُوا وكثروا، فإنه أقام بخراسان مدةً واجتمع بهم، ثم كتب المحنة من طرسوس سنة ثمان سنةومائتين وفيها مات، وردوا الإمام أحمد إلى الحبس ببغداد إلى سنة عشرين، وفيها كانت محنته مع المعتصم ومناظرته لهم بالكلام، فلما رد عليهم ما احتجوا به عليه، وبين أنه لا حجة لهم فى شىء من ذلك، وأن طلبهم من الناس أن يوافقوهم وامتحانهم إياهم – جهل وظلم، وأراد المعتصم إطلاقه، أشار عليه من أشار بأن المصلحة ضربه، لئلا تنكسر حرمة الخلافة من بعدُ مرةً! فلما ضربوه قامت الشناعة فى العامة، وخافوا، فأطلقوه. وقصته مذكورة فى كتب التاريخ

---

(١) الصابئة: الصابئين جمع صابىء، وقيل: صاب، ولذلك اختلفوا فى همزه، الجمهور إلا نافعا. فمن همزه جعله من صبأت النجوم إذا طلعت، وصبأت ثنية الغلام إذا خرجت. فالصابى فى اللغة من خرج ومال من دين إلى دين. ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم: قد صبأ. فالصابئون قد خرجوا من دين أهل الكتاب.

(٢) سلم بن أحوز، لا توجد له ترجمة وافية، قتل جهم بن صفوان، وقتل يحيى بن زيد بأمر من نصر بن سيار.

(٣) عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلى بالولاء التميمى المروزى، أبو عبد الرحمن الحافظ شيخ الإسلام المجاهد التاجر، صاحب التصانيف والرحلات، أفنى عمره فى الأسفار حاجا ومجاهدا وتاجرا وجمع الحديث والفقه والعربية، مات سنة ١٨١هـ.

(٤) هو يوسف بن أسباط أبو يعقوب توفى سنة ١٩٥هـ. كما ذكره ابن الأثير (ج٦ صفحة ٢٥١).

ومما انفرد به جهم: أن الجنة والنار تفنيان، وأن الإيمان هو المعرفة فقط، والكفر هو الجهل فقط، وأنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا لله وحده، وأن الناس إنما تنسب إليهم أفعالهم على سبيل المجاز، كما يقال تحركت الشجرة، ودار الفلك، وزالت الشمس! ولقد أحسن القائل:

عجبت لشيطان دعا الناس جهرةً إلى النار واشتُق اسمه من جهنم

وقد نقل أن أبا حنيفة رحمه الله، لما سئل عن الكلام في الأعراض والأجسام؟ فقال. لعن الله عمرو بن عبيد، هو فتح على الناس الكلام في هذا.

الجبرية

والجبرية، أصل قولهم من جهم بن صفوان، كما تقدم، وأن فعل العبد بمنزلة طوله ولونه! وهم عكس القدرية نفاة القدر، فإن القدرية إنما نسبوا إلى القدر لنفيهم إياه، كما سميت المرجئة لنفيهم الإرجاء، وأنه لا أحد مرجأ لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم. وقد تسمى الجبرية «قدرية» لأنهم غلوا في إثبات القدر، وكما يسمى الذين لا يجزمون بشيء من الوعد والوعيد، بل يغلون في إرجاء كل أمر حتى الأنواع، فلا يجزمون بثواب من تاب، كما لا يجزمون بعقوبة من لم يتب، وكما لا يجزم لمعين. وكانت المرجئة الأولى يرجئون عثمان وعليًا، ولا يشهدون بإيمان ولا كفر!!

وقد ورد في ذم القدرية[1] أحاديث في «السنن»: منها ما روى أبو داود في «سننه»، من حديث عبد العزيز بن أبي حازم، عن أبيه عن ابن عمر، عن النبي ﷺ، قال: «القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم»[2] وروى في ذم القدرية أحاديث أخر كثيرة، تكلم أهل الحديث

---

(١) القدرية في إجماع أهل السنة والجماعة: هم الذين يقولون الخير من الله، والشر من الإنسان وأن الله لا يريد أفعال العصاة، وسموا بذلك لأنهم أثبتوا للعبد قدرة توجد الفعل بانفرادها دون الله تعالى.

(٢) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٤٦٩١ في السنة باب في القدر من حديث عبد العزيز ابن أبي حازم عن أبيه أبي حازم سلمة بن دينار عن ابن عمر وقد جزم المنذري بأن أبا حازم سلمة ابن دينار لم يسمع من ابن عمر فالإسناد منقطع.

في صحة رفعها، والصحيح أنها موقوفة، بخلاف الأحاديث الواردة في ذم الخوارج، فإن فيهم في «الصحيح» وحده عشرة أحاديث، أخرج البخاري منها ثلاثة، وأخرج مسلم سائرها: ولكن مشابهتهم للمجوس ظاهرة، بل قولهم أردأ من قول المجوس، فإن المجوس اعتقدوا وجود خالقَيْن، والقدرية اعتقدوا خالقين.

وهذه البدع المتقابلة حدثت من الفتن المفرِّقة بين الأمة، كما ذكر البخاري في «صحيحه»، عن سعيد بن المسيب، قال: وقعت الفتنة الأولى، يعني مقتل عثمان، فلم تُبق من أصحاب بدر أحداً. ثم وقعت الفتنة الثانية، فلم تبق من أصحاب الحديبية أحداً. ثم وقعت الثالثة، فلم ترتفع وللناس طبَاخ، أي عقل وقوة. فالخوارج والشيعة حدثوا في الفتنة الأولى، والقدرية والمرجئة في الفتنة الثانية. والجهمية ونحوهم بعد الفتنة الثالثة. فصار هؤلاء ﴿ **الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا** ﴾ [الأنعام: ١٥٩] يقابلون البدعة بالبدعة، أولئك غلوا في علي، وأولئك كفّروه! وأولئك غلوا في الوعيد، حتى خلدوا بعض المؤمنين، وأولئك غلوا في الوعيد حتى نفوا بعض الوعيد أعني المرجئة وأولئك غلوا في التنزيه حتى نفوا الصفات وهؤلاء غلوا في الإثبات، حتى وقعوا في التشبه! وصاروا يبتدعون من الدلائل والمسائل ما ليس بمشروع، ويعرضون عن الأمر المشروع، وفيهم من استعان على ذلك بشيء من كتب الأوائل: اليهود والنصارى والمجوس والصابئين، فإنهم قرؤوا كتبهم، فصار عندهم من ضلالتهم ما أدخلوه في مسائلهم ودلائلهم، وغيروه في اللفظ تارةً، وفي المعنى أخرى! فلبسوا الحق بالباطل، وكتموا حقاً جاء به نبيهم، فتفرقوا واختلفوا وتكلموا حينئذ في الجسم والعرض والتجسيم، نفياً وإثباتاً.

عوامل ضلال الفرق

وسبب ضلال هذه الفرق وأمثالهم، عدولهم عن الصراط المستقيم، الذي أمرنا الله باتباعه، فقال تعالى: ﴿ **وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ** ﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وقال تعالى: ﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ [يوسف: ١٠٨]. فوحَّد لفظ

« صراطه » و« سبيله »، وجمع « السبل » المخالفة له. وقال ابن مسعود رضى الله عنه: خط لنا رسول الله ﷺ خطًا، وقال: « هذا سبيل الله »، ثم خطّ خطوطًا عن يمينه وعن يساره، وقال: هذه سبل، على كل سبيل شيطانٌ يدعو إليه، ثم قرأ: « وأن هذا صراطى مستقيمًا فاتبعوه، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون »[1].

ومن ههنا يعلم أن اضطرار العبد إلى سؤال هداية الصراط المستقيم فوق كل ضرورة، ولهذا شرع الله تعالى فى الصلاة أُمَّ القرآن فى كل ركعة، إما فرضًا أو إيجابًا، على حسب اختلاف العلماء فى ذلك، لاحتياج العبد إلى هذا الدعاء العظيم القدر، المشتمل على أشرف المطالب وأجلِّها. فقد أَمرنا الله تعالى أن نقول: ﴿ **اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلا الضَّالِّينَ** ﴾ [الفاتحة: ٦-٧].

وقد ثبت عن النبى ﷺ أنه قال: « اليهود مغضوب عليهم، والنصارى ضالون »[2]. وثبت فى « الصحيح » عن النبى ﷺ أنه قال: « لتتبعنَّ سَنَنَ من كان قبلكم حذْوَ القُذَّة بالقُذَّة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه »، قالوا: يا رسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: « فمن؟! »[3].

قال طائفة من السلف: من انحرف من العلماء ففيه شبه من اليهود، ومن انحرف من العباد ففيه شبه من النصارى. فلهذا تجد أكثر المنحرفين من أهل الكلام، من المعتزلة ونحوهم - فيه شبه من اليهود، حتى إن علماء اليهود يقرؤون كتب شيوخ المعتزلة، ويستحسنون طريقتهم، وكذا شيوخ المعتزلة يميلون إلى اليهود ويرجحونهم على النصارى. وأكثر المنحرفين من العُبَّاد، من المتصوفة ونحوهم - فيهم شبه من النصارى، ولهذا يميلون إلى نوع من الرهبانية والحلول والإتحاد ونحو ذلك. وشيوخ هؤلاء يذمون الكلام وأهله، وشيوخ أُولئك يعيبون

---

(١) صحيح، رواه الحاكم وغيره « تخريج السنة رقم ١٧ ».
(٢) صحيح، رواه الترمذى وغيره وصححه ابن حبان (١٧١٥، ٢٢٧٩).
(٣) الحديث رواه البخارى فى الاعتصام١٤، والأنبياء ٥٠، ومسلم فى العلم ٦٥، وابن ماجه فى الفتن ١٧، وأحمد بن حنبل ج٣ ص٤٥٠، ٥١١.

طريقة هؤلاء ويصنفون فى ذم السماع والوَجْد وكثير من الزهد والعبادة التى أحدثها هؤلاء.

طرق أهل الضلال

وللفرق الضُّلال فى الوحى طريقتان: طريقة التبديل، وطريقة التجهيل. أما أهل التبديل فهم نوعان: أهل الوهم والتخييل، وأهل التحريف والتأويل.

فأهل الوهم والتخييل: هم الذين يقولون: إن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر والجنة والنار بأمور غير مطابقة للأمر فى نفسه! لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون به ويتوهمون به أن الله شىء عظيم كبير وأن الأبدان تعاد، وأن لهم نعيماً محسوساً، وعقاباً محسوساً، وإن كان الأمر ليس كذلك، لأن مصلحة الجمهور فى ذلك، وإن كان كذباً فهو كذب لمصلحة الجمهور!! وقد وضع ابن سينا[1] وأمثاله قانونهم على هذا الأصل.

وأما أهل التحريف والتأويل، فهم الذين يقولون: إن الأنبياء لم يقصدوا بهذه الأقوال ما هو الحق فى نفس الأمر، وأن الحق فى نفس الأمر هو ما علمناه بعقولنا، ثم يجتهدون فى تأويل هذه الأقوال إلى ما يوافقهم رأيهم بأنواع التأويلات!! ولهذا كان أكثرهم لا يجزمون بالتأويل، بل يقولون: يجوز أن يراد كذا. وغاية ما معهم إمكان احتمال اللفظ.

وأما أهل التجهيل والتضليل، الذين حقيقة قولهم: إن الأنبياء وأتباع الأنبياء جاهلون ضالون، لا يعرفون ما أراد الله بما وصف به نفسه من الآيات وأقوال الأنبياء! ويقولون: يجوز أن يكون للنص تأويل لا يعلمه إلا الله، لا يعلمه جبرائيل ولا محمد ولا غيره من الأنبياء، فضلاً عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وأن محمداً ﷺ كان يقرأ: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ [طه: ٥]. ﴿**إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ**﴾ [فاطر: ١٠]. ﴿**مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا**

---

(١) هو الحسين بن عبد الله بن سينا أبو على شرف الملك، صاحب التصانيف فى الطب والمنطق والطبيعات والإلهيات، أصله من بلخ، ومولده فى إحدى قرى بخارى، من كتبه «الإشارات»، توفى سنة ٢٤٨هـ.

خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص: ٧٥]. وهو لا يعرف معانى هذه الآيات! بل معناها الذى دلت عليه لا يعرفه إلا الله تعالى!! ويظنون أن هذه طريقة السلف!!

ثم منهم من يقول: إن المراد بهذا خلاف مدلولها الظاهر المفهوم، ولا يعرفه أحد، كما لا يُعلم وقت الساعة! ومنهم من يقول: بل تجرى على ظاهرها!! وتحمل على ظاهرها ومع هذا فلا يعلم تأويلها إلا الله فيتناقضون حيث أثبتوا لها تأويلاً يخالف ظاهرها، وقالوا مع هذا أنها تحمل على ظاهرها وهؤلاء يشتركون[1] فى القول بأن الرسول لم يبين المراد بالنصوص التى يجعلونها مشكلةً أو متشابهة ولهذا يجعل كل فريق المشكل من نصوصه غير ما يجعله الفريق الآخر مشكلاً! ثم منهم من يقول: لم يعلم معانيها أيضًا! ومنهم من يقول: علمها ولم يبينها، بل أحال فى بيانها على الأدلة العقلية، وعلى من يجتهد فى العلم بتأويل تلك النصوص!! فهم مشتركون فى أن الرسول لم يأت بها على ما يوافق معقولنا، وأن الأنبياء وأتباعهم لا يعرفون العقليات!! ولا يفهمون السمعيات!! وكل ذلك ضلال وتضليل عن سواء السبيل.

نسأل الله السلامة والعافية، من هذه الأقوال الواهية، المفضية بقائلها إلى الهاوية.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون

وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين

---

(١) فى ب: مشركون.



الفهارس العامة

فهرس الآيات

السورة	رقم الآية	الصفحة
الأنفال	٣٣	٣٥
الزمر	٥٤	٣٥
المائدة	٨٩	٣٦
البقرة	٢٧١	٣٦
هود	١١٥	٣٦
المجادلة	٤	٣٦
التوبة	٦٠	٣٦
النساء	١٢٣	٣٧
النساء	٤٠	٣٧
النساء	٤٨-١١٦	٣٨
البقرة	٢١٨	٣٨
الزمر	٩	٣٨
السجدة	١٦	٣٩
الإسراء	١٠٢	٤١
النمل	١٤	٤١
الحجر	٣٦	٤١
ص	٨٢	٤١
الحجر	٣٩	٤١
البقرة	٢٦٠	٤٤
الأعراف	٢٠١-٢٠٢	٤٤
يوسف	١٧	٤٥
البقرة	٢٥	٤٦
النحل	١٠٦	٤٦
العنكبوت	٢٦	٤٦
يونس	٨٣	٤٦
التوبة	٦١	٤٦
الأنفال	٢	٥١
المدثر	٣١	٥١
آل عمران	١٧٣	٥١
مريم	٧٦	٥١
الفتح	٤	٥١
آل عمران	١٧٣	٥١
آل عمران	١٦٧	٥١
التوبة	١٢٥	٥١
الأنفال	٢	٥٣
المائدة	٨١	٥٣
الحجرات	١٥	٥٣
الأنعام	١	٥٤
البقرة	٤٢	٥٤
البقرة	٢٣٨	٥٤
الأحزاب	٧	٥٤
آل عمران	٢	٥٤
محمد	٣٣	٥٤
البقرة	٩٨	٥٤
غافر	٣	٥٥
المائدة	٤٨	٥٥
البقرة	١٧٧	٥٥
فاطر	٣٢	٥٦

السورة	رقم الآية	الصفحة
يونس	٦٢-٦٣	٥٧
الحديد	٢١	٥٨
آل عمران	٨٥	٥٨
المائدة	٥	٥٨
الحجرات	١٤-١٥	٥٨
الأحزاب	٣٥	٦٠
البقرة	٢٧١	٦٠
الذاريات	٣٥-٣٦	٦٠
آل عمران	٣١	٦٢
الفتح	٢٧	٦٢
الأنفال	٢-٤	٦٤
الحجرات	١٥	٦٤
النور	٣٩-٤٠	٦٤
الأحزاب	٣٦	٦٥
التوبة	٣٣	٦٦
الشورى	١١	٦٧
البقرة	٧٥	٦٧
البقرة	٧٨-٧٩	٦٧
يونس	٦٢-٦٣	٦٨
الأنفال	٧٢	٦٨
البقرة	٢٥٧	٦٨
محمد	١١	٦٨
التوبة	١٧	٦٨
الأنفال	٧١	٦٨

السورة	رقم الآية	الصفحة
المائدة	٥٥-٥٦	٦٩
الإسراء	١١١	٦٩
يوسف	١٠٦	٧٠
الحجرات	١٤	٧٠
يونس	٦٢-٦٤	٦٩
البقرة	١٧٧	٧٠
الطلاق	٢-٣	٧١
الحجرات	١٣	٧١
الفجر	١٥	٧٢
البقرة	١٣٦	٧٣
آل عمران	٦٤	٧٣
الأنفال	٢	٧٣
الحجرات	١٥	٧٣
النساء	٦٥	٧٤
التوبة	٥١	٧٥
النساء	٧٨-٧٩	٧٥
الشورى	٣٠	٧٥
الرعد	١٨	٧٦
الفلق	٢	٧٦
الجن	١٠	٧٦
الحاقة	٤٤-٤٦	٧٧
النساء	١٥٠-١٥١	٨٠
النساء	٣١	٨٢
الحجر	٣٦	٨٣

السورة	رقم الآية	الصفحة	السورة	رقم الآية	الصفحة
ص	٨٢-٨٣	٨٣	الأعراف	٣٣	٩٦
لقمان	٢٥	٨٣	الكهف	٢٦	٩٦
المؤمنون	٨٤-٨٥	٨٣	الكهف	٢٢	٩٦
الزمر	٥٣	٨٣	الانفطار	١٠-١٢	١٠٠
يوسف	١٠١	٨٤	ق	١٧-١٨	١٠٠
الأعراف	١٢٦	٨٤	الرعد	١١	١٠٠
محمد	١٩	٨٨	الزخرف	٨٠	١٠٠
الحجرات	١١-١٢	٩٠	الجاثية	٢٨	١٠٠
الإسراء	٣٦	٩٠	يونس	٢١	١٠١
النساء	٥٩	٩١	الانفطار	١٢	١٩٠٢
الشورى	٣٠	٩٣	السجدة	١١	١٠٢
آل عمران	١٦٥	٩٣	الأنعام	٦١	١٠٢
النساء	٧٩	٩٢	الزمر	٤٢	١٠٢
الأنعام	٢٩	٩٣	الإسراء	٨٥	١٠٣
آل عمران	٣١	٩٣	الحجر	٢٩	١٠٣
النساء	١١٥	٩٣	الزمر	٦٢	١٠٣
النور	٥٤	٩٤	الدهر	١	١٠٣
الأنعام	١٥٣	٩٤	مريم	٩	١٠٣
آل عمران	١٠٥	٩٤	الحجر	٢٩	١٠٣
الأنعام	١٥٩	٩٤	الزمر	٤٢	١٠٥
الصف	٤	٩٥	الأنعام	٩٣	١٠٥
القصص	٥٠	٩٦	الأنعام	٦٠	١٠٥
الحج	٣-٤	٩٦	الفجر	٢٧-٣٠	١٠٥
غافر	٣٥	٩٦	النور	٦١	١٠٦

السورة	رقم الآية	الصفحة	السورة	رقم الآية	الصفحة
الحج	٥	١٢٢	الكهف	١٠٥	١٣٠
المؤمنون	١٢	١٢٢	البقرة	٣٠	١٣١
الكهف	٢١	١٢٢	الإسراء	٨٥	١٣١
الحج	٧	١٢٢	آل عمران	١٣٣	١٣٢
المؤمنون	١٦	١٢٢	النجم	١٣-١٥	١٣٢
النور	٢٥	١٢٣	الحديد	٢١	١٣٢
النبأ	٢٦	١٢٣	النبأ	٢١-٢٢	١٣٢
النمل	٨٩-٩٠	١٢٤	القصص	٨٨	١٣٥
السجدة	١٧	١٢٣	آل عمران	١٨٥	١٣٥
القصص	٨٤	١٢٤	التحريم	١١	١٣٥
الحاقة	١٥-١٨	١٢٤	الرحمن	٢٦	١٣٥
الكهف	٤٨-٤٩	١٢٤	القصص	٨٨	١٣٥
إبراهيم	٤٨	١٢٤	هود	١٠٨	١٣٧
غافر	١٧	١٢٥	الإسراء	٨٦	١٣٧
الانشقاق	٦-١٥	١٢٤	الشورى	٢٤	١٣٧
الكهف	٤٩	١٢٤	يونس	١٦	١٣٧
غافر	١٥	١٢٥	ص	٥٤	١٣٧
البقرة	٢٨١	١٢٥	الرعد	٣٥	١٣٧
الانشقاق	٧-٨	١٢٥	الحجر	٤٨	١٣٧
مريم	٧١-٧٢	١٢٨	الدخان	٥٦	١٣٧
هود	٩٤	١٢٨	البقرة	٨٠-٨١	١٣٨
هود	٦٦	١٢٨	الأنعام	١٢٨	١٣٩
الأنبياء	٤٧	١٢٩	النبأ	٢٣	١٣٩
المؤمنون	١٠٢-١٠٣	١٢٩	هود	١٠٦-١٠٧	١٣٩

الســـورة	رقم الآيــة	الصفحة	الســـورة	رقم الآيــة	الصفحة
الأنعـــــام	١٥	١٣٩	هـــــود	٢٠	١٤٣
غــــافـــر	٧	١٤٠	الــكـهــف	٧٥	١٤٤
الزخــــرف	٧٥	١٤٠	الــكـهــف	٦٧	١٤٤
الــنـبــــأ	٣٠	١٤٠	الحـجـرات	٧	١٤٤
الــبــيــنة	٨	١٤٠	الــكـهــف	١٧	١٤٥
الحــجــــر	٤٨	١٤٠	الأنعـــام	١٢٥	١٤٤
البــقــــرة	١٦٧	١٤٠	الأنفــــال	١٧	١٤٨
الأعــــراف	٤٠	١٤٠	المؤمـنـون	١٤	١٤٨
فــــاطــر	٣٦	١٤٠	الأعـــراف	٤٣	١٤٨
الفــرقــان	٦٥	١٤٠	الســجــدة	١٧	١٤٩
الأعــــراف	١٧٩	١٤٠	الــرعـــد	١٦	١٤٩
طـــــه	٥٠	١٤١	الصــافــات	٩٦	١٤٩
طـــــه	١١٢	١٤١	الــشـمــس	٧-٨	١٥٠
الشــورى	٣٠	١٤١	الــشـمــس	٩-١٠	١٥٠
الأنعـــــام	١٢٤	١٤٢	الــــروم	٣٠	١٥٠
الأنعـــــام	٥٣	١٤٢	ص	٨٢-٨٣	١٥١
البــقــــرة	٢٨٦	١٤٢	يــوســف	٢٤	١٥١
آل عـــمــران	٩٧	١٤٣	الحــجــر	٤١-٤٤	١٥١
المجــادلة	٤	١٤٣	الأنعـــام	٤٤	١٥٢
الــتــوبة	٩١	١٤٣	الحــديــد	٢١	١٥٣
النـســـاء	٢٥	١٤٣	الحــديــد	٢٩	١٥٣
الــتــغــابن	١٦	١٤٣	الأنعـــام	٥٣	١٥٣
الـتـــوبة	٤٣	١٤٣	الأنعـــام	١٢٤	١٥٣
الـتـــوبة	٩٣	١٤٣	البــقــرة	١٩٧	١٥٣

السورة	رقم الآية	الصفحة	السورة	رقم الآية	الصفحة
هود	٣٦	١٥٣	البقرة	١٨٣	١٥٨
البقرة	٢٨٦	١٥٤	الأنبياء	١١٢	١٥٨
الأنبياء	٢٣	١٥٤	المائدة	٢	١٥٨
الأنعام	١٥٢	١٥٥	المائدة	٣	١٥٨
البقرة	٢٨٦	١٥٥	المائدة	٢٦	١٥٨
البقرة	٢١	١٥٥	الأعراف	١٣٧	١٥٨
هود	٢٠	١٥٦	الممتحنة	١٠	١٥٨
الكهف	٦٧–٧٥	١٥٦	الأنبياء	٩٥	١٥٨
المؤمنون	٧١	١٥٦	النساء	٢٣	١٥٨
البقرة	١٨٥	١٥٧	البقرة	١٢٤	١٥٨
الحج	٧٨	١٥٧	ق	٢٩	١٥٩
الإسراء	٢٣	١٥٧	الكهف	٤٩	١٥٩
النساء	٢٨	١٥٧	طه	١١٢	١٥٩
السجدة	١٢	١٥٧	الزخرف	٧٦	١٥٩
يس	٨٢	١٥٧	غافر	١٧	١٥٩
النحل	٩٠	١٥٧	طه	١١٢	١٦٠
البقرة	١٠٢	١٥٧	ق	٢٨	١٦٠
فاطر	١١	١٥٨	الإسراء	١٥	١٦٠
المائدة	٤٥	١٥٨	ق	٢٩	١٦٠
يوسف	٨٠	١٥٨	المؤمنون	١١٥	١٦٠
الإسراء	١٦	١٥٧	القلم	٣٥	١٦٠
النساء	٥٨	١٥٧	ص	٢٨	١٦٠
الحشر	٥	١٥٧	الجاثية	٢١	١٦٠
الأنبياء	١٠٥	١٥٨	الحشر	١٠	١٦٤

فهرس الأحاديث

مسلسل	الحـــديث	الصفحة
	وينقص؟ فقال: لا، الإيمان مكمنه في القلب زيادته كفر ونقصانه شـــــرك»	٥١
٤٦	«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»	٥٢
٤٧	«ثلاث من كن فيه فقد استكمل الإيمان، إنصاف من نفسه والإنفاق من اقتار، وبذل السلام للعالم»	٥٣
٤٨	«لا يزني الزاني حين يزني وهو مـــؤمن»	٥٣
٤٩	«لا تؤمنوا حـتى تحـابوا»	٥٣
٥٠	«من غـــشنا فليس منا»	٥٣
٥١	«من حـــمل علينا الســـلاح فليس منا»	٥٤
٥٢	«إن المؤمن إذا عمل الحسنة سرته ورجا ثوابها، وإذا عمل السيئة ساءته وخاف عقابها»	٥٥
٥٣	«آمركم بالإيمان بالله وحده، أتدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا الخـــمس من المغنم»	٥٥
٥٤	«الإســلام عــلانيــة، والإيمان في القلب»	٥٦
٥٥	«هذا جـبـريل آتاكم يعلمكم دينكم»	٥٦
٥٦	«الإسـلام شـهـادة أن لا إله إلا الله وإقـام الصـلاة»	٥٧
٥٧	«اللهم لك أسلمت وبك آمنت»	٥٧
٥٨	«أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله»	٥٩
٥٩	«مالك وفلان والله إني لأراه مؤمنًا؟ قال: «أو مسلمًا»	٦٠
٦٠	«وإنا إن شاء الله بكم لاحـقـون»	٦٢
٦١	«إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله»	٦٢
٦٢	«إنما الأعـمـال بالنيـات»	٦٥
٦٣	«لا تنكح المرأة على عمتها، ولا على خالتها»	٦٥
٦٤	«يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب»	٦٥

مسلسل	الحـــديث	الصفحة

مسلسل	الحـــديث	الصفحة
	وافتحوا له بابًا إلى الجنة . قال فيأتيه من روحها وطيبها»	١٣٣
١٣٤	«خسفت الشمس في حياة رسول الله ﷺ فقال رسول الله ﷺ رأيت في مقامي هذاكل شيء»	١٣٣
١٣٥	«وأيم الله الذي نفسي بيده لو رأيتم ما رأيت لضحكتم قليلاً وبكيتم كثيرًا . قالوا مارأيت يا رسول الله؟ قال : رأيت الجنة والنار» .	
١٣٦	«إنما نسمة المؤمن طير تعلق في شجرة الجنة حتى يرجعها الله إلى جسده يوم القيامة»	١٣٤
١٣٧	«لما خلق الله الجنة والنار أرسل جبرائيل إلى الجنة فقال اذهب فانظر إليها وإلى ما أعددت لأهلها فيها فذهب فنظر إليها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها فرجع فقال وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها فأمر بالجنة فحفت بالمكاره... إلخ»	١٣٤
١٣٨	«من قال سبحان الله وبحمده غرست له نخلة في الجنة»	١٣٥
١٣٩	«من يدخل الجنة ينعم ولا ييأس ويخلد ولا يموت»	١٣٨
١٤٠	«ينادي مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصحُّوا فلا تسقموا وأن تشبوا فلاتهرموا أبدًا وأن تحيوا فلا تموتوا أبدًا»	١٣٨
١٤١	«يا أهل الجنة خلود بلا موت وياأهل النار خلود بلا موت»	١٣٨
١٤٢	«لما قضى الله الخلق كتب كتابًا فهو عنده فوق العرش أن رحمتي سبقت غضبي»	١٣٩
١٤٣	«دعي رسول الله ﷺ إلى جنازة صبي من الأنصار فقالت يا رسول الله، طوبى لهذا عصفور من عصافير الجنة لم يعمل سوء ولم يدركه قال أو غير ذلك يا عائشة، إن الله خلق للجنة أهلاً وهم في أصلاب آبائهم وخلق للنار أهلاً خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم»	١٤٠
١٤٤	«صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنب»	١٤٣
١٤٥	«لن يدخل أحد الجنة بعمله قالوا: ولا أنت يا رسول الله..؟ قال:	

مسلسل	الحـــديث	الصفحة
٢٠٣	«أرق رسـول الله – ﷺ ذات ليلة فـقـال ليت رجـلاً صـالحًا من أصحابى يحرسنى الليلة قالت: وسمعنا صوت السلاح فقال النبى – ﷺ – من هذا فـقـال سـعـد بن أبى وقـاص يا رسـول الله جـئت أحرسك وفى لفظ آخر. وقع فى نفسى خوف على رسول الله – ﷺ فجئت أحرسه. فدعا له رسول الله ثم نام»	١٩٩
٢٠٤	«إرم فـــــداك أبـى وأمـى»	١٩٩
٢٠٥	«رأيت يد طلحة التى وقى بها النبى – ﷺ يوم أحد قد شلت»	١٩٩
٢٠٦	«لكل نبى حوارى وحواريى الزبيـر»	٢٠٠
٢٠٧	«من يأتى بنى قريظة فيأتينى بخبرهم فانطلقت فلما رجعت جمع لى رسول الله –ﷺ أبويه فقال: فداك أبى وأمى»	٢٠٠
٢٠٨	«إن لكل أمة أمينًا وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح» ...	٢٠٠
٢٠٩	«لأبعثن إليكم رجلاً أمينًا حق أمين»	٢٠٠
٢١٠	«عشرة فى الجنة النبى فى الجنة وسعدبن مالك فى الجنة وعبد	
٢١١	الرحمن فى الجنة، ولو شئت لسميت العاشر قال فقالوا: من	
٢١٢	هو..؟ قال: سعيد بن زيد»	٢٠٠
٢١٣	«اهدأ فما عليك إلا نبى أو صديق أو شهيد»	٢٠١
٢١٤	«لا يدخل النار أحـد بايع تحت الشـجـرة»	٢٠٢
٢١٥	«كذبت لا يدخلها فإنه شهد بدرًا والحديبية»	٢٠٢
٢١٦	«التمسوها فى العشر الأواخر من رمضان»	٢٠٢
٢١٧	«ما من أيام العمل الصالح فيهن أحب إلى الله من أيام العشر» ..	٢٠٢
٢١٨	«كلهم من قريش»	٢٠٣
٢١٩	«لا يزال الإسلام عزيزًا إلى إثنى عشر خليفة»	٢٠٣
٢٢٠	«أنا تارك فيكم ثقلين أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ثم قال: وأهل بيتى أذكركم الله فى أهل بيـــتى ثلاثًا»	٢٠٤
٢٢١	«ارقبوا محمدًا فى أهل بيته»	٢٠٤

مسلسل	الحـــديث	الصفحة
٢٣١	«سئل رسول الله ﷺ عن الكهـان فقال: ليسـوا بشـىء. فقالوا: يا رسـول الله إنهم يحـدثون أحيـانًا بالشـىء يكون حـقًا. فـقـال رسول الله، تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقـرها فى أذن وليـه.. إلخ»..	٢١٧
٢٣٢	«ثمن الكلب خـبـيث، ومـهـر البـغى خـبـيث، وحلوان الكاهن خـبـيـث»..	٢١٧
٢٣٣	«أصبح من عبادى، مؤمن بى وكافر، فأما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بى كافر بالكواكب، وأما من قال مطرنا بنوء كذا، وكذا فذلك كافر بى مؤمن بالكواكب»...............	٢١٨
٢٣٤	«أربع فى أمتى من أمر الجاهلية، الفخر فى الأحساب، والطعن فى الأنساب والاستسقاء بالنجوم والنياحة»..................	٢١٨
٢٣٥	«كان لأبى بكر غلام يأكل من خراجه فجاء يومًا بشىء فأكل منه أبو بكر، فـقـال له الغلام: تدرى م هذا؟ قال: وما هو قال كنت تكهنت لإنسان فى الجاهلية وما أحسن الكهانة إلا أنى خدعته فلقـينى فـأعطانى بذلك... إلخ»........................	٢١٩
٢٣٦	«أن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه أوشك أن يعمهم الله بعقاب مـــن عـــنـــده»..	٢١٩
٢٣٧	«لا بأس بالرقى مـا لـم تكن شـركًـا»........................	٢٢٠
٢٣٨	«من عـمل عـملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»..................	٢٢٠
٢٣٩	«اطلعت فى الجنة فرأيت أهلها الفقراء»....................	٢٢٤
٢٤٠	«من ترك ثلاث جمع تهاونًا من غير عذر طبع الله على قلبه»..	٢٢٦
٢٤١	«إن الشيطان ذئب الإنسـان كـذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناجية فإياكم والشعاب وعليكم بالجماعة والعامة والمسجد».	٢٢٨
٢٤٢	«لما نزل قول الله تعالى: قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم، قال أعوذ بوجهك أو يلبسكم شيعًا ويذيق بعضكم بأس بعض. قال هاتان أهون»............	٢٢٨

مسلسل	الحـــديث	الصفحة

فهـــرس الأعـــلام

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الزاى

حرف السين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

الابن والأم

الكنى

فهرس الفرق

ثبت بمراجع التحقيق

(أ)

١ – الإبانة عن أصول الديانة، أبى الحسن (١) على بن إسماعيل الأشعرى. ط. المنيرية القاهرة.

٢ – ابن حنبل: للشيخ محمد أبى زهرة، دار الفكر العربى القاهرة، ١٣٦٧– ١٩٤٧م.

٣ – الأحكام فى أصول الأحكام، لسيف الدين على بن أبى على بن محمد الآمدى، ط المعارف القاهرة، ١٣٣٢–١٩١٤.

٤ – إحياء علوم الدين، لأبى حامد الغزالى، ط. لجنة نشر الثقافة الإسلامية القاهرة ١٣٥٦–١٣٥٧.

٥ – أخبار الحكماء – تاريخ الحكماء.

٦ – أخبار الحلاج، لعلى بن أنجب الساعى. تحقيق (ماسينيون) و(كراوس) باريس ١٩٣٦.

٧ – الأخلاق عند الغزالى. د. زكى مبارك. ط. دار الكتاب العربى، القاهرة بدون تاريخ.

٨ – الأذكار المنتخبة من كلام سيد الأبرار لمحيى الدين أبى زكريا يحيى بن شرف النووى ط. مصطفى الحلبى القاهرة ١٣٧١ – ١٩٥٢.

٩ – الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد، لإمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله الجوينى تحقيق د. محمد يوسف موسى والأستاذ على عبد المنعم عبد الحميد. ط الخانجى القاهرة، ١٣٦٩–١٩٥٠.

١٠– الاستيعاب فى أسماء الأصحاب، لأبى عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمرى القرطبى – بذيل الإصابة لابن حجر، المكتبة التجارية القاهرة ١٣٥٨–١٩٣٩.

١١- الإشارات والتنبيهات لأبى علـى الحسين بن عبـد الله بن سينا، تحقيق د. سليمان دنيا ط المعارف القاهرة ١٩٥٧-١٩٦٠.

١٢- اجتماع الجيوش الإسلامية: لابن القيم الجوزية: الناشر زكريا يوسف- مصر.

١٣- أحمد بن حنبل: للأستاذ عبد الحليم الجندى: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

١٤- الإصابة فى تمييز الصحابة، لابن حجر العسقلانى، ط. التجارية القاهرة ١٣٥٨ - ١٩٣٩.

١٥- أصول الدين، لعبد القاهر بن طاهر البغدادى، استنابول، ١٣٤٦-١٩٢٨.

١٦- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، لفخر الدين الرازى، تحقيق د. على سامى النشار، ط. النهضة المصرية القاهرة، ١٣٥٦-١٩٣٨.

١٧- الأعلام، لخير الدين الزركلى، الطبعة الثانية، القاهرة، ١٣٧٣-١٣٧٨- ١٩٥٤-١٩٥٩.

١٨- أعلام الموقعين عن رب العالمين، لأبى عبد الله محمد بن أبى بكر المعروف بابن قيم الجوزية، ط. المنيرية، القاهرة، بدون تاريخ.

١٩- اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، لابن تيمية، تحقيق الشيخ محمد حامد الفقى، ط. السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٦٩-١٩٥٠.

٢٠- أقسام العلوم العقلية، لابن سينا، ضمن تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات، ط. أمين هندية، القاهرة، ١٣٦٦-١٩٠٨.

٢١- إنباه الرواة على أنباه النحاة، لأبى الحسن على بن يوسف القفطى، تحقيق الأستاذ محمد أبى الفضل إبراهيم، ط. دار الكتب، القاهرة ١٣٦٩-١٩٥٠.

(ب)

٢٢- البدء والتاريخ، لمطهر بن طاهر المقدسى، ط. باريس ١٨٩٩-١٩١٩.

٢٣- البداية والنهاية فى التاريخ، لإسماعيل بن عمر بن كثير، ط. السعادة القاهرة، ١٣٥١-١٣٩٢.

٢٤- البدور الزاهرة فى القراءات العشر المتواترة، لعبد الفتاح القاضى، ط. مصطفى الحلبى، ١٣٧٥-١٩٥٥.

٢٥- البيان عن الفرق بين المعجزات والكرامات والحيل والكهانات والسحر والنرجلات، للباقلانى، ط. بيروت، ١٩٥٨.

(ت)

٢٦- تاريخ ابن الوردى، لعمر بن الوردى، القاهرة ١٢٨٥.

٢٧- تاريخ الأدب العربى، لكارل بروكلمان، ترجمة. عبد الحليم النجار، ط. المعارف، القاهرة، ١٩٥٩.

٢٨- تاريخ بغداد للحفاظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى، القاهرة، ١٣٤٩-١٩٣١.

٢٩- تاريخ الحكماء (مختصر الزوزنى من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء لعلى بن يوسف القفطى) ط. ليبزج، ألمانيا، ١٩٠٣.

٣٠- تاريخ حكماء الإسلام، لظهير الدين على بن زيد البيهقى، تحقيق الأستاذ محمد كرد على، ط. المجمع العلمى العربى، دمشق ١٣٦٥-١٩٤٦.

٣١- التأريخ الكبير، لأبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى، ط. حيدر اباد، ١٣٦١.

٣٢- تأويل مشكل القرآن، لأبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة، تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر، ط. عيسى الحلبى، القاهرة، ١٣٧٣-١٩٥٤.

٣٣- التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، لأبى المظفر الإسفرايينى، تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى، القاهرة ١٣٥٩-١٩٤٠.

٣٤- تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى، لعلى بن الحسن بن عساكر، ط. القدسى دمشق، ١٣٤٧.

٣٥- تجريد التمهيد لما فى الموطأ من المعانى والأسانيد، لأبى عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمرى القرطبى، ط. القدسى، القاهرة ١٣٥٠.

٣٦- تذكرة الحفاظ، لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى، الطبعة الثالثة، حيدر آباد، ١٣٧٥-١٩٥٥.

٣٧- تذكرة الموضوعات، لمحمد طاهر بن على الفتنى، ط. المنيرية، القاهرة، ١٣٤٣.

٣٨- ترتيب مسند الطيالسى (منحة المعبود فى ترتيب مسند الطيالسى أبى داود)، للأستاذ أحمد عبد الرحمن البنا، القاهرة، ١٣٧٢.

٣٩- التفكير فريضة إسلامية: محمود العقاد: مطبعة بيروت.

٤٠- تلبيس إبليس: لابن الجوزى: محمود مهدى الأستانبولى ١٣٩٦.

٤١- الترغيب والترهيب من الحديث الشريف، لعبد العظيم بن عبد القوى المنذرى، تحقيق مصطفى محمد عمارة، ط، مصطفى الحلبى، القاهرة، ١٣٥٢-١٩٣٣.

٤٢- التصوف الثورة الروحية فى الإسلام، للدكتور أبى العلا عفيفى، ط. المعارف، الاسكندرية، ١٩٦٣.

٤٣- التعرف لمذهب أهل التصوف، لأبى بكر محمد الكلاباذى، تحقيق د. عبد الحليم محمود، ط. عيسى الحلبى، القاهرة، ١٣٨٠-١٩٦٠.

٤٤- التعريفات، لعلى بن محمد الجرجانى (مع رسالة اصطلاحات الصوفية لابن عربى)، ط. مصطفى الحلبى، ١٣٥٧-١٩٣٨.

٤٥- تفسير البغوى، (معالم التنزيل) بذيل تفسير ابن كثير، ط. المنار القاهرة.

٤٦- تفسير الطبرى (جامع البيان عن تأويل آى القرآن) لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، تحقيق الأستاذ محمود محمد شاكر، ط. المعارف، القاهرة.

٤٧- تفسير الطبرى، ط. بولاق، القاهرة، ١٣٢٣.

٤٨- تفسير غريب القرآن، لابن قتيبة، تحقيق الأستاذ السيد أحمد صقر عيسى الحلبى، ١٣٧٨- ١٩٥٨.

٤٩- تفسير القرآن العظيم ، لأبى الفداء إسماعيل بن كثير، ط. مصطفى الحلبى، القاهرة، ١٣٦٧-١٩٤٨.

٥٠- تفسير القرطبى (الجامع لأحكام القرآن)، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى القرطبى، ط. دار الكتب، القاهرة، ١٣٧٢-١٩٥٢.

٥١- تقريب التهذيب، لأحمد على بن حجر العسقلانى، تحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف، ط. دار الكتاب العربى القاهرة ١٣٨٠ - ١٩٦٠.

٥٢- تمييز الطيب من الخبيث فيما يدورعلى ألسنة الناس من الحديث، لابن الديبع الشسيبانى، ط. محمد صبيح ، القاهرة ١٣٤٧.

٥٣- التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع، لأبى الحسين محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطى : تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى ط عزت العطار القاهرة ١٢٦٨-١٩٤٩.

٥٤- تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية : الشيخ مصطفى عبد الرزاق ط البابى الحلبى - القاهرة.

٥٥- تاريخ الجهمية والزنادقة والمعتزلة : للشيخ جماد الدين القاسمى.

٥٦- تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة، لأبى الحسن على بن محمد بن عراق الكنانى، تحقيق الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف، مكتبة القاهرة، ١٣٧٨.

٥٧- تهذيب الأسماء واللغات، لأبى زكريا محيى الدين بن شرف النووى، ط. المنيرية، بدون تاريخ.

٥٨- تهذيب التهذيب، لابن حجر العسقلانى، ط. حيدر آباد، ١٣٢٥- ١٣٢٧.

٥٩- التوحيد وإثبات صفات الرب، لأبى بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة، ط. المنيرية، القاهرة، ١٣٥٣.

٦٠- تيسير الوصول إلى جامع الأصول، لعبد الرحمن بن على بن الديبع الشيبانى، ط. مصطفى الحلبى، ١٣٥٣-١٩٣٤.

(ج)

٦١- جامع الأصول من أحاديث الرسول، لأبى السعادات مبارك بن محمد بن الأثير الجزرى، تصحيح الشيخ محمد حامد الفقى، ط، السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٦٨-١٩٤٩.

٦٢- الجامع الصحيح، لمسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى، استانبول ١٣٢٩- ١٣٣٣.

٦٣- الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير، لعبد الرحمن بن جلال الدين السيوطى، ط. مصطفى الحلبى، القاهرة، ١٣٥٨-١٩٣٩.

٦٤- الجبال والأمكنة والمياه، للزمخشرى، ط. النجف، ١٣٨١-١٩٦٢.

٦٥- الجرح والتعديل، لأبى محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم محمد بن إدريس الرازى، الطبعة الأولى، حيدر آباد، ١٣٧١-١٩٥٢.

٦٦- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية، ط، المدنى، القاهرة ١٣٧٩-١٩٥٩.

(ح)

٦٧- الحلاج شهيد التصوف الإسلامى، للأستاذ طه عبد الباقى سرور ط. المكتبة العلمية، القاهرة ١٩٦١.

٦٨- الحور العين، لأبى سعيد نشوان الحميرى، تحقيق الأستاذ كمال مصطفى، ط. الخانجى والمثنى، القاهرة، ١٩٤٨.

(خ)

٦٩- الخطط (المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار) لتقى الدين أحمد بن على المقريزى، ط. الأميرية ببولاق، القاهرة، ١٢٧٠.

٧٠- خلاصة تهذيب الكمال فى أسماء الرجال، لأحمد بن عبد الله الخزرجى الأنصارى، ط. الخيرية، القاهرة، ١٣٢٢.

(د)

٧١ – دائرة المعارف الإسلامية .

٧٢– الدر المنثور فى التفسير بالمأثور، لجلال الدين السيوطى، ط . طهران، ١٣٧٧ .

٧٣– دول الإسلام فى التاريخ، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الذهبى، الطبعة الثانية، حيدر آباد، ١٣٦٤ .

٧٤– الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب، لإبراهيم بن على محمد ابن فرحون المالكى، ط . مطبعة المعاهد . ١٣٥١ .

(ذ)

٧٥– ذخائر المواريث فى الدلالة على مواضع الحديث، لعبد الغنى النابلسى، ط . جمعية النشر والتأليف الأزهرية، القاهرة، ١٣٥٢–١٩٣٤ .

٧٦– الذيل على طبقات الحنابلة، لابن رجب الحنبلى، تحقيق حامد الفقى، ط . السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٧٢–١٩٥٢ .

(ر)

٧٧– رجال الطوسى، لأبى جعفر بن الحسن الطوسى، تحقيق محمد صادق آل بحر العلوم، ط . الحيدرية، النجف، ١٣٨١–١٩٦١ .

٧٨– الرد على الجهمية، لأبى سعيد عثمان بن سعيد الدارمى، تحقيق جوستا ويتستام، ط . ليدن، هولندا ١٩٦٠ .

٧٩– الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه على غير تأويله، لأحمد بن حنبل، تحقيق محمد حامد الفقى، نشرت فى مجموعة شذرات .

٨٠– البلاتين من طيبات كلمات سلفنا الصالحين، ط . السنة المحمدية القاهرة، ١٣٧٥–١٩٥٦ .

٨١– الرد على المنطقيين، لابن تيمية، تحقيق عبد الصمد شرف الدين، ط . بومباى، الهند، ١٣٦٨–١٩٤٩ .

٨٢- الرسالة العرشية، لابن سينا، ضمن مجموعة رسائل الشيخ الرئيس حيدر آباد، ١٣٤٥.

٨٣- رسالة فى القوى الإنسانية وإدراكاتها، لابن سينا، ضمن تسع رسائل فى الحكمة والطبيعيات، الطبعة الأولى، مطبعة هندية، القاهرة، ١٣٢٦- ١٩٠٨.

٨٤- الرسالة القشيرية فى علم التصوف، لأبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى، ط. محمد صبيح، القاهرة، ١٣٦٧-١٩٤٨.

٨٥- روضات الجنات فى أحوال العلماء والسادات، لميرزا محمد باقر الموسوى الخوانسارى، الطبعة الثانية (طبع حجر)، طهران ١٣٦٧.

٨٦- الرياض النضرة فى مناقب العشرة، لأبى جعفر أحمد المحب الطبرى، الطبعة الثانية، نشر الخانجى، ١٣٧٢-١٩٥٣.

(س)

٨٧- سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، للشيخ محمد ناصر الدين الألبانى، د دمشق، ١٣٧٩ - ١٩٤٩.

٨٨- سنن ابن ماجه، لأبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى، ابن ماجه، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، ط. عيسى الحلبى، ١٣٧٣-١٩٥٤.

٨٩- سنن أبى داود، لأبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى، تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الثانية، المكتبة التجارية، القاهرة ١٣٦٩ - ١٢٧٠ - ١٩٥٠ - ١٩٥١.

٩٠- سنن الترمذى، لأبى عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذى (بشرح ابن العربى)، ط. المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة، ١٣٥٠-١٩٣١.

٩١- سنن الدارمى، لأبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمى، ط. دمشق ١٣٤٩.

٩٢- سنن النسائى، لأحمد بن شعيب بن على النسائى (بشرح السيوطى) ط. التجارية، القاهرة ١٣٤٨-١٩٣٠.

٩٣- كتاب «السنة» لأحمد بن حنبل، ط. السلفية، مكة ١٣٤٩.

(ش)

٩٤- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، لابن العماد الحنبلى، ط. القدسى، القاهرة، ١٣٥٠.

٩٥- شرح نهج البلاغة، لعبد الحميد بن أبى الحديد، تحقيق الأستاذ أبى الفضل إبراهيم، ط، عيسى الحلبى، القاهرة، ١٩٥٨.

٩٦- شرح النووى على صحيح مسلم، ليحيى بن شرف النووى، ط. المطبعة المصرية بالأزهر، القاهرة، ١٣٤٧-١٩٢٩.

٩٧- الشريعة، لأبى محمد بن الحسين بن عبد الله البغدادى الآجرى، تحقيق الشيخ محمد حامد، ط. السنة المحمدية. القاهرة، ١٣٦٩-١٩٥٠.

٩٨- الشفاء، لابن سينا، قسم النفس (من الطبيعيات)، تحقيق يان باكوش، ط. مطبعة المجمع العلمى التشكوسلوفاكى، براغ، ١٩٥٦.

(ص)

٩٩- صحيح ابن حبان، لأبى حاتم محمد بن حبان بن أحمد بن حبان التميمى، الجزء الأول، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، ط. المعارف القاهرة، ١٣٧٢- ١٩٥٢.

١٠٠- صحيح البخارى، لمحمد بن إسماعيل البخارى، ط. المطبعة الأميرية، القاهرة، ١٣١٤.

١٠١- صون المنطق والكلام، جلال الدين السيوطى. تحقيق سامى انتشار.

(ط)

١٠٢- طبقات الأطباء = عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، لأحمد بن القاسم المعروف بابن أبى أصيبعة، دار الفكر، بيروت ١٣٧٦-١٩٥٦.

١٠٣- طبقات الحنابلة، لابن أبى يعلى، تحقيق محمد حامد الفقى، ط. السنة المحمدية القاهرة، بدون تاريخ.

١٠٤- طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين عبد الوهاب بن على السبكى، المطبعة الحسينية، القاهرة ١٣٢٤.
١٠٥- طبقات الصوفية، لأبى عبد الرحمن السلمى، تحقيق الأستاذ نور الدين شريبة، القاهرة ١٣٧٢-١٩٥٣.
١٠٦- الطبقات الكبرى، لعبد الوهاب الشعرانى، طبع مصر، بدون تاريخ.
١٠٧- الطبقات الكبرى، لمحمد بن سعيد بن منيبع البصرى الزهرى، ط. بيروت، ١٣٧٦-١٩٥٧.
١٠٨- طبقات المفسرين، لجلال الدين السيوطى، ليدن، هولندا، ١٨٣٩.

(ع)

١٠٩- عبد الله بن سبأ، لمرتضى العسكرى، الطبعة الثانية، ط. دار الكتاب العربى القاهرة ١٣٨١.
١١٠- العبر فى خبر من غبر، للحافظ الذهبى، ط. الكويت، ١٩٦٠.
١١١- العلل ومعرفة الرجال، لأحمد بن حنبل، ط. أنقرة، تركيا ١٩٦٣.
١١٢- عمل اليوم والليلة، لابن السنى، ط. حيدر آباد، ٣١٥.

(غ)

١١٣- الغزالى، للدكتور أحمد فريد رفاعى، ط. عيسى الحلبى، القاهرة، ١٣٥٦-١٩٣٧.

(ف)

١١٤- فتح البارى بشرح صحيح البخارى، لابن حجر العسقلانى، ط. المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة ١٣٠٠.
١١٥- الفتح الكبير فى ضم الزيادة إلى الجامع الصغير (وهما لجلال الدين السيوطى، تأليف يوسف النبهانى، ط. مصطفى الحلبى، القاهرة، ١٣٥١-١٩٣٢.
١١٦- الفتوحات المكية، لمحيى الدين محمد بن على بن عربى، ط. دار الكتب العربية الكبرى، القاهرة، ١٢٢٩.

١١٧- فجر الإسلام للدكتور أحمد أمين لجنة التأليف والترجمة والنشر مصر.

١١٨- فخر الدين الرازى: على محمد حسن العماوى: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

١١٩- الفرق الإسلامية ونشأة علم الكلام: على مصطفى الغرابى.

١٢٠- الفرق بين الفرق، لابن طاهر البغدادى، تحقيق الشيخ محمد زاهد الكوثرى، القاهرة، ١٣٦٧-١٩٤٨.

١٢١- فرق الشيعة، للحسن بن موسى النوبختى، تحقيق محمد صادق آل بحر العلوم، ط. المطبعة الحيدرية، النجف، ١٣٧٩-١٩٥٩.

١٢٢- الفصل فى الملل والأهواء والنحل، لأبى محمد على بن حزم، ط. المطبعة الأدبية، القاهرة ١٣١٧-١٣٢١.

١٢٣- فصوص الحكم، لابن عربى، تحقيق الدكتور أبى العلا عفيفى، ط. عيسى الحلبى، القاهرة ١٩٤٦.

١٢٤- فلسفة المعتزلة، للدكتور ألبير نصرى نادر، ط. الاسكندرية، ١٩٥٠.

١٢٥- الفهرست، لابن النديم، ط. التجارية، القاهرة، ١٣٤٨.

١٢٦- فهرس الخزانة التيمورية، ط. دار الكتب، القاهرة ١٣٦٩-١٩٥٠.

١٢٧- فوات الوفيات، لابن شاكر الكتبى، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد، ط. النهضة المصرية، القاهرة ١٩٥١.

١٢٨- الفوائد المجموعة فى الأحاديث الموضوعة، لمحمد بن على الشوكانى تحقيق الشيخ عبد الرحمن بن يحيى العلمى اليمانى، ط. السنة المحمدية، القاهرة، ١٣٨٠-١٩٦٠.

١٢٩- فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة للإمام الغزالى تحقيق د. سليمان دينا.

(ق)

١٣٠- القرب فى محبة العرب، لزين الدين العراقى، ط. الاسكندرية ١٣٨١-١٩٦١.

١٣١- القصور العوالى من رسائل الإمام الغزالى، لأبى حامد الغزالى، ط. مكتبة الجندى، القاهرة، بدون تاريخ.

(ك)

١٣٢- الكافى، لأبى جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق السكلينى، تحقيق على أكبر الغفارى، ط. مكتبة الصدوق، طهران ١٣٧٧-١٣٨١.

١٣٣- الكامل (تاريخ)، لعلى بن محمد بن الأثير الجزرى، ط الحلبى، القاهرة ١٣٠٣.

١٣٤- كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، لإسماعيل بن محمد العجلونى، ط المقدسى، القاهرة ١٣٥١.

١٣٥- كنز العمال، لعلى المتقى بن حسام الدين الهندى، ط. حيدر آباد، ١٣٨١-١٩٦٠ الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية لعبد الرؤوف المناوى، القاهرة.

(ل)

١٣٦- اللالىء المصنوعة فى الأحاديث الموضوعة، جلال الدين السيوطى، ط. المكتبة الحسنية المصرية بالأزهر، ١٣٥٢.

١٣٧- اللباب فى تهذيب الأنساب، لعلى بن محمد بن الأثير، ط. القدسى، القاهرة، ١٣٥٧-١٣٦٩.

١٣٨- لسان العرب، لابن منظور.

١٣٩- لسان الميزان، لابن حجر العسقلانى، ط. حيدر آباد، ١٣٢٩.

١٤٠- لطائف الأسرار، لابن عربى، تحقيق الأستاذين أحمد زكى عطية وطه سرور ط. دار الفكر العربى، القاهرة، ١٣٨٠-١٩٦١.

١٤١- اللمع فى التصوف، لأبى نصر السراج الطوسى، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود وطه عبد الباقى سرور، القاهرة، ١٩٦٠.

١٤٢- مجمع الزوائد، لعلى بن أبى بكر الهيثمى، ط. القدسى القاهرة ١٢٥٢- ١٣٥٣.

١٤٣- مختصر كتاب البلدان، لابن الفقيه، ط ليدن، ١٣٠٢.

١٤٤- مجموعة الرسائل والمسائل، لابن تيمية، تحقيق الشيخ محمد رشيد رضا، ط. المنار، القاهرة، ١٣٤١.

١٤٥- مجموعة الرسائل المنيرية، القاهرة، ١٣٤٣-١٣٤٦.

١٤٦- مجموعة فتاوى شيخ الإسلام، لابن تيمية، ط. الرياض.

١٤٧- مجموعة الفتاوى الكبرى، لابن تيمية، ط. الكردى ١٣٢٩.

١٤٨- المدخل إلى مذهب الإمام أحمد، لابن بدران، ط. المنيرية، القاهرة.

١٤٩- مذاهب الإسلاميين د. عبد الرحمن بدوى. مطبعة دار العلم للملايين - بيروت.

١٥٠- مرآة الجنان، لليافعى، ط. حيدر آباد، ١٣٣٧.

١٥١- مروج الذهب ومعادن الجوهر، لعلى بن الحسين بن على المسعودى تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد، الطبعة الثالثة، ط. التجارية، القاهرة، ١٣٧٧-١٩٥٨.

١٥٢- المستدرك، لأبى عبد الله محمد عبد الله، الحاكم النيسابورى، ط. حيدر آباد، ١٣٢٤-١٣٤٢.

١٥٣- المسند، لأحمد بن حنبل، ط. الحلبى، القاهرة ١٣١٣.

١٥٤- المسند، لأحمد بن حنبل، تحقيق الشيخ أحمد شاكر، ط. المعارف، القاهرة، ١٣٦٥-١٣٧٤-١٩٤٦-١٩٥٥.

١٥٥- مشكاة المصابيح، لمحمد بن عبد الله الخطيب التبريزى، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألبانى، ط. دمشق، ١٣٨٠-١٩٦١.

١٥٦- المضنون به على غير أهله، للغزالى - انظر: القصور العوالى.

١٥٧- معانى القرآن. للفراء، ط. دار الكتب القاهرة ١٣٧٤-١٩٥٥.
١٥٨- المعتبر فى الحكمة، لأبى البركات هبة الله بن ملكًا، ط. حيدر آباد ١٣٥٧.
١٥٩- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: محمد فؤاد عبد الباقى مطابع الشعب مصر.
١٦٠- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى: أى فنسنك مطبعة بريل لندن ١٩٦٢م.
١٦١- معجم البلدان، لياقوت.
١٦٢- معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، لعبد الله بن محمد العزيز البكرى، تحقيق الأستاذ مصطفى السقا، القاهرة ١٣٦٤-١٩٥٩.
١٦٣- المعجم الأوسط، ط. مجمع اللغة العربية.
١٦٤- مفتاح كنوز السنة، وضع فنسنك، ترجمة الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى.
١٦٥- المقاصد الحسنة فى بيان كثير من الأحاديث المشتهرة على الألسنة، لمحمد ابن عبد الرحمن السخاوى، تحقيق عبد الله محمد الصديق، نشر الخانجى، القاهرة ١٣٧٥-١٩٥٦.
١٦٦- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، لأبى الحسن الأشعرى، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة ١٣٦٩-١٩٥٠.
١٦٧- مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن خلدون - المكتبة التجارية الكبرى - مصر.
١٦٨- الملل والنحل، لمحمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستانى، تحقيق الشيخ محمد بن فتح الله بدران، الطبعة الثانية، نشر الأنجلو، القاهرة، ١٣٧٥ - ١٩٥٦.
١٦٩- المعتزلة: للأستاذ زهدى حسن. مطبعة مصر ١٩٤٧م.

١٧٠- مفتاح السعادة: طاش كبرى زاده.
١٧١- مناقب ابن عربى، لإبراهيم عبد الله القارىء، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، ط. بيروت ١٩٥٩.
١٧٢- مناقب الإمام أحمد بن حنبل، لابن الجوزى، ط. الخانجكى، القاهرة، ١٣٤٩.
١٧٣- المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك، لابن الجوزى، ط. حيدر آباد، ١٣٥٧.
١٧٤- منهاج السنة النبوية فى نقض كلام الشيعة القدرية، لابن تيمية، مكتبة دار العروبة، القاهرة ١٣٨٢-١٣٨٤-١٩٦٢-١٩٦٤.
١٧٥- منهاج السنة، لابن تيمية، ط. بولاق، القاهرة، ١٣٢١-١٣٢٢.
١٧٦- موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول، لابن تيمية، الجزء الرابع، نسخة خطيبة بالمكتبة التيمورية (رقم ١٨٢ عقائد).
١٧٧- الموضوعات، لعلى القارى، ط. استانبول، بدون تاريخ.
١٧٨- الموطأ، لمالك بن أنس، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى، ط. عيسى الحلبى، القاهرة ١٣٧٠-١٩٥١.
١٧٩- المنية والأملة فى شرح كتاب الملل والنحل، لابن المرتضى، تحقيق توماس أرنولد، ط حيدر آباد، ١٣١٦.
١٨٠- ميزان الاعتدال، للذهبى، ط. مطبعة السعادة، القاهرة ١٣٢٥.

(ن)

١٨١- النجاة، لابن سينا، محيى الدين الكربى، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٥٧-١٩٣٨.
١٨٢- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، لابن تغرى بردى، ط. دار الكتب المصرية، القاهرة.
١٨٣- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، لأحمد بن محمد المقرى، تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد، ط. التجارية، القاهرة ١٣٦٧-١٩٤٩.

١٨٤- نكت الهميان في نكت العميان، لصلاح الدين خليل بن أيبك الصفدى، تحقيق الأستاذ أحمد زكي، مطبعة الجمالية، القاهرة ١٣٢٩- ١٩١١م.

١٨٥- نهاية الإقدام في علم الكلام، للشهرستاني، تحقيق ألفرد جيوم، لندن، ١٩٣٤.

١٨٦- النهاية في غريب الحديث لمجد الدين المبارك بن محمد بن محمد بن الأثير الجزرى ط. المطبعة العثمانية ١٣١١هـ.

١٨٧- نيل الأوطار - شرح منتقى الأخبار للشوكاني، ط. المنيرية القاهرة ١٣٤٤هـ.

(هـ)

١٨٨- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان تحقيق الشيخ محمد محيى الدين عبد الحميد - الطبعة الأولى ، مكتبة النهضة المصرية القاهرة ١٣٦٧-١٩٤٨.

* * *

فهرس الموضوعات

م	الموضـوع	الصفحة

م	الموضـوع	الصفحة
٥٠	الإيمان بالميزان	١٢٨
٥١	الجنة والنار مخلوقتان	١٣٢
٥٢	الاستطاعة مناط التكليف	١٤٢
٥٣	أفعال العباد	١٤٧
٥٤	الرد على الجبرية والمعتزلة	١٤٨
٥٥	العبد فاعل لفعله ولكنه مخلوق لله	١٥٤
٥٦	قضاء الله يكون كونيًا وشرعيًا	١٥٧
٥٧	نفى الظلم عن الله تعالى	١٥٩
٥٨	دعاء الأحياء للأموات	١٦٣
٥٩	انتفاع الميت بغير ما تسبب فيه	١٦٤
٦٠	وصول ثواب العبادات للأموات	١٦٥
٦١	وصول ثواب الحج للميت	١٦٥
٦٢	استئجار من يقرأ القرآن لم يفعله السلف	١٦٨
٦٣	التطوع بقراءة القرآن يصل للميت	١٦٩
٦٤	استجابة الله لعباده	١٧٠
٦٥	الرد على من قال الدعاء لا يفيد	١٧١
٦٦	الله يملك ويغضب ويرضى	١٧٥
٦٧	حب أصحاب رسول الله – ﷺ	١٧٨
٦٨	ثبوت الخلافة لأبى بكر بالنص	١٨٣
٦٩	خلافة عمر الفاروق	١٨٩
٧٠	خلافة عثمان – رضى الله عنه	١٩١
٧١	خلافة على بن أبى طالب	١٩٥
٧٢	الخلفاء الراشدون	١٩٧
٧٣	العشرة المبشرون بالجنة	١٩٩
٧٤	من يحسن القول يبرأ من النفاق	٢٠٣
٧٥	ذكر علماء السلف بالجميل	٢٠٥

رقــم الإيــداع : ٤٢٨٢ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى : 1-140-995-977